

كتاب المصلا

بناء النخضة العربية

بقلم

مخرجي زريان

سلسلة شهرية

تصدر عن دار المصلا



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

العدد ٧٢ - شعبان ١٣٧٦ - مارس ١٩٥٧

No. 72 — March 1957

مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتب

كتاب الهلال - بوسنة مصر العمومية - مصر
التيقون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي (١٢ عددا) - مصر والسودان
٨٥ قرشا صاغا - سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشا سوريا أو
لبنانيا - الحجاز والعراق والأردن وليبيا ١١٠ قروش
صاغا - في الأمريكتين ٥ دولارات - في سائر
أنحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٣٠/٩ شلن

كتاب الهدى



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

بُناة النخضة العربية

بقلم

حرجى زيدان

دارالسلام



جرجى زيدان مؤسس الهلال

مقدمة

امتياز عهدنا الجديد - عهد الثورة - بتوطيد دعائم النهضة العربية ، والعمل لتقدمها ، والدعوة الى توحيد جهود العرب للمحافظة على القومية العربية ، لأنها كما قال الرئيس جمال عبد الناصر : « الدرع الواقية التي تحمى مصر وتحمى سائر الدول العربية من مؤامرات المستعمرين وأطماع الطامعين »

والواقع ان هذه الاطماع والمؤامرات التي يدعو اليها الرئيس اليوم تمتد الى عشرات السنين . فقد عمل المستعمرون والطامعون للقضاء على القومية العربية ، وتقطيع اوصال الاقطار العربية من المحيط الاطلسي الى خليج العرب ليتمكنوا من السيطرة على هذه الاقطار ، واستعباد أهلها العرب ، وتمزيق وحدتهم ، ونحو عروبتهم

وقد كانت الحروب الصليبية ترمى الى هذه الغاية ، فلم تكن - كما اثبت بعض المؤرخين - حروبا دينية ، بل كانت حروبا استعمارية يريد بها الغرب استعمار الشرق كما حدث في فتوحات اليونان في عهد الاسكندر وقبل عهده ، وكما فعل الرومان في غزواتهم للشرق الاوسط واستيلائهم على مصر ونحوها من البلاد الشرقية حتى أطلق هؤلاء المؤرخون على الصليبيين الفرنجة او الافرنج

كان الشرق الاوسط اذن مطمع المستعمرين الغربيين منذ اقدم العصور ، لأنه مهد الحضارة ومهبط الوحي ، ومطلع

العلوم والآداب ، وملتقى قارات العالم . وكانت شعوب البلاد الغربية في جهلها ووحشيتها تنظر اليه باعتباره بلاد المدنية والرقى والثروة الروحية والمادية ، فكانت مطامعهم على الدوام تتجه اليه وتتهافت على خيراتہ ، والاستبداد بأهله وسلبهم أقاتهم وأموالهم وثمرات أرضهم ، ليأخذوها هم الى بلادهم ، ويخدموا بها شعوبهم ويضاعفوا بها قوتهم ، ويزدادوا بالشرقيين ظلما واستبدادا وعدوانا

ولما ظهرت الحضارة العربية ، وتغلبت على هؤلاء المستعمرين من الرومانيين واليونانيين وغيرهم من الفرنجة استطاعت البلاد العربية أن تعيش حرة مستقلة ردا من الزمان . بل استطاعت أن تقابل القوة بأقوى منها حتى انتشرت من خليج العرب الى المحيط الاطلسي ، وغزت أوربا وامتلكت اسبانيا وأرخيل الجزائر الايطالية ، وحاولت أن تفتح أوربا كلها ، ولكن الخلافات الداخلية ، وأطماع الملوك والامراء أضعفت الامبراطورية العربية وقضت على وحدتها ، فاستطاع الغرب أن يعود الى اطماعه الاولى للسيطرة على هذه البلاد



وفي القرن التاسع عشر كانت الدولة العثمانية قد شارفت نهايتها فتنافست الدولتان الغربيتان الكبيرتان في ذلك الحين وهما انجلترا وفرنسا في احتلال مصر وشمال افريقيا وشرقها وجنوب الجزيرة العربية ، وانتهزتا فرصة القضاء على الدولة العثمانية في الحرب العالمية الاولى ، فاحتلتا فلسطين وسورية ولبنان والعراق وتمكنت انجلترا من نشر نفوذها واستعمارها الاقتصادي والسياسي في البلاد الاسلامية الاخرى في هذا الحين ظهرت طائفة من القادة المخلصين وزعماء الاصلاح للدفاع ضد الاستعمار الذي يريد القضاء على العرب والقومية العربية ، فكان في مقدمتهم عبد القادر الجزائري في شمال افريقيا ، واحمد عرابي ، وعبد الله نديم ، ومصطفى

كامل في مصر ، وعبد الرحمن الكواكبي في سورية . وكان المصلحون الاسلاميون والاجتماعيون وفي مقدمتهم جمال الدين الافغانى ، ومحمد عبده ، وقاسم أمين ، وكان العلماء والادباء الذين تولوا تأسيس النهضة العلمية والادبية في الشرق العربى أمثال محمود الفلكى ، ورفاعة رافع الطهطاوى ، ومحمود سامى البارودى ، وعلى باشا مبارك وناصيف اليازجى ، وبطرس البستانى ممن نهضوا بخدمة العلوم والآداب والفنون التى هى أساس نهضات الشعوب وتقدمها الى الامام

ولقد سجل المرحوم جرجى زيدان مؤسس الهلال جهود هؤلاء القادة بناة هذه النهضة العربية في هذا الكتاب الذى اقتبسناه من كتابه الكبير « مشاهير الشرق » ليقف القراء - في هذه الآونة التى تتضاعف فيها الجهود لتقدم النهضة العربية - على تاريخ هؤلاء الاعلام وما قاموا به من خدمات جديرة بأن تتصل بما يبذل اليوم من خدمات جليلة في هذا السبيل لخدمة العروبة ومستقبل الوطن العربى وقد قسمنا هذا الكتاب الى أربعة أقسام تشتمل على تاريخ سبع عشرة شخصية بارزة كما يأتى :

القسم الاول : قادة وساسة

القسم الثانى : رجال اصلاح

القسم الثالث : رجال علم وتعليم

القسم الرابع : رجال أدب وفن

ولاريد أن لهذا الكتاب رسالته القيمة في خدمة الثقافة العربية، ونهضة العرب في مختلف البلاد ، فهو يمثل وحدة العروبة من أقصى المشرق الى أقصى المغرب ، ويدل على أن أهداف الأمة العربية في الحصول على الكرامة والحرية ، وفي الإصلاح العام وتوحيد الجهود ، ترمى الى التخلص من الاستعمار والمستعمرين ، وإعادة ماكان للعرب من مجد وسؤدد

طاهر الطناحى

قادة وساسة

- ١ - عبد القادر الجزائري
- ٢ - أحمد عرابي
- ٣ - محمود سامي البارودي
- ٤ - مصطفى كامل

عبد القادر الجزائري

١٢٢٢ - ١٣٠٦ هـ الموافق ١٨٠٧ - ١٨٨٨ م

هو الامير عبد القادر ناصر الدين ، ابن الامير محيى الدين الحسينى . يتصل نسبه بالامام الحسين . ولد فى شهر مايو سنة ١٨٠٧ فى قرية « القيطنة » التابعة لآيالة وهران فى جزائر الغرب . وكان والده من أكابر العلماء العاملين ، محترما لدى أعيان الجزائر ، لبسط يده ، بكرم أخلاقه ، ووداعته

وقد بذل والده قصارى جهده فى تثقيفه ، لما آنس فيه من الذكاء والدراية ، فتمكن فى مدة قصيرة من اكتساب جانب عظيم من العلم ، وحفظ القرآن الشريف حفظا جيدا . واشتهر فى السابعة عشرة من عمره بشدة البأس وقوة البدن والفروسية ، حتى كان يشار اليه بالبنان بين الفرسان ، لمهارته فى ركوب الخيل ، واللعب على ظهورها . وكان يطارد الخنزير البرى فى الغابات ويصطاده ، على أن ذلك لم يشغله عن القيام بواجباته الدينية

وفى نوفمبر سنة ١٨٢٥ ، صحب والده الى الحرمين لأداء فريضة الحج والزيارة ، فمرا بالاسكندرية وزارا القاهرة ، وذلك فى عهد محمد على « باشا » فأكرمهما وحاشيتهما ، ثم واصلا رحلتهما الى الحجاز عن طريق السويس . وعرجا بعد الحج على دمشق فأمضيا فيها زمنا . ثم سارا منها الى بغداد لزيارة مقام سيدى عبد القادر الكيلانى ، فنالا هناك كل رعاية واکرام . ومن هناك عادا الى الحرمين ثم الى وطنهما ، فوصلا اليه فى أوائل سنة ١٨٢٨



عبد القادر الجزائري

وازداد عبد القادر بعد هذا السفر شغفا بالعلم ، فاعتزل لتحصيله ، ولزم الخلوة حيث عكف على مطالعة كتب العلم والفلسفة ، فدرس رسائل أفلاطون وفيثاغورس وأرسطاطاليس وتعمق في درس الفقه والحديث ، والجغرافيا والفلك والتاريخ ، وكتب العقاقير . وجمع مكتبة من أئمن مكتبات تلك الايام وفي سنة ١٨٣٠ ، استولى الفرنسيون على الجزائر ، ووزعوا منشورات أعلنوا فيها امتلاكهم للبلاد ، وأخرجوها من أيدي العثمانيين ، فشق ذلك على القبائل العربية القاطنة في تلك الانحاء ، وثاروا ضد الفرنسيين . وكانت قوات هؤلاء بقيادة الجنرال « برمونت » . قد بلغت جبال الاطلس ، فاضطرت الى التقهقر حتى السواحل وأخذت في تحصينها ، ثم عادت فاستولت على مدينة وهران

وكانت نتيجة احتلال الفرنسيين لتلك البلاد ، وخروج بعضها من حوزة الدولة العلية « تركيا » أن اختلت الاحوال فيها ، فسادت الفوضى ، واجتمع المرابطون ورؤساء القبائل وفي مقدمتهم الامير محيي الدين والدصاحب الترجمة . وتشاوروا في الامر ، فاستقر الرأي على الانضمام الى سلطان مراكش ، وكان يومئذ مولاي عبد الرحمن ، ووافقهم على ذلك ، فدخلت الجزائر في سلطانه ، وبايعه الجزائريون وخطبوا باسمه

وغضب الفرنسيون ، وبعثوا الى مولاي عبد الرحمن مهددين بالحرب ان لم يسحب جنوده من الجزائر ، فأثر الانسحاب . وعلى أثر ذلك اجتمع كبار الجزائريين للتشاور في الامر واستقر رأيهم على اقامة الامير محيي الدين سلطانا على البلاد ، وذهبوا اليه في بلدته « القيطنه » حيث عرضوا عليه الامر وأرادوا مبايعته ، ولما أمسك عن الاجابة هددوا بقتله ان لم يقبل . فاستجاب لرغبتهم ، « على أن تكون السلطة لولده عبد القادر ، وقبلوا ذلك راضين مغتبطين

كان الامير عبد القادر في ذلك الوقت يحارب الفرنسيين في

موضع يقال له « حصن فيليب » . فبعثوا اليه وبأيعوه، وسنه
اذ ذاك ٢٥ سنة . وعلى أثر مبايعته قصد الى المسجد الجامع
حيث صلى بالناس وخطبهم حاثا اياهم على الطاعة ، والعمل
بمقتضى الشرع الشريف ، والاقتداء بالخلفاء الراشدين

ثم جمع كلمة القبائل ، وضم بعضها الى بعض لكي تقوى
على مقاومة العدو الاجنبى واخراجه من البلاد . وخاض عدة
وقائع فاز فيها على الفرنسيين ، ولا سيما موقعة وهران ، اذ
انتصر فيها انتصارا مبينا ، وكانت قوات الفرنسيين فيها
بقيادة الجنرال «ميشيل» فهابه الفرنسيون ، وأخذوا يخشون
بطشه منذ ذلك الحين . ولم تر حكومة فرنسا - برغم شدة
رغبتها فى بسط سلطتها على الجزائر - أن تخاطر بإرسال حملة
كبيرة اليها لمحاربة الامير عبد القادر ، وأوعزت الى الجنرال
«ميشيل» أن يعقد معه معاهدة صلح ، وتم عقدها سنة
١٨٣٤ م



ولما هدأت الاحوال ، تفرغ الامير عبد القادر لاصلاح
الشئون الداخلية فى بلاده ، وواصل فى الوقت نفسه اعداد
العدة لمواجهة الحرب ، لاعتقاده انها آتية . فأنشأ مصانع
للأسلحة وصب المدافع وانتاج البارود ، وتنظم الجيش . وكان
هذا يحتاج الى نفقات طائلة ، فطالب القبائل بأداء الزكاة عن
ماشيتها ، وامتنع بعضها ، لكنه تمكن بحسن درايته من
اخضاعها ولم شعثها ، فاتسعت سلطته وامتد نفوذه

وشق ذلك على الجنرال « دى أورلين » - القائد العام
للقوات الفرنسية - فطلب الى الامير عبد القادر أن يلزم
حدوده ، ولا يمد سلطته الى خارج مدينة وهران . وأجاب
الامير بأن دائرة سلطته غير محدودة بمقتضى المعاهدة بين
الفريقين . وطالت المفاوضات فى هذا الشأن ، وأدرك سوء
نيتهم . ثم تحقق ذلك حينما رفضت بعض القبائل المقيمة

خارج وهران أمره اليها بالانتقال الى الداخل ، واحتمت هذه القبائل بالفرنسيين ، فقبلوا أن يحموها برغم طلبه اليهم إلا يفعلوا . ثم ساروا لقتاله في خمسة آلاف من المشاة وعدة من الفرسان وبعض المدافع . ولكنهم سرعان ما انسحبوا أمام رجاله . وماكادوا يصلون الى مضيق هناك ، حتى باغتهم الامير ورجاله بهجوم خاطف ، انتهى بالقضاء على أكثر قواتهم فلم ينج منها الا قليل !

وكان لهذه الهزيمة النكراء صدى بعيد في فرنسا ، وقام الخطباء هناك يلومون حكومتها ويحضونها على الانتقام من ذلك الامير العربى . وكان هو على علم بكل مايجرى في باريس من اطلاعه بانتظام على ماينشر فى الصحف الفرنسية ، بواسطة مترجمين خصصهم لذلك . فضاعف استعداداه . حتى اذا جاءت قواتهم الى وهران فى نوفمبر سنة ١٨٣٥ ، خف الى قتالهم . ولكن كثيرا من رجاله لم يثبتوا معه وتفرقوا عنه ، فلم يجد بدا من الرجوع الى « مسكرا » - العاصمة التى اتخذها لنفسه - ولم يستطع دخولها اول الامر لوجود القوات الفرنسية بها ، فنزل ببلدة قريبة منها وهو فى حالة يأس شديد . ثم جاءته الانباء بأن الفرنسيين أخلوها ، فانتقل اليها حيث وافاه رجاله المخلصون ، واشتد أزره مرة أخرى ، واخذ فى معاقبة الذين خالفوه !

وكان الفرنسيون قد احتلوا « تلمسان » . ورحب بهم أهلها ، ولكن اليهود فيها ضاقوا بالفرنسيين لفرضهم ضرائب باهظة عليهم وارغامهم على ادائها . فانتهاز الامير عبد القادر هذه الفرصة ، وقام على رأس رجاله بهجوم سريع على تلك المدينة ، وتمكن من الاستيلاء عليها وطرد الفرنسيين منها بعد معركة حامية !

واشتد غضب الفرنسيين فى باريس على الامير المنتصر ، وبعثوا الى الجزائر بنجذات قوية أخرى . ووقعت معارك عدة

كان النصر في أكثرها حليف الأمير . ثم حدث أن خسر إحدى المعارك ، فانتقض عليه كثير من موطنيه ، وتزعّم العصاة قاض اسمه إبراهيم ، كان يعتزم خلع الأمير ليحل محله . فاشتد غضب الأمير عليه ، وجرد سيفه وعلقه بسرج جواده ، مقسما لا يغمده حتى يقطع به رأس ذلك الخائن . وقد بر بقسمه ، وضرب عنق ذلك القاضي الخائن على مشهد من رجاله ، فكان لذلك وقع عظيم في قلوب كل موطنيه . وسرعان ما عاد المتخلفون إلى صفوف قواته ، فواصل الهجوم بهم على مواقع الفرنسيين ، وضايقهم مضايقة شديدة ، حتى قلت المون لديهم ، كما قلت الذخائر لديه . فاتفق الفريقان على عقد هدنة ويثما يتزود كل منهما بما يحتاج إليه . وعلى ذلك هدأت الحالة في البلاد بعد وقف القتال

وبعد ذلك بقليل ، وصل الجنرال « بوجيد » إلى الجزائر ، موفدا من الحكومة الفرنسية لإعادة تنظيم قواتها هناك ، والقضاء على الأمير ورجاله

وأرسل « بوجيد » إلى الأمير ، مطالباً إياه بأن يعترف بسيادة فرنسا على الجزائر ، وبأن يؤدي لها جزية لقاء اعترافها بسلطانه على منطقة محددة لا تتجاوز نهر الخليف . فرفض الأمير هذه المطالب معلناً الحق لفرنسا في أن تفرضها عليه ، لأنها ليست المنتصرة في الحرب . وشق ذلك على الفرنسيين ، ولكنهم لم يجدوا بداً من الصلح معه ، لمسا عاينوا من بسالته وقوة جلاده . وانتهت المفاوضات بين الفريقين بعقد معاهدة « النافنا » سنة ١٨٣٧ ، وهي تقضى بتبادلها التمثيل القنصلى ، وبألا يسلم الأمير أى ساحل من سواحل بلاده لدولة أجنبية إلا بعد مشاورة فرنسا



وجه الأمير عبد القادر بعد ذلك عنايته إلى إصلاح الشئون

الداخلية لبلاده ، كما واصل الاستعداد العسكري على عادته لمواجهة الطوارئ . وفي خلال ذلك انتقضت عليه بعض القبائل ، وفي مقدمتها قبيلة « ازراق » . فتمكن من اخضاعها بالسيف وحسن السياسة . ثم أنشأ مدينة تجارية سماها « مقدمة » . كما أنشأ كثيرا من المعاقل واستعان بقواد أوربيين لتنظيم جيشه ، وأنشأ مصانع لانتاج المدافع ومختلف الاسلحة في تلمسان وغيرها . وعمل لاستخراج المعادن ، وتنشيط الصناعة والزراعة والتجارة . ونشر التعليم بالاكثر من المدارس . واعتزم انشاء جامعة كبيرة في « مقدمة » تجمع بين العلوم الدينية الاسلامية والعلوم الحديثة . وضرب نقودا فضية ونحاسية نقش على أحد وجهيها « هذه مشيئة الله وعليه توكلت » . وعلى الوجه الآخر « ضرب في مقدمة . السلطان عبد القادر »

وكان شديد التيقظ ، دائم السهر على مصالح بلاده ، حريصا على تفقدها بنفسه . ولكن الظروف لم تسمح باستمرار الامن في الجزائر ، اذ طمع الفرنسيون بعد استيلائهم على « قسنطينية » في مد سلطانهم على البلاد المجاورة لها ، برغم وقوعها في حدود سلطة الامير ، بمقتضى المعاهدة . وأصرروا على عزمهم ، متعللين بتحريف كلمة في تلك المعاهدة . وعبثا حاول الامير حمل حكومة باريس على انصافه ، فأخذ في تحصين المناطق المختلف عليها والاستعداد للدفاع عنها . وارسل الى قائد الحملة الفرنسية ، والى المسيو « تيرس » - الوزير الفرنسي الشهير - منذرا بأن الاصرار على ذلك الطلب لن ينتج الا سفك الدماء ، فلم يعبأوا بانذاره ، وتظاهروا بالتأهب لقتاله ليرهبوه بضخامة عددهم وعدتهم ، ولكنه ثبت على عزمه . وما نشبت الحرب حتى تمكن من دحر القوات الفرنسية وطردها الى السواحل

وعظم الامر على الحكومة الفرنسية ، وارسلت الى قواتها

المنذرة في الجزائر نجدات كبيرة ، فاستأنفت الهجوم على
الامير ورجاله ، ودارت بين الفريقين معركة شديدة بالقرب من
جبال الاطلس ، فتغلب الفرنسيون اول الامر ، ولكن الامير
سرعان ماتدارك الموقف ، وأعاد تنظيم رجاله على النظام القديم
بدلا من النظام الافرنجي الحديث . ثم كر على القوات الفرنسية
فما لبث أن هزمها واضطرها الى الانسحاب !
وتوالى المعارك بعد ذلك طيلة ست سنوات ، واضطرت
فرنسا في نهايتها الى تغيير قائد قواتها في الجزائر ، بقائدها
القديم الجنرال «بوجيد» ، وبعثت معه بامدادات كثيرة من الجند
والاسلحة ، ولكنه لم يثبت في هذه المرة أيضا أمام الامير البطل
المغوار !



ولما رأى الامير أن البلاد أصبحت كلها ميدانا للحرب ، أنشأ
مدينة متنقلة سماها « الزملة » . وهى مؤلفة من خيام تقام
على نظام شوارع المدن ، وتتبع الجيش في حله وترحاله ، حيث
يعمل فيها الصنائع ، ويحتفظ بالاسرى ، ويلجأ اليها المتعبون
من الجند ، كما يقيم بها النساء والاطفال ، وتعد الاطعمة للجنود
العاملين . وقد انتفع الامير بهذا النظام الى حد كبير حمل
الفرنسيين على توجيه الجانب الاكبر من نشاطهم الى حرمانه
من تلك المدينة ، واستطاعوا الوصول اليها بواسطة بعض
الخونة ، فأحرقوها ، كما أحرقوا قبل ذلك مدينة « مقدمة »
التي أنشأها الامير ، ونهبوا ماكان في « الزملة » من مؤن
ومعدات ، كما قتلوا عددا كبيرا ممن كانوا بها
وكان الامير وقت حريق « الزملة » في أحراج « سيرسو »
فلما علم به ، أهمله الامر كثيرا ، ولكنه تجلد وقال لمن حوله :
« لاتهنوا ولا تحزنوا ، ان الله معنا ، وان اخواننا الذين قتلوا
لاحياء عند ربهم يرزقون » . ثم جدد قواته ، وأنشأ « زملة »
جديدة . وكان قد استنجد بحكومة انجلترا ، وبسلطان

مراكش ، فلم ينجده . في حين تلقى الفرنسيون نجدات كبيرة ، وتمكنوا من حمل سلطان مراكش على معاضدتهم ضده . ولكن هذا كله لم يثن عزمه عن مواصلة الجهاد ، فظل يقاتل بشجاعة في مختلف ميادين القتال التي شملت الجزائر كلها ، حتى نهاية سنة ١٨٤٦ . وكان التعب والملل قد نالا من رجاله ، فانحاز بعضهم الى جانب سلطان مراكش . وحاول الامر أن يثنى جاره هذا عن محاربته ، مذكرا اياه بصداقتهما القديمة ، وبما بين بلديهما من علاقات وروابط دينية ولغوية وتاريخية ، ولكن سلطان مراكش لم يستجب له ، وخيره بين التسليم ، أو الرحيل الى برارى الجزائر ، فكظم الامر غيظه ، وأثر اعتزال الناس والعكوف على العبادة

وفي أواخر سنة ١٨٤٧ ، علم بتحرك القوات المراكشية لغزو « زملة » . ولم يكن معه أكثر من خمسة آلاف ، بينما عدد الغزاة القادمين عشرة أمثالهم أو يزيدون . على أنه مع ذلك تمكن من صدهم وتفريق شملهم برجاله القليلين ، اذ فاجأهم بالهجوم المضاد ليلا . ولما أعادوا تنظيم قواتهم وكروا عليه ، تمكن من صدهم مرة أخرى ، وانزل بهم خسائر فادحة ، وواصل مطاردتهم حتى داخل بلادهم . غير أنه أثر الرجوع الى بلاده لقلة رجاله . وفيما هو عائد بهم وقد انهكهم السفر والتعب ، علم بأن القوات الفرنسية تستعد لقتاله على مسيرة ثلاث ساعات ، كما علم في الوقت نفسه بأن القوات المراكشية قادمة من خلفه للانتقام لهزيمتها السابقة ، فجمع رجاله وخطب فيهم مصرحا لهم بحقيقة الخطر المزدوج المحيق بهم ، ثم قال لهم : « لقد وفيت بما بايعتموني عليه ، وبذلتم جهدكم في معاضدتي . أما وحالتنا الآن تقتضى التسليم ، فأرى أن التسليم للفرنسيين خير لنا من التسليم للمراكشين . والرأى لكم في الحالين ! » . فأجابوا بأنهم على رأيه

وحددت ليلة ٢١ ديسمبر سنة ١٨٤٧م للتوقيع على شروط التسليم ، وفي مقدمتها أن يغادر الامر وحاشيته البلاد الى

الاسكندرية أو مدينة بورصة للاقامة بها ، وكانت ليلة ممطرة شديدة العواصف فأناوب الامير رجلين من خاصته وحملهما خاتمه للتوقيع على الشروط في معسكر الفرنسيين ، وما علم القائد الفرنسي برغبة الامير في التسليم طبقا لهذه الشروط حتى وافق فورا ، وكذلك تلقت الحكومة الفرنسية هذا النبأ بالاعتباط الشديد ، واحتفلت به باريس واهلها احتفالا عظيما ، لأنه وضع حدا للمتاعب التي عانتها فرنسا طيلة خمسة عشر عاما . ولما ذهب الامير بعد ذلك الى المعسكر الفرنسي قوبل بالتكريم والاحلال

وفي ٢٥ من ذلك الشهر ، أبحر الامير وحاشيته وعدد أفرادها ثمانون ، على سفينة حربية ، أقلتهم الى طولون . وهناك قوبل الامير بالترحاب ، وعرض عليه أن يقيم بفرنسا ضيفا مكرما على حكومتها هو ومن معه ، فلم يقبل . ثم حدث أثناء ذلك أن وقع انقلاب في نظام الحكم الفرنسي ، وتحولت من الملكية الى الجمهورية ، فطالب الأخذ والرد بين الامير والمستولين الفرنسيين الجدد ، ثم وافقوا على مفادرتة فرنسا الى حيث شاء ، على أن يتعهد هو ورجاله كتابة بعدم رجوعهم الى الجزائر ، وكتب هذا التعهد في مارس سنة ١٨٤٨ م



بقى الامير ومن معه في فرنسا ، في انتظار اعداد العدة لسفرهم ، وفيما هم كذلك فوجئوا بصدور أمر من الجمهورية الفرنسية الجديدة ، اعتبرت فيه الامير أسيرا ، بحجة أنها تسلمته من الحكومة السابقة على هذا الاساس . ثم زج به ورجاله الى السجن في بلدة « ايبس » . فلبثوا فيه حتى أكتوبر سنة ١٨٥٢ ، حيث عكف الامير على الكتابة والتأليف . وألح على رجاله مرارا خلال ذلك في أن يتركوه وحده في الاسر ، لأن السلطات الفرنسية لاتمانع في اطلاق سراحهم ، ولكنهم ابوا الا أن يبقوا معه ليشاركوه في السراء والضراء وكان اطلاق سراحهم جميعا عقب زيارة الامير نابليون للأمير.

في معتقله ببضعة أيام ، ثم توجه الى باريس بدعوة من نابليون حيث قوبل بالتجلة والاكرام من اهلها جميعا ، واقام له نابليون مأدبة كبيرة في قصره ، وأهدى اليه جوادا عربيا أصيلا . ثم اتفق بعد شهر من ذلك أن أعيدت الامبراطورية الفرنسية ، وانتخب نابليون امبراطورا ، فلما زاره الامير عبد القادر مهنئا ، لقي منه كل رعاية وتكريم ، وأهدى اليه سيفا مكتوبا عليه « من الامبراطور نابليون الثالث الى الامير عبد القادر بن محيى الدين »

وفي ٢١ من ديسمبر سنة ١٨٥١ ، برح الامير فرنسا مودعا باحتفال شائق ، قاصدا الى مدينة « بورصة » في الديار العثمانية للاقامة بها ، وتعهدت حكومة فرنسا بتخصيص نفقة سنوية له وحاشيته قدرها أربعة آلاف من الجنيهات . وبقي مدة يتردد بين بورصة وباريس ، ثم استقر رأيه على الإقامة الدائمة بدمشق ، فوصل هو ورجاله الى بيروت في ٢٤ يونية سنة ١٨٥٦ ، ومنها توجه الى دمشق حيث قوبل بترحيب شعبي كبير ، واقام بمبنى فيها يدعى « العمارة » مقسما وقته بين العبادة والمطالعة والتأليف ومجالسة العلماء والفضلاء



ولما قامت الثورة ضد المسيحيين في دمشق سنة ١٨٦٠ ، كان الامير عبد القادر في مقدمة العاملين على اخمادها ، بعد أن فشلت محاولاته العديدة لمنع وقوعها . فبذل قصارى جهده في كف الاذى عن المسيحيين . وما علم باندلاع نيران الثورة في اليوم التاسع من يوليو في تلك السنة حتى جمع كل من كانوا في دمشق من المغاربة وفرقهم في مختلف انحاءها لانقاذ من يستطيعون انقاذه من المسيحيين ، ونقلهم الى داره ليكونوا في حمايته . ولما امتلأت هذه الدار باللاجئين ، أخلى الدور المجاورة لها لاستقبال بقية اللائذين به ، وفي مقدمتهم قناصل الدول الاجنبية . وكان ينفق عليهم بسخاء ، وعضده في ذلك كثيرون من الفضلاء وفي مقدمتهم العالمان الجليلان : محمود حمزة

وأخوه أسعد . وقد اشترك مع الأمير ورجاله في صد الهجوم الذي قام به الأكراد في اليوم الثالث للثورة للقبض على أولئك اللاجئين

وكان والي دمشق قد أعلن حمايته لكل من يلجأ إلى قلعة المدينة من المسيحيين ، فهرع إليها منهم نحو خمسة آلاف ، وما كادوا يستقرون هناك حتى علم الأمير بأن جموعاً من الدروز في طريقهم إلى القلعة للفتك بهم ، فسارع إلى نجدتهم وتمكن من رد تلك الجموع الزاحفة على أعقابها ، بعد أن هدها بإطلاق الرصاص . وظل الأمير طول أيام الثورة السبعة ، متأهباً لانتفاذ المسيحيين ورد العدوان عنهم ، وإيواء اللاجئين منهم وحمايتهم ، وأسعف الجرحى ، وتعزية الأرملة واليتامى . وكان يقضى أكثر الليل ساهراً وبندقيته في يده للدفاع عمن في حماه ، وفي ١٥ يوليو من تلك السنة وصل إلى دمشق وال جديد ، وعزل والي القديم ، وأخذت الحالة في الهدوء . وكان في القلعة وقتئذ من اللاجئين نحو ستة آلاف ، وفي دار الأمير نحو أربعة آلاف . ثم جاء فؤاد باشا وتولى محاكمة المعتدين ، وكانت حماية الأمير المسلم للمسيحيين خلال الثورة ، وتكريمه للاجئين منهم ، موضع تقدير من الجميع ، وأهديت إليه أوسمة عدة من الدول الأوروبية ومن الدولة العلية اعترافاً بفضلِهِ وبما أبداه من شهامة ومروءة وسخاء

وعاد الأمير بعد ذلك إلى عكوفه على العبادة والمطالعة والتدريس ، ثم قام بأداء الحج وزيارة الحرمين الشريفين سنة ١٨٦٣ ، ومر بالاسكندرية في طريق عودته في السنة التالية ، وانضم إلى الجمعية الماسونية بها . ثم رجع إلى دمشق حيث استأنف معيشته البسيطة بها ، معظماً مكرماً من الجميع ، واشتهر بورعه وتقواه بجانب علمه وفضله ، حتى اعتبره الصوفيون من أهل الكشف وأنزلوه منزلة ابن عربي والناقلي حتى توفاه الله سنة ١٨٨٨ بعد أن ألف بعض الكتب في التوحيد والتصوف

أحمد عرابي

١٢٥٧ - ١٣٣٠ هـ الموافق ١٨٤١ - ١٩١١ م

طلبنا من أحمد عرابي بعد عودته من المنفى أن يذكر تاريخ حياته ، فكتب عن نفسه وقال ما ملخصه :

ولدت في ٧ صفر سنة ١٢٥٧ هـ من أبوين شريفين من ذرية العارف بالله السيد صالح البلاسي البطائحي ومقامه الشريف بقرية فاقوس بمديرية الشرقية وهو أول من قدم الى بلاد مصر من بلاد البطائح بالعراق في أواسط القرن السابع للهجرة وهو من ذرية الامام علي الرضا بن الامام موسى الكاظم من سلالة الامام الحسين بن علي بن أبي طالب وابن فاطمة الزهراء البتول بنت محمد صلى الله عليه وآله وسلم . واسم والدي محمد عرابي بن السيد محمد وفي بن السيد محمد غنيم بن السيد ابراهيم بن السيد عبد الله الى آخر السلسلة الشريفة . واسم والدتي فاطمة بنت السيد سليمان بن السيد زيد تجتمع مع والدي في جدي الثالث عشر المسمى ابراهيم مقلد رحمه الله تعالى . ومولدي كان بقرية هرية رزنة بمديرية الشرقية على ميلين من شرقي بندر الزقازيق وهي بلدة قديمة جدا من ضواحي مدينة بوباسطة كرسى مملكة العائلة ٢٢ في زمن شيشاق بن نمرود التي يقال لها الآن «تل بسطة» . وعشيرتي فيها نحو ربع تعدادها وكان والدي رحمه الله تعالى شيخا عليها الى ان توفي في شهر شعبان سنة ١٢٦٤ هـ في زمن الهواء الاصفر عن ثلاث نسوة وأربعة أولاد وست بنات . وكنت ثاني اولاده الذكور وسني ٨ سنوات وترك لنا ٧٤ فدانا ولو شاء



احمد عربی

لاستكثر من الاطيان الزراعية ولكنه كان رحمه الله تعالى يراعى صالح أبناء عمومته حيث أن اطيان القرية كغيرها كانت مكلفة باسماء المشايخ يوزعونها بمعرفتهم على أهل يلادهم بحسب الاحتياج الى عهد عباس باشا الاول وهو اول من كلف الاطيان بأسماء الافراد والزمهم بدفع خراجها وما زاد عنهم يترك للميرى ويسمونه المتروك . وكان والدى عليه سبحانه الرحمة والرضوان عالما فاضلا تقيا نقيا أقام بالجامع الازهر ٢٠ سنة تلقى فيها الفقه والحديث والتفسير وبرع في كثير من العلوم النقلية والعقلية على كثير من المشايخ كشيخ الاسلام القويسنى رحمه الله تعالى وغيره من العلماء الاطهار ، ولما آلت اليه وظيفة الشياخة على عشيرته جدد عمارة المسجد المنسوب الى عشيرته بالقرية المذكورة وفيه أربعة أعمدة من الحجر الصوان القديم ومنبر من الخشب عجيب الصنعة وأنشأ بجوار المسجد مكتبا لتعليم القرآن الشريف وجعل له فقيها صالحا عالما يسمى الشيخ نجم من سلالة السيد العزازى وألزم الاهالى بتعليم اولادهم وكان رحمه الله يشدد عليهم فى ذلك حتى صار نحو نصف تعداد الناحية المذكورة يحسنون القراءة والكتابة وكل منهم يصرف واجباته الدينية ومنهم نحو مائة وخمسين فقيها عالما ومنهم المرحوم الشيخ محمد حسين الهراوى من علماء الجامع الازهر والشيخ العارف بالله ابراهيم المصلى نفع الله به المسلمين . فلما بلغت سنى خمس سنوات أرسلنى والدى الى المكتب المذكور فأقمت فيه ثلاثة اعوام ختمت فيها القرآن الشريف وعمرى اذ ذاك ثمانى سنين وبضعة شهور . فلما توفى والدى كفلنى اخى الاكبر المرحوم السيد محمد عرابى الذى توفى فى ٢٥ شعبان سنة ١٣١٨ رحمه الله تعالى وأخذت عنه مبادئ علم الحساب وتحسين الخط مع ملاحظة بعض اشغال الزراعة ثم بدا لى المجاورة فى الازهر حين بلغت اثنى عشر عاما فكنت اجود القرآن على اقاربى واهل بلدى نهارا واتوجه الى بيت عمتى ليلا وتلقيت شيئا قليلا من الفقه والنحو وبعد سنتين رجعت الى بلدى

وكان الامير سعيد باشا قد تولى الحكومة الخديوية في ١٥ شوال سنة ١٢٧٠ هـ وأمر بدخول اولاد مشايخ البلاد واقاربهم في العسكرية فدخلت من ضمنهم وانتظمت في سلك الاورطة السعيدية المصرية بقناطر قم البحر في شهر ربيع اول عام ١٢٧١ هـ وجعلت فيها وكيل بلوك أمين من اول يوم صار انتظامي في سلك العسكرية بعد امتحاني بحضور ابراهيم بك أمير الالاي وحسن أفندي الالفي حكيم الالاي ثم ترقيت الى رتبة بلوك أمين في شهر رجب من السنة المذكورة بعد اعادة الامتحان مع الطالبين لذلك من غير واسطة احد غير الجدد



وبعد عام نظرت فرأيت بعض الباشجاويشية المصريين ترقى الى رتبة الملازم الثاني وعلمت أن البلوك أمين لا يرتقى الا الى رتبة الصول قول اغاسي وفيها يفنى عمره . فجزعت من ذلك وذهبت الى امير الالاي وطلبت منه ترتيبى في رتبة جاويش في اورطة كانت افرزت لارسالها الى مدينة المنصورة فسألنى الامير الالاي المذكور عن سبب ذلك حيث أن راتب الجاويش اقل . ١ قروش من راتب البلوك أمين وان كانت الرتبتان متساويتين فأفصحت له عما خالج فكرى وانى اذا صرت جاويشا سهل على الحصول على رتبة الباشجاويش ثم الانتقال الى رتبة ضابط . فعجب لذلك خاطر وأمر في الحال بجعلى جاويشا فمكثت في هذه الرتبة سنتين

وفي تلك المدة حبيب الى الاعتزال عن الناس والاشتغال بدراسة قوانين العسكرية مع التدبير في معانيها حتى اتقنت قانون الداخلية وقوانين تعليم النفر والبلوك والاورطة وبعض فصول من تعليم الالاي . وفي اوائل عام ١٢٧٤ هـ أمر راتب باشا بجمع صف ضباط فاجتمعنا حوله في فسحة قصر النيل وبلغنا ارادة سعيد باشا وقال : « ان أفندينا بلغه انكم تقولون فيما بينكم كيف يصير ترقى الصف الضباط الجدد وتأخير من هو أقدم

منهم في الرتب وأنه أمر أن لا يترقى أحد بعد الآن إلا بعد الامتحان علما وعملا فمن فاق أقرانه في الامتحان ترقى إلى الرتبة التي يستحقها ولو لم يلبث في رتبته الأولى غير شهر واحد فمن أراد منكم الامتحان فليتقدم إلى الامام . فعند ذلك تقدمت أمام سعادته وأحجم الآخرون خوفا وهلعاً ظنا منهم أنه يريد معاقبة من يتظاهر بذلك . ولما كرر عليهم الطلب خرج آخر وآخر حتى بلغ عدد الراغبين في الامتحان نحو ٣٠ شخصا فصار امتحانهم بحضوره تحت رئاسة المرحوم اسماعيل باشا الفريق فكنت أول فائز في الامتحان . ثم جمع الضباط والصف ضباط بمعرفة راتب باشا الذي كان وقتئذ اميرالاي وطلبت أمام الجميع ووضع في صدرى نيشان الباشجاويش وأعلنت ترقيتي إلى هذه الرتبة . وبعد عام أي في أول عام ١٢٧٥ صار امتحان الباشجاويشية بحضور سعادة راتب باشا أيضا والمرحوم اسماعيل سليم باشا الفريق فكنت الفائز الأول وترقيت إلى رتبة الملازم ثاني التي كنت أدأب في الحصول عليها منذ البدء . ثم بعد سبعة أشهر صار امتحان الضباط في القصر العالي فكنت أول فائز فيه وكتب اسمي في أول جدول الامتحان . ولما عرض الجدول على سعيد باشا أمر بإعادة امتحاني وانتدب لذلك سليمان باشا الفرنساوي رئيس رجال العسكرية . فطلبت ثانيا إلى الامتحان وكان يوما مشهودا وبعد الامتحان التمس سليمان باشا المشار إليه خروج الخديو إلى ميدان الامام الشافعي رضي الله عنه وهناك يصير امتحاني في الميدان بأورطة من العساكر بحضرته فسأله الخديو عما يقصده بذلك فقال أنه مستحق لرتبة الميرالاي لأن الذين ترقوا إلى هذه الرتبة من المدارس الحربية لم يكونوا في أجوبتهم مثله . فقال الخديو لا يمكن ذلك . فقال له يحسن إليه على الأقل برتبة بكباشي فأبى عليه ذلك وقال يلزم أن يتدرج في كل رتبة ليعرف واجباتها ومنحني رتبة ملازم أول وأمر باعتبار جدول هذا الامتحان وأن يكون الترقى على مقتضاه بدون تجديد امتحان لمدة مجهولة وقبل

مضى شهرين رقيت الى رتبة يوزباشى والتحقت بمعيته . وفي
أوائل سنة ١٢٧٦ ترقيت الى رتبة صاغقول أغانى فى بنى سويف



وفى عام ١٢٧٨ رأى سعيد باشا أن الحكومة سقطت فى دين
يبلغ مقداره ٦ ملايين جنيه مصرى وذلك يساوى إيراد الحكومة
فى ذاك الوقت سنة كاملة تقريبا وكان ذلك المبلغ ثمن أسلحة
ومهمات حربية وملابس وذخائر عسكرية موصى عليها فى معامل
أوربا وردت بعهد وفاته . فأمر برفق جميع الالايات
وأبقى أورطة واحدة كان فيها يوزباشى «مصطفى فهمى»
وعلى فهمى باشا الذى نفى معنسا الى سيلان . وأمر
باستيداع الضباط بالمحافظات والمديريات على حسب رغبتهم
ومن له بلد يتوجه الى بلده ويصرف لهم نصف مرتباتهم فى مدة
استيداعهم ، وأمر أن تضاف مرتباتهم على الاطيان مؤقتا ريثما
يتم تسديد الدين . فخص الفدان الواحد . ٥ فضة أى قرش
واحد وربيع . وقد حصل ذلك فعلا ثم صار بيع الخيول وماكولات
العساكر ومفروشاتها وكذا الفضيات الموجودة فى الخزائن

وفى أوائل عام ١٢٧٩ هـ سافر سعيد باشا الى أوربا لمعالجة نفسه
من داء السرطان وكان بمعيته محمد على باشا الحكيم المصرى
الذى استشهد فى حرب الحبشة عام ١٢٩٣ هـ فصدر أمره
الى قائم مقام خديو اسماعيل باشا «الخديو الاسبق»
بطلب جميع الضباط المصريين من بلادهم وإقامتهم فى قصر النيل
ومداومتهم على التدريس فى القوانين العسكرية يقول فيه :
«ان الضباط الوطنيين المترقين من تحت السلاح قد اشتغلوا
بملازمة نسائهم وتركوا دروسهم ولو تركناهم على هذا الحال
الذى لا يؤول عليهم منه الا بالوبال لفقدوا العافية والنظرو صاروا
عبرة لمن يعتبر . وبما أننا نحن الذين ربيناهم ورقيناهم
وأظهرناهم فلا يصح لنا تركهم فى هذا الحال فقد اقتضت
أرادتنا جمعهم من بلادهم وعدم تمكنهم من نسائهم حتى ولا

بالنظر اليهن بالعين والتشديد عليهم بمداومة التدريس ليلا ونهارا في قصر النيل»

وبنساء على هذه الآراء صار اجتماعنا في قصر النيل .
وفي ربيع الاول انتدبت لفرز الصف ضباط في الوجه القبلى
وتعين معى حكيمًا للفرز المرحوم سالم باشا سالم الحكيم



ولما تولى الخديوية اسماعيل باشا وأمر بإنشاء ٦ الايات
بيادة كنت قائمًا في الاى السادس وكان المرحوم خسرو باشا
أمير الايا على الاى الثانى ثم ترقى الى رتبة لوا باشا وكان
متعصبًا لابناء جنسه تعصبا أعمى وترتب قومندانًا على الاى
٦ و٥ ولما وجدنى وطنيا قحًا عظم عليه وجودى فى الاى ، وسعى
فى رفتى من الاى لاجل اخلاء محلى لترقية أحد أبناء الممالك
مصطفى افندى سليم بن سليم بك المشهور بالحجازى . ولجل
هذه الغاية صار يترقب الفرص للايقاع بى الى أن
صدر أمر الجهادية بامتحان الضباط لاجل استكمال النقصان .
وبعد أن صار الامتحان وتحررت العرائض للمستحقين وختم
عليها من ارباب الامتحان وكنت من ضمن أعضاء مجلس الامتحان
تحت رئاسة الباشا المذكور أرسل لى عريضة أحد الملازمين
اسمه سيد أحمد أفندى وطلب اخذ ختم من
عريضته والختم على عريضة ضابط آخر من اورطية
مصطفى أفندى سليم البكباشى لكونه دائمًا يباشر
خدمة منزل البكباشى المذكور . فشق على هذا الامر وتوجهت
الى مركز اللوا باشا وأخبرته أن يعفينى من الختم على عريضة
من لا يستحق . فقال لا بد من الختم لاجل خاطر البكباشى
المذكور . فقلت أن هذا ظلم لا أفعله وإذا كنت تراعى خاطر
البكباشى فى الظلم فأولى لك أن تراعى خاطر رئيسه فى العدل .
وذكرته بعاقبة هذا الامر اذا تشكى المظلوم الى ديوان الجهادية
وطلب امتحانه مع الآخر كما حصل مثل ذلك

في زمن سعيد باشا وصار عزل جميع أعضاء مجلس الامتحان مع رئيسهم بسبب ظلم نفر مستحق رتبة أونباشي وهي أدنى رتب الصف ضباط . ثم ذكرته بعاقبة الظلم غدا بين يدي العزيز الجبار . فحقق لذلك حنقا شديدا وذهب الى ناظر الجهادية المرحوم اسماعيل باشا سليم واخبره اني لا اطيع له امرا ولا أعبأ بأوامر ديوان الجهادية . وناظر الجهادية عرض للخدو الاسبق بذلك ثم صدر الامر برفتي من الجهادية بالقول اني صلب الرأس شرس الاخلاق «وما بي والله من شراسة ولكن جبلني الله سبحانه على حب العدل والانصاف وكره الظلم والاعتساف» فترتب على ذلك رفتي من الخدمة وحرمانى من المتى فدان التى صدر امر الخديو بمنحها لكل من القائمقامات الجهادية عقب مناورة عسكرية حضرها الخديو . وكنت من ضمن من حضرها وكان اصدر ادارة سنية للمديرية بوجه بحرى بتسليم تلك الاطيان الى المنعم بها عليهم . فصدرت ارادة سنية ثانية بتوقيف التسليم فيما يخصنى وقد حصل . ولكن الله ليس بغافل عما يعمل الظالمون فانتقم بعدله ممن ظلم من غير امهال وذلك انه صدر امر الخديو في الاسبوع الذى رفت فيه بالغاء الاى ٥ و٦ اى اللواء الثالث وارسل خسرو باشا الى السودان واصيب حسين باشا الطوبجى بالقالج ومحمد بك أمين القبر صلى بالقالج أيضا حتى ماتا وأمين بك رئيس قلم تركى بديوان الجهادية انتحر بعد تكيله فى الحديد وارسله الى السودان وهكذا كل من اشترك فى هذه المظلمة أصيب بقارعة عظيمة . وأما مصطفى سليم المذكور فقد رفت أيضا وأقام فى بيته مرفوتا نحو عشر سنين حتى أذله الله . وأما اسماعيل سليم باشا ناظر الجهادية فانه مات فى حرب كريد



ولما تولى الامير توفيق باشا منصب الخديوية وحضر الى الاسكندرية انعم على برتبة امير الاى على الاى الرابع فتوجهت الى رأس التين وقدمت شكرى وامتنانى ثم جعلت من ضمن

ياوران الخديو . ولما تولى عثمان رفقى باشا الشركسى نظارة
الجهادية سولت له نفسه ان يمنع ترقية المصريين من العساكر
العاملين فى الاالايات والاكتفاء بما يتخرج من المدارس الحربية
وصدرت اوامره بذلك . ثم اردفها باحالة عبد العال حلمى بك
اميرالاي السودان على ديوان الجهادية ليكون معاونا وكان عمره
اذ ذاك اربعين سنة ليس الا ورتب بدله خورشيد نعمان بك من
جنسه على الاالاى المذكور وكانت سنه فوق الستين وهو ضعيف
لا يقدر على الحركة العسكرية . وقد رقت احمد بك عبدالغفار
قائمقام السوارى وعين شاكر بك طمارة من جنسه بدله وهو
طاعن فى السن ثم ختم تلك الاوامر وصار قيدها بدفاتر الجهادية .
وكنت لا اعلم بشيء من ذلك أصلا . وقد دعيت الى وليمة وسماع
تلاوة القرآن الشريف بمنزل المرحوم نجم الدين باشا لمناسبة
مودته من اداء فريضة الحج الشريف ولما وصلت الى منزل
الداعى وجدته غاصا بالذوات العسكرية وغيرهم فجلست بجوار
نجيب بك وهو رجل كردى الاصل وبجانبه اسماعيل كامل
باشا الفريق وهو شركسى الاصل ولكنه يتظاهر بحب العدل
والانصاف فأخبر نجيب بك بما حدث وأنه نصح ناظر الجهادية
بالاعراض عن هذا الاجحاف فلم يصغ لقوله ولذا فهو ساخط
ومضطرب ثم أوعز اليه ان يخبرنى بما سمع منه . فأخبرنى
نجيب بك بحقيقة الحال همسا فى اذنى فقلت لاسماعيل باشا
كامل : «أحق هذا ؟» فقال : «نعم وأعطيت الاوامر الى الكتبة
للاجراء على مقتضاها» فقلت له : «ان تلك لقمة كبيرة لايقوى
ناظر الجهادية عثمان رفقى على هضمها»

وبعد تناول طعام المأدبة حضر لى أحد الضباط واخبرنى بأن
كثيرا من الضباط ينتظروننى بمنزلى وفيهم عبد العال بك حامى
وعلى بك فهمى . فأسرعت اليهم وهم فى هياج عظيم وقد بلغهم
صدور اوامر ناظر الجهادية قبل ارسالها اليهم . فلما رأونى
اخبرونى بما سمعته من المرحوم اسماعيل باشا كامل . فقلت
لهم : «قد سمعت من غيركم فماذا تريدون ؟» فقالوا : «انه ليس

ذلك فقط بل انه قد كثر اجتماع الشراكسة - بمنزل خسروباشا
الفريق - صغيرا وكبيرا وهم يتذكرون في تاريخ دولة المماليك في
كل ليلة بحضور عثمان رفقي باشا ويلعنون حزبك ويقولون قد
حان الوقت لرد بضاعتنا وأنهم لا يغلبون من قلة وظنوا أنهم
قادرون على استخلاص مصر وامتلاكها كما فعل أولئك المماليك» .
وقد تحققوا ذلك ممن يوثق بخبره فقلت لهم : «وماذا تريدون
إذا ؟» فقالوا : انما جئناك لآخذ رأيك فيما دهمنا من الخطب
العظيم» . فقلت لهم : «أرى أن تطيبوا نفوسكم وتهادوا روعكم
وتعتمدوا على رؤسائكم وتفوضوا لهم النظر في مصالحكم وهم
ينتخبون لهم رئيسا منهم يثقون به كل الوثوق ويطيعون أمره
ويحفظونه بمعاضدتكم» . فقالوا كلهم : «قد فوضنا اليك هذا
الأمر وليس فينا من هو أحق به وأقدر عليه منك» . فقلت
لهم : «لا . . انظروا غيري وأنا أسمع له وأطيع وأنصح له
جهدي» فقالوا : «لأنبغى غيرك ولا نثق إلا بك» . فقلت : «ارجعوا
لأنفسكم فان هذا أمر عصيب لايسع الحكومة الا قتل من يقوم
به أو يدعو اليه» فقالوا : «نحن نفديك ونفدى الوطن بأرواحنا»
فقلت لهم : «أقسموا لى على ذلك» فأقسموا . وفى الحال كتبت
عريضة الى دولة رئيس النظار رياض باشا مقتضاها : الشكوى
من تعصب عثمان رفقي لجنسه والاجحاف بحقوق الوطنيين ،
والتمست فيها :

أولا : تشكيل مجلس نواب من نبهاء الامة المصرية
تنفيذا للأمر الخديو الصادر أبان توليته

ثانيا : ابلاغ الجيش الى ثمانية عشر الفا تطبيقا لمنطوق الفرمان
السلطاني . .

ثالثا : تعديل القوانين العسكرية بحيث تكون كافلة للمساواة بين
جميع أصناف الموظفين بصرف النظر عن الاجناس والاديان
والمذاهب

رابعا : تعيين ناظر الجهادية من أبناء البلاد على حسب القوانين
العسكرية التى بأيدينا . . ثم تلوت هذه العريضة على مسامع

الجميع فوافقوا كلهم عليها فأمضيتها بامضائي وختمتها بختمى
وختم عليها أيضا على فهمى بك أمير الأي الحرس الخديو
وعبد العال بك أمير الأي السودان

ولما تم ذلك صار ترتيب مايلزم لحفظ الذات الخديوية ،
وحفظ أعضاء العائلة الخديوية وحفظ الوزراء والامراء الوطنيين
إذا حدث أى حادث من الضباط الشراكسة الطامعين فى التغلب
على البلاد مع ترتيب اللازم لحفظ البيوت المالية وبيوت التجار
من الاجانب والوطنيين من مطامع الرعاع ، وعملنا لحفظنا أيضا
من بطش الحكومة اذا أرادت الايقاع بنا

وارفض الاجتماع على ذلك . وما دعانا الى طلب انشاء مجلس
نواب للامة ينظر فى مصالحها الا ما حل بالمرحوم اسماعيل
صديق باشا الحائز لرتبة المشيرية التى من لوازمها حفظ
صاحبها ولو باستعمال السلاح فى عهد الخديو الاسبق اسماعيل
باشا بسبب كلمة حق قالها ، وما حل بحضرة السيد حسن
موسى العقاد بسبب كلمة عدل اراد بها مساواة الاهالى الذين
دفعوا للحكومة ١٧٠٠٠٠٠ ر. من الجنيهات المصرية
باسم المقابلة و ٢٠٠٠٠٠ ر.ه اخرى باسم السهام بالاجانب
أصحاب الديون ، وما حصل لكثير من القتل والخنق فى السجون
بغير حق ولا تحقيق بل بمجرد ظلم واجحاف واستيلاء على الناس
بالقهر والجبروت بما تأباه النفوس الشريفة . .

وفى ضحوة الغد ذهبت الى ديوان الداخلية وقدمت العريضة
المذكورة الى دولة رئيس النظار ، فقال لنا : « سأنظر فى هذا
الامر وأتكلم مع ناظر الجهادية »



وبعد يومين ذهبت الى بيت الرئيس المذكور ومعى الاميران
المذكوران فلما قابلناه وسألناه عما تم فى هذا الامر قال : « ان
هذا الطلب مهلك وهو أشد خطرا من العرض الذى قدمته أحمد
أفندى فنى الذى ارسل بسببه الى السودان » . ان أحمد

افندى فنى كان كاتباً بديوان المالية فطلب المساواة مع خدمة الديوان المذكور لظلم حاق به، فكان جزاؤه النفى الى السودان فأجبتة: «بأننا لم نطلب الاحقا وعدلا وليس فى طلب الحق من خطر، على أننا نعتبرك أبا للمصريين فما هذا التعريض وما هذا التهديد» فقال: «انه ليس فى البلاد من هو أهل لمجلس النواب» فقلت له: «عجبا أنك مصرى وباقى النظار مصريون والخديو أيضا مصرى أتظن أن مصر ولدتكم ثم أعقمت لا بل فيها العلماء والفضلاء والنبهساء والبلغاء، وعلى فرض أنه ليس فيها من يليق كما ظننت أفلا يمكن انشاء مجلس يستمد معارفكم ويكون كمدرسة ابتدائية وبعد خمسة أعوام يتخرج منها رجال يخدمون الوطن بصائب فكرهم ويعضدون الحكومة فى مشروعاتها الوطنية» فانبهر لذلك وقال لنا: «سننظر بدقة فى طلباتكم هذه» فانصرفنا على ذلك



ولما كان غرة ربيع الاول سنة ١٢٩٨ هـ انعقد مجلس تحت رئاسة الخديو بعابدين حضره جميع الباشوات المستخدمين والمتقاعدین وكلهم من الترك والشراكسة الا قليلا من الاوربيين وقرروا فيه لزوم توقيف الثلاثة أمراء الااليات الذين أمضوا على العريضة المتقدمة الذكر ثم اجراء محاكمتهم فى مجلس مخصوص مختلط من رجال الجهادية . فقال رئيس النظار رياض باشا: «انى ارى انه اذا صار توقيف الامير الايات المذكورين يلزم أيضا توقيف ناظر الجهادية لانه فى عدم توقيفه مثلهم خطر عظيم وذلك لما رأيتهم من الجراءة» فلم يوافق الخديو وتعهد ناظر الجهادية بأنه ضامن لاختنا بسهولة

وفى الحال دعى المرحوم أحمد خيرى باشا الشركسى وكان مهردار الحضرة الخديوية وصاحب الراى النافذ فحضر وتلا بالمجلس المذكور أمرا فحواه: «أن هؤلاء الثلاثة أمراء أحمد عرابى، وعلى فهمى، وعبد العال حلمى مفسدون فى الارض وأنه يقتضى توقيفهم من الخدمة ومحاكمتهم على افسادهم

ومجازاتهم بأشد أنواع الجزاء في مجلس عسكري فوق العادة تحت رئاسة ناظر الجهادية ويكون من أعضائه «ستون باشا» رئيس أركان الحرب ، وهو أمريكي ، وناظر المدارس الحربية «أرفى باشا» وهو فرنساوى ، فوقع الخديو عليه وسلمه الى ناظر الجهادية عثمان رفقى باشا ورفض المجلس بعد ذلك . وفي المساء أرسل ناظر الجهادية لكل منا تذكرة ، يدعوننا فيها للحضور الى ديوان الجهادية بقصر النيل في غد يوم ٢ شوال سنة ١٢٩٨ لنشهد الاحتفال بزفاف شقيقة الحضرة الخديوية جميلة هانم . وكان وقت زفافها لم يحن بعد فتيقنا انه يريد خدعتنا والبطش بنا . فالتجأنا الى جانب الحق سبحانه وتعالى واخذنا حذرنا ثم أعددنا ما يلزم لنجاتنا اذا اقتضت الحال ذلك . وحين حلول الوقت المعين ذهبنا الى ديوان الجهادية فوجدناه غاصا بجمع الشراكسة من رتبة الفريق الى رتبة الملازم الثانى وجميع شبانهم بأيديهم الطبنجات ذوات ٦ طلقات مملوءة بالخراطيش وكلهم في فرح ومرح ولا فرح هناك ولا زفاف . فلما حضرنا دعينا للحضور أمام مجلس الهلاك فأجبنا طائعين وتلى الامر الخديوى الأنف ذكره ثم لأمرنا بتسليم سيوفنا فاطعنا هذا الامر وما يعقبه من السجن وهو مخالف للفظ الحكم بالتوقيف . ثم تعين بحضرتنا من يستلم أمرة الايات ، وساقونا الى السجن فى قاعة بقصر النيل . فمررنا بين صفين من الشراكسة المسلحين . وبعد اقفال باب السجن جاء خسرو باشا وكان رجلا صلفا جاهلا فوقف خارج السجن وقال : «ايه زنبيل لى هر فلر» يعنى فلاحين شغالين بالمقاطف ولما أقفل علينا باب الغرفة قال على فهمى بك أحدنا : «والله لانجاة لنا من الموت وأولادنا صفار» وجزع جزعا شديدا ، فأردت تثبيته ، وقلت له متمثلا بقول الامام الشافعى رضى الله عنه :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعا وعند الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت اظنها لا تفرج

فلا وأبيك ما كان الا هنيهة حتى جاءت اورطتان من الاى
الحرس الخديوى بقيادة الشهم الهمام البكباشى محمداً فندى عبيد
وأحدقوا بديوان الجهادية ثم أسرع بعض الضباط والصف
ضباط وفتحوا الابواب وأخرجونا من السجن وقد فر ناظر
الجهادية الغشوم هارباً وكذا رجال المجلس وغيرهم من المجتمعين



ولما فرج الله علينا أسرعت الى العساكر وحذرتهم وأنذرتهم
وقلت لهم : «لاتمدوا أيديكم بسوء الى احد من الجراكسة فانهم
موالينا واخواننا استأثروا بأنفسهم علينا ونريد الانصاف
والمساواة معهم ليس غير» . ثم نظرت فوجدت بجانب اسماعيل
كامل باشا، انفت نفسه أن يفر مع الفارين فأخذته بيده وضممته
الى صدرى أمام العساكر ، وقلت : «هذا جركسى كما تعلمون
ولكنه أخى حرام على دمه وماله وعرضه ، وكذلك غيره من
انجراكسة» فانصرفوا بانتظام على بركة الله ثم سرنا جميعاً الى
قشلاق عابدين وكانت الاورطة الاولى من الحرس الخديوى
حكمدارية البكباشى المرحوم أحمد افندى فرج واقفة أمام سراى
الخديو لحفظها ، كما أمرت بذلك من قبل أمير الاى الحرس على
فهى بك ، ولما تم وجود عساكر الاى المذكور أمر أمير الاى
العساكر بحمل أسلحتهم بحركة «سلام دور» وعزفت الموسيقى
بالسلام الخديوى ونادوا جميعاً «يعيش الخديو» ثلاثاً وذلك كان إشارة
واعلانا للقوم بأننا على اخلاصنا للحضرة الخديوية وكان جميع
الذوات الذين كانوا بديوان الجهادية التجأوا الى حمى
الخديو . ثم أنهم تشاوروا فيما بينهم فقال «ستون باشا»
الامريكى : «هذا عصيان ظاهر والواجب حصر القشلاق المذكور
بالطوبجية والآيات البيادة ويطلب من هذا الاى تسليم الثلاثة
أمراء فان أبوا تضرب عليهم المدافع وتمطر عليهم البنادق نارا
حامية حتى يضطروا الى التسليم» ، فاستحسن الجميع ذلك الراى
الامريكى ولكن ابتدره اسماعيل كامل باشا المذكور آنفاً وقال :

«أنا أعتقد اتفاق جميع اصناف العساكر على رأى واحد فلا يجدى هذا الرأى نفعا» . .

وفي أثناء مفاوضاتهم حضر آلاى السودان من طره وانضم الى آلاى الحرس ثم عزفت الموسيقى بالسلالى الخديوى وهتفوا جميعا : «افتدمز جوق يشا» وأنا العاجز الضعيف كتبت الى وكيل فرنسا السياسى فى مصر الكونت «دورنج» من غير أن يكون لى به ولا بغيره من قناصل الدول الاوربية سابق معرفة ولا مقابلة التمس منه مخابرة باقى قناصل الدول بما حصل بيننا وبين حكومتنا من الخلاف وأطلب منهم التوسط فى اصلاح ذات البين . ثم بتنسا على ذلك وفى صباح الغد حضر لنا أحمد خيرى باشا مهردار الخديو ومعه محمود سامى باشا ناظر الاوقاف من قبل الخديو وقالوا لنا : «ماذا تريدون ؟» فقلنا : «العدل والمساواة» . قالوا : «ثم ماذا ؟» قلنا : «استبدال ناظر الجهادية برجل وطنى . وتشكيل مجلس نواب للامة ينظر فى مصالحها ، وتعديل قوانين العسكرية ، وابلاغ الجيش الى ثمانية عشر الفا ونحن على طاعتنا للحضرة الخديوية» . فذهبوا الى الخديو ثم رجعا وقالوا : «قد عزل عثمان رفقى فمن الذى تريدونه ناظرا للجهادية ؟» «قلنا» الذى يختاره الخديو من الوطنيين . فذهبوا وعادا ثانية وقالوا : «ان الخديو يقول اختاروا انتم من ترضونه حتى لا يحصل منه مثل ما حصل من عثمان رفقى» فقلنا : «قد اخترنا هذا محمود سامى باشا وهو من اولاد الممالك الاول ولكنه صدق معنا ولم يقصد الغدر بنا» ثم صدرت الاوامر الخديوية باعادة كل منا الى آلايه وعزل عثمان رفقى وصار تولية محمود سامى على نظارة الجهادية مع نظارة الاوقاف وأخذ فى سن القوانين العادلة وتعديل القوانين الاصلية وتنقيحها

ثم لما شاعت الاراجيف الكاذبة فى أوربا بخروج العساكر المصرية عن الطاعة حضر من الحكومة العثمانية وفد برئاسة المشير على نظامى باشا وبمعيته أحمد راتب باشا «والى الحجاز

حينئذ» لتحقيق أمر العصيان فردّه الخديو قائلاً : «ان عساكرى على طاعتى وأن ليس ثم عصيان» . وبعد ذلك اجتهدت الحكومة فى غدرنا وأخذنا على غرة أو بحيلة من ضروب الحيل ولما لم يوافقها ناظر الجهادية محمود سامى باشا على نواياها صار عزله بتذكرة من رياض باشا رئيس النظار وتشدد عليه بأن لا يجتمع بنا ولا يقيم بالعاصمة وتعين بدله داود باشا يكن وهو عدل الخديو ولكنه رجل جاهل أحمق مشؤوم فأسرع بإصدار أوامر لا استطاع قبولها فردت اليه ونفرت القلوب منه . فكتبت له فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ بأننا سنحضر بجميع العساكر الموجودين فى القاهرة الى ساحة عابدين لعرض طلباتنا على الخديو فى الساعة الرابعة بعد الظهر من يوم الجمعة الموافق ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ وكلفت به عرض ذلك على الخديو ثم كتبت الى جميع قناصل الدول بذلك وأعلنتهم بحفظ جميع رعاياهم فلا خوف عليهم ولا على أموالهم . وفى الوقت المعين اجتمعت الايات البيادة والسوارى والطوبجية فى رحبة عابدين وكان ما هو مسطر فى بطون التاريخ وهو اسقاط الوزارة وترتيب مجلس النواب وابلاغ الجيش الى القدر المحدد بالفرمان السلطانى . وقد حبانا الخديو باجابة تلك الطلبات العادلة . وقد تعرض لنا المستر كوكسن قنصل انجلترا بالاسكندرية حينذاك وهددنا فلم نعبأ بتهديده لاعتمادى على صدق عزيمنى وطهارة ذمتى . ثم صار استدعاء المرحوم شريف باشا من الاسكندرية وتعيينه رئيسا للوزارة على حسب اختيارنا له وتعين محمود سامى باشا ناظرا للجهادية ثانية وقد توقف شريف باشا فى قبوله ٧ أيام ثم رضى بعد ذلك وصار توظيفى وكيلا للجهادية . وفى تلك النظارة صارت الامتحانات وترقى كثير من الباشاوات وأمرأء الايات والقائمقامية وغيرهم من جميع الرتب واستكملت الايات وأنشئت القوانين العادلة وتعديلت الرواتب والماهيات بنسبة كل رتبة الى ما دونها . وصرفت

الحقوق الموقوفة من زمن مديد وأنشئ مجلس النواب وجعل
رئيسه سلطان باشا واستقامت الامور وحين ذاك عرضت على
رتبة لواء «باشا» فرفضتها لئلا يقال انى انما اشتغل لمصلحتى
فقط وبقيت فى رتبة الميرالاي مدة وكالتى للجهادية
وأما رفقاى عبد العال حلمى وعلى فهمى فقد نالا رتبة
الباشوية الرفيعة

ثم أن مجلس النواب قرر فى لائحته الاساسية أن يكون له
الحق فى نظر ميزانية الحكومة ومعرفة كيفية ايرادها ومصروفها
بشرط عدم الخروج عن دائرة التعهدات الدولية وقانون التصفية
فلم يجبههم المرحوم شريف باشا لذلك لانه سامحه الله اخذ رأى
السير مالت وكيل انجلترا السياسى فى مصر وقنصل فرنسا
أيضا فأشارا عليه بعدم قبول لائحة المجلس فأصر مجلس
النواب على الطلب فى تنفيذ لائحته فلم يوافقهم وقدم استعفاءه
واستعفت هيئة نظارته ثم تشكلت هيئة جديدة تولى رئاستها
محمود سامى باشا وجعل من رجالها حسن باشا الشريعى
وسليمان باشا أباطة وعبد الله باشا فكرى ومحمود باشا فهمى
ومصطفى باشا فهمى . وجعلونى أيضا ناظرا للجهادية لاجل
اطمئنان خاطر العساكر الذين لا يأمنون غيرى فى ذاك الوقت
فقبلت ذلك . ثم انعم على برتبة لواء «باشا» وكنت لا أريد .
ولكن قالوا انه لا يليق أن يكون ناظر الجهادية برتبة اميرالاي وفى
نظارته اللوائيات والفرقاء . فقبلتها للضرورة وشكرت الخديو
وقد انتظمت الامور وهدأت الاحوال وصارت العساكر
فى أمن من الغدر . ولكن أوربا لا يروق فى نظرها انتظام حكومات
الشرق فأقلقوا حكومة الدولة العلية فأرسلت وفدا مندوبا من
طرفها تحت رئاسة المشير المرخص درويش باشا لتحقيق ما يقال
من العصيان فجاء درويش باشا وبحث الامر وكتب
للسلطان بأن العساكر على الطاعة وكذلك كتب الخديو
بالحقيقة فأرسل السلطان الى الخديو اربعمائة

نيشان من أنواع مختلفة للانعام على المستحقين من ضباط العساكر وأنعم على نيشان الدرجة الاولى المجيدى وحضر بوابور مخصوص يحمله سعادة سليم بك ياور السلطان فأبيت استلام النيشان المذكور الا من الخديو . ثم كتبت تلغرافا الى «المابين الهمايونى» برفع شكراتى للسلطان



وفى شهر مايو سنة ١٨٨٢ جاءت الاساطيل الحربية الانجليزية والفرنساوية الى ثغر الاسكندرية وتقدمت للحكومة المصرية لائحة مشتركة «انذارا مشتركا» من دولتى فرنسا وانجلترا مجحفة باستقلال الحكومة المصرية وحقوق الدولة العلية وتقدمت نسخة منها للخديو فرفضها مجلس النظار وقبلها الخديو فاستعفت النظارة من وظائفها . وهاجت الافكار وطاشت العقول الزكية واجتمع النواب والقناصل حولى يطلبون منى حفظ الامن والراحة العمومية فقلت لهم : «لا قدرة لى على ذلك لانى قد استعفيت» . فذهب وفد من مجلس النواب وطلب من الخديو اعادتنى الى نظارة الجهادية حفظا للنظام والراحة فصدر الامر الخديوى باعادتنى الى النظارة المذكورة ثم دعيت لمقابلة الخديو فوجدت عنده جميع قناصل الدول ما عدا وكيل انجلترا السياسى وبحضرته درويش باشا المندوب السلطانى فأخذ على تعهدا بحفظ رعايا الدول الاجنبية وصار اعلان جميع مصالح الحكومة بذلك

وفى ١١ يونيه سنة ١٨٨٢ حدثت حادثة اسكندرية المشؤومة بتدبير ذوى الغايات لاجل تشويه اعمالى فى نظر أوربا وخدش تعهدى بالحفظ والامن العمومى فأسرعت بارسال العساكر الى الاسكندرية حتى ملئت شوارعها بالعساكر وانتهت الفتنة التى ابتدا بها أحد المايطية من التبعية الانجليزية مع أحد حمارة الاسكندرية بايعاز وتعليم ثم صار الشروع فى تحقيقها فى مجلس

مختلط تحت رئاسة «ذوالفقار باشا» محافظ الثغر ومن الغريب العجيب أنه لم يبحث أصلا في الدماء التي سفكت بل كان البحث قاصرا على معرفة مقدار البضائع التي انتهبها الرعاع ليس غير . وبعد ذلك تشكلت الوزارة بمعرفة الخديو تحت رئاسة راغب باشا وكنت من رجالها أيضا ثم انتقل الخديو ودرويش باشا الى الاسكندرية . وفي يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وردت افادة الى قومندان عساكر الاسكندرية من طرف اميرال الاسطول الانجليزى يقول فيها انه جارى تهديد العمارة الانجليزية بترميم القلاع والاستحكامات وانه يطلب تخريب القلاع وهدمها بأيدي العساكر المصرية والا ضرب الاسكندرية وخرب المدينة ودمرها . فعقد لذلك مجلس تحت رئاسة الخديو حضره درويش باشا المندوب العثماني وقدرى بك من رجال الوفد المذكور وجميع النظار وكبار الذوات المتقاعدين وبعد المذاكرة اجمعوا على رفض هذا الطلب والاستعداد للحرب ولكن لا يبدأ بها الا بعد اطلاق ثلاث قنابل من الاسطول الانجليزى حتى لانكون نحن البادئين بالحرب فأعطيت الاوامر بذلك



وعند اشراق يوم ١٢ يوليو بدأت مراكب الانجليز بالضرب على مدينة الاسكندرية وجميع سواحلها وانتشب القتال بين مصر والحكومة الانجليزية . وأما الاسطول الفرنساوى فاعتزل جانبا كالمتفرج . وضربت الطوابى حتى تهدمت استحكاماتها . وفي أثناء الحرب خرج سكان المدينة مهاجرين منها خوفا وهلعا وفي اليوم الثامن انهزمت العساكر فرجعت الى كفر الدوار واتخذت خطا دفاعيا وتراجع المنهزمون الى . وفي ١٤ يوليو ارسلت القطار الخديوى لاستحضار الخديو ومعيته ومن معه من النظار ولما وصلت القطارات الى سراى الرمل لركوب الخديو ورجوعه الى عاصمة بلاده أبى أن يعود وأسرع في الذهاب الى

رأس التين بعائلته ومن بمعيته وانحاز الى العدو والمحارب لبلاده .
واستدام الحرب الى أن قدر الله تعالى شأنه بنهايتها في معركة
التل الكبير كما هو معلوم للجميع وتم الامر بنفيها الى جزيرة
سيلان ..

وغنى عن البيان . والله الذى لا اله الا هو فائق الحب وبارئ
النسمة انى ما خدمت بذلك دولة انجلترا ولا فرنسا ولا كنت
آلة لدولة ما ولا للخديو الاسبق اسماعيل باشا ولا لحليم باشا
ولا أوصيت بمساعدة الدولة العلية . وانما كنت اجتهد
في حفظ استقلال بلادى مع نيل الحرية والعدل
والمساواة لاهل بلادى المساكين ، وانا خادم لهم وناديت سرا
واعلانا بتأييدها ، ولكن المقادير الالهية غالبية فانعكست المرئيات
وتوالت الصعوبات لنفاذ ما هو كائن فى علمه أزلا سبحانه وتعالى
خادم وطنه العزيز

احمد عرابى الحسينى المصرى



محمود سامى البارودى

١٢٥٦ - ١٣٢٢ هـ الموافق ١٨٤٠ - ١٩٠٤ م

لم تخل مصر فى عصر من عصورها القديمة او الحديثة من طبقة فى اهلها من « المولدين » وهم المولودون فيها من آباء غرباء حتى فى عهد الفراعنة . وتوالى فى وادى النيل طبقات شتى من المولدين ممن نزع اليها على اختلاف عصورها وفيهم الفرس واليونان والرومان والعرب والترك والبربر والجركس والارمن والديلم وغيرهم . وكل فئة اذا طال مكثها عدت نفسها وطنية وعدت القادمة بعدها غريبة . وآخر فئة توالدت فى مصر الجركس والاتراك من بقايا المماليك . والغالب فى المولدين من هؤلاء غموض منشئهم لان رباط العائلة كان ضعيفا فيهم والرجل منهم انما ينتسب الى مالكة او رئيسه او يعرف بلقب يلقبونه به . فلم يعد تحقيق تلك الاصول ممكنا فيهم

والبارودى صاحب الترجمة من مولدى الجركس بمصر ويؤخذ من صحيفة كانت نشرتها مجلة المنار انه ينتسب الى نوروز الاتابكى الملكى الاشرفى ولعله أحد رجال الملك الاشرف قايتباى المحمودى المتوفى سنة ٩٠١ هـ ونستغرب ثبوت هذه النسبة للاسباب التى قدمناها من ضياع اسم العائلة عندهم حتى نوروز هذا فانه لا ينتسب الى ابيه وانما يعرف بانتسابه الى الملك الاشرف ومنها اسمه « الملكى الاشرفى » . وقد كان فى هذا العصر جماعة يعرفون بهذا الاسم كل منهم ينتسب الى صاحبه مثل نوروز المنصورى نسبة الى الملك المنصور ونوروز التمر علائى الاشرفى برسباى نسبة الى الملك الاشرف



محمود سامی البارودی

برسبای وقس على ذلك . وقد بلغنا نقلا عن عرف البارودى وعاشره انه كان شديد الحرص على معرفة نسبه وتتبعه الى أصله فبذل مبلغا طائلا من المال فى سبيل البحث عنه فى انحاء القطر ومراجعة النصوص والسؤال من أهل العلم والسن - قالوا انه انفق فى ذلك نحو ثلاثة آلاف جنيه

على اننا لا نرى لصحة هذه النسبة البعيدة أو فسادها دخلا فى تقدير فضل الرجل لان المرء باصغريه وبما يحدث على يديه . ولكن المشهور ان الفقيد هو محمود باشا سامى ابن حسن بك حسنى وكان أبوه هذا من امراء المدفعية فى الجيش المصرى وجده عبد الله بك الجركسى من الكشاف فى أوائل عهد محمد على . والكاشف يشبه مأمور المركز اليوم . وانما أضيف الى اسمهم لفظ البارودى نسبة الى اتيای البارد لانها كانت فى التزام أحد اجداده فى عصر الالتزامات

نشأته الاولى

ولد صاحب الترجمة فى سراية بباب الخلق سنة ١٨٤٠ وتلقى مبادئ العلم فى المدارس الحربية التى انشأها محمد على وخرج من المدرسة سنة ١٨٥٥ فى أوائل ولاية سعيد باشا . وكان من نعومة اظفاره ميالا الى الادب والشعر فرغب فى آداب اللغة العربية فاحرز منها شيئا كثيرا وظهرت ثمار تربيته وامتاز شعره بالسهولة والبلاغة من عهد شبابه على قلة النابغين من الشعراء فى ذلك الحين . فهو من أقوى أركان النهضة الشعرية الاخيرة بمصر

وكان مع ذلك كبير المطامع فى طلب العلى - وذلك نادر فى الشعراء لرقه احساسهم ولطف مزاجهم وانصراف قرائحهم الى الخيال - ولم يبال بركوب البحار فى طلبها فرحل الى الاستانة يلتمس بها منصبا . وكان يتكلم التركية وهى لغة أهل الطبقة العليا فى ذلك الحين . فانتظم فى كتابة السر بنظارة

الخارجية. وكانت اللغة التركية يومئذ في ابان نهضتها فتبحر في أدبها وشعرها حتى نظم فيها القصائد وتعلم الفارسية لمطالعة آداب الفرس وأشعارهم ونفسه تحن الى مصر حنين كل من يقيم فيها ويتعمود ماءها وأقليمها . فاتفق أن الخديو اسماعيل باشا شخص الى الاستانة سنة ١٨٦٣ على اثر ارتقائه الاريكة الخديوية فدخل صاحب الترجمة في بطانته ورجع معه الى مصر وعاد الى الخدمة العسكرية فترقى في سنة واحدة الى رتبة بكباشي وانتدب مع جماعة من الضباط لمشاهدة بعض الحركات العسكرية في فرنسا وسافر منها الى لندره وعاد الى مصر فرقاه الخديو سنة ١٨٦٥ الى رتبة قائم مقام في آلاى الفرسان ثم الى رتبة امير الالى

سيرته السياسية

ولو أردنا تفصيل ما تقلب فيه من المناصب لطال بنا الكلام فنقول بالاجمال انه ذهب في حملة الجيش المصرى الذى ارسلته مصر لمساعدة الدولة العلية في اخماد ثورة كريد سنة ١٨٦٨ ولما رجع الحق بالحرس الخديوى (الياوران) فأحببه اسماعيل وزاده من قربه فجعله كاتب سره الخاص . ثم عاد الى العسكرية بعد سنتين وكان الخديو ينتدبه في كثير من الامور الهامة الى الاستانة وغيرها . حتى اذ نشبت الحرب بين الدولة العلية والروس سنة ١٨٧٧ انفذت مصر نجدة من جيشها كان المترجم في جملتها مع فرقته وعند رجوعه رقى الى رتبة لواء . ولم تمنعه رتبة العسكرية من الخدمة في المناصب الادارية فعين سنة ١٨٧٩ مديرا للشرقية . واضطربت مصر يومئذ وهى السنة التى اقبل فيها اسماعيل فسبق أقالته اثاره الخواطر بالمنافسة التى جاشت في نفوس الامراء على الولاية وبما كان من تدخل الدول الاجنبية بشؤون مصر الادارية فانتدبت الحكومة صاحب الترجمة لرئاسة الضبطية فحفظ الامن وهذا الخواطر . فلما اقبل

اسماعيل وتولى الحكم توفيق باشا الخديو السابق اعاده الى المناصب الادارية فجعله وزيرا وقلده نظارة الاوقاف فأصلح شؤونها ونظمها - والمرء يتقلب في مناصب شتى ولا بد من شيء يعلق به ذهنه مما ترتاح اليه نفسه أو يدفعه الى ميله ، ولهذا الميل دخل كبير في شؤون الامم لان الملك او الامير اذا كان ميالا مثلا للعلم نشط أهله ورفع شأنه واذا كان من اهل اللهو رغب الناس في الملاهى . ويقال نحو ذلك في سائر المناصب الادارية . وقد تقدم ان المترجم كان مغرما من صفه بالعلم والادب فاهتم في أمر الكتب المبعثرة في المساجد وجمعها في مكان واحد فلما اخذ المرحوم على باشا مبارك في انشاء دار الكتب الملكية كانت هذه الكتب من جملة ما نقلوه اليها

فلما تحركت الخواطر وهبت النفوس في الثورة العرابية كان لصاحب الترجمة شأن كبير في ذلك والناس بين متهم ومبريء . وخلاصة رايها في المترجم انه كان من جملة المنشيطين للحزب الوطنى في مطالبهم سرا لانه كان ناظرا للاوقاف كما تقدم فكان يحضر مجلس النظار وهواه مع العرابيين وهو يعتقد ان مطالبهم عادلة - ورجال المطامع يغتنمون هذه الفرص لنيل المناصب الكبرى وكثيرا ما كانت أمثال هذه الحركات سببا في انتقال الملك من دولة الى دولة اذا وافقت الاحوال وتوفرت الرجال . وفي تاريخ مصر أمثلة كثيرة من هذا النوع . اما المترجم فقد كان طامعا في منصب الوزارة وما وراءه فكان ينقل الى عرابى ورفاقه من قرارات ذلك المجلس وابحاثه ما يتعلق بهم ليحذروه أو يتهياوا للقائه مما يطول شرحه . وقد نجح في ما كان يؤمله فتولى نظارة الجهادية ثم رئاسة النظار . فكان له النفوذ الاعظم في تلك الثورة واما عرابى فقد تصدر لها وتظاهر بها عن صدق نية وبساطة - وهى في الحقيقة نهضة سياسية عمرانية لو احسن اصحابها استخدامها - لو تصرفوا فيها بالحكمة والتؤدة لعادت بالنفع على الحكمة^{بها} والاهالى^{مليا} في

فلما دخل الانجليز مصر وقبضوا على العربيين وحاكموهم
كان صاحب الترجمة من جملة الذين حكم عليهم بالنفى الى
سيلان مع زعيم الثورة وما زال هناك حتى ارجع في جملة
الذين ارجعوا واختصه الخديو بارجاع حقوقه ورتبته .
وظل بين اهله وذويه حتى توفاه الله في ١٢ ديسمبر سنة ١٩٠٤
وقد كف بصره



هذه خلاصة سيرته السياسية وأما سيرته الادبية فمجملا
انه كان محبا للادب مطبوعا على الشعر وشعره من الطبقة
الاولى بين شعراء العصر بمصر . وكلهم يعترفون له بالتقدم
والفضل وله منظومات رنانة سارت بذكرها الركبان ومنها ما
جرى مجرى الامثال وفي جملتها قصيدة في السيرة النبوية
تبلغ نحو ستمائة بيت على روى البردة سماه « كشف الغمة
في مدح سيد الامة » ومطلعها :

يا رائد البرق يعم دارة العلم واحد الغمام الى حى بدى سلم
واليك امثلة من منظوماته - قال في وصف الليل من قصيدة
بعث بها من جزيرة سيلان الى الامير شكيب أرسلان :

وترى الثريا في السماء كأنها	حلقات قرط بالجمان مرصع
بيضاء ناصعة كبيض نعامة	في جوف ادحى بأرض بلقع
وكانها اكر توقد نورها	بالكهرباء في سماوة مصنع
والليل مرهوب الحمية قائم	في مسحة كالراهب المتلفع
متوشح بالنيرات كباسل	من نسل حام باللجين مدرع
حسب النجوم تخلفت عن امره	فوحى لهن من الهلال باصبع

وقال من قصيدة يعزى بها الاستاذ خليل مطران عن فقد
عمه حبيب باشا مطران :

اعزى لك لا انى اظنك عاجزا لخطب ولكنى عمدت لواجب
وكيف اعزى من فرى الدهر خيرة وادرك ما في طيه من عجائب

فيا صاحبي مهلا فلست بواجد سوى حاضري بكى فجميعه غائب
وصبرا فان الصبر اكرم صاحب لمن بان عن مثواه اكرم صاحب
ونظرا لما فطر عليه من الميل الى الجندية فقد اجاد كثيرا في
نظم الفخریات ومنها ابيات يتمثل بها الناس كقوله من قصيدة
عارض بها قصيدة ابي فراس :

من النفر الغر الذين سيوفهم لها في حواشي كل داجية فجر
اذا استل منهم سيد غرب سيفه تفرعت الافلاك والتفت الدهر
وقوله من قصيدة اخرى :

وفيت بما ظن الكرام فراسة بامري ومثلي بالوفاء جدير
واصبحت محسود الجلال كأنني على كل نفس في الزمان أمير
اذا صلت كف الدهر من غلوائه وان قلت غصت بالقلوب صدور
ومن هذا القبيل قوله من قصيدة يصف بها الحرب بجزيرة
كريت :

والخيل واقفة على ارسائها لطراد يوم كريهة ورهان
وضعوا السلاح الى الصباح واقبلوا يتكلمون بالسن النيران
حتى اذا ما الصبح اسفر وارتمت عيناي بين ربي وبين مجان
فاذا الجبال اسنه واذا الوها د اعنة والماء احمر قان
وله من الشعر الوصفى قصيدة يصف بها عصفورا على
غصن وقد ابدع فيه قال :

ونبأة اطلقت عيني من سنة كانت حباله طيف زارني سحرا
فقلت اسأل عيني رجع ما سمعت اذني فقالت لعل ابلغ الخبرا
ثم اشرابت فألفت طائرا حذرا على قضيب يدير السمع والبصرا
مستوفزا يتنزي فوق ايكنه تنزي القلب طال العهد فاذكرا
لا يستقر له ساق على قدم فكلما هدأت انفاسه نفرا
يهفو به الغصن أحيانا ويرفعه دحو الصوالج في الديمومة الاكرا
ما باله وهو في امن وعافية لا يبعث الطرف الا خائفا حذرا
اذا علا بات في خضراء ناعمة وان هوى ورد الغدران او نفرا
يا طير نفرت عني طيف غانية قد كان اهدي لي السراء حين سري

حوراء كالريم الحاظا اذا نظرت وصورة البدر اشراقا اذا سفرا
زالت خيالها عنى واعقبها شوق احال على الهم والسهرا
فهل الى سنة ان اعوزت صلة عود ننال به من طيفها الوطرا
وكان اذا عارض المخضرمين او الجاهليين جاء نظمه مثل
نظمهم متانة وعلوا . فمن قصيدة عارض بها دالية النابغة
الذبياني قوله في وصف الفرس :

ولقد هبطت الغيث يلمع نوره في كل وضاح الاسرة اغيد
تجرى به الارام بين مناهل طابت مشاربها وظل ابرد
بمضمر ارن كان سراته بعد الحميم سبيكة من عسجد
خلصت له اليمنى وعم ثلاثة منه البياض الى وظيف اجرد
فكأنما انتزع الاصيل رداءه سلبا وخاض من الضحى في مورد
زجل يردد في اللغات صهيله دفعا كزمزمة الحبى المرعد
متلفتا عن جانبيه يهزه مرج الصبا كالشارب المتفرد
فاذا ثنيت له العنان رأيت يطوى المعاهد فدفا في فدفا
يكفيك منه اذا استحسن نبأه شدا كأهوب الاباء الموقد
صلب السنايك لا يمر بجلمد في الشدا الا رض فيه بجلمد
نعم العتاد اذا الشفاء تقلصت يوم الكريهة في العجاج الاربد
وقد ختم شعره بابيات فخرية وهى :

انا مصدر الكلم البوادي بين الحواضر والفوادي
انا فارس انا شاعر في كل ملحمة وناد
فاذا ركبت فاني زيد الفوارس في الجلاذ
واذا نطقت فاني قس بن ساعدة الايادي
هكذا وذلك ديدنى في كل معضلة نآد

ونظرا لمنزلته الرفيعة في نفوس الشعراء فقد اجتمعوا على
ضريحه في الامام الشافعى يوم الاربعين من وفاته ورثوه
وابنوه مما لم يسبق له مثيل الا ما يقال عن توافد الشعراء
لرثاء المعرى على قبره

مصطفى كامل

١٢٩١ - ١٣٢٦ هـ - الموافق ١٨٧٤ - ١٩٠٨ م

شاهد المصريون في ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ ما لم يشاهدوا مثله من قبل . شاهدوا حزنا على مصطفى باشا صاحب اللواء عم القطر المصري من اقصاه الى اقصاه وانتشر في سائر العالم الاسلامي وسمع دويه في اوربا والشرق الاقصى مما لم يسمع بمثله في وادي النيل . توفي صاحب اللواء في اصيل ذلك اليوم ودفن في اصيل اليوم التالي فمشى في جنازته عشرات الالوف واشترك في المصاب اهل القطر على اختلاف طبقاتهم واعمارهم . فرثاه الشعراء وابنه الخطباء وبكته الصحف وقضت اياما في نشر ما يرد عليها من رسائل التعزية نثرا ونظما . واقامت له المآتم في انحاء القطر فلم يبق جمعية خيرية او ادبية او ناد علمي او مدرسة وطنية للذكور او الاناث في القاهرة والاسكندرية او في الارياف الا عقدت جلسة لتأبين ذلك الفقيد حتى الجمعية الماسونية فقد احتفل بعض محافلها بتأبينه . وبعضهم اقام حفلات تأبين في الازبكية غير مابعثوا به من تليفرافات التعزية الى ادارة اللواء من الافراد والجماعات كالجمعيات والشيخات والمدارس وتبرع كثيرون عن نفسه للجمعيات الخيرية ونحوها . وغير ما جاء من رسائل التعزية من انجلترا وفرنسا وغيرهما ومن اطراف الهند . ونشرت التليفرافات العمومية والصحف الافرنجية نعيه وتكلمت عنه . وتألقت في القاهرة لجنة لاقامة تمثال يحيا به ذكره والناس يبدلون المال في هذا السبيل . وعينوا يوم ٢٠ مارس التالي



مصطفی کامل

للاحتفال بتأبينه بجانب ضريحة بقرافة الامام - فمن كان هذا وقع مصابه في النفوس جدير بان ننظر في ترجمة حاله وندرس أخلاقه وأعماله ونبين منزلته من التاريخ

ترجمة حياته

ولد في القاهرة من أبوين مصريين في ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٤ وكان والده على أفندى محمد مهندسا من جهة الصليبة اشتهر بين معارفه وجيرانه بطيب العنصر وحسن الخلق ووالدته من جهة المحجر بالقاهرة . ولما بلغ السادسة من عمره اتاه والده بمدرس لقنه القراءة والكتابة ثم أدخله مدرسة عباس باشا الاول . وقبل اتمام دروسه الابتدائية توفي والده فانتقل الى مدرسة القرية وعمره ١٢ سنة فاتم دروسه الابتدائية فيها وظهر ذكاؤه بامتياز على سائر الرفاق فنال جائزة الامتحان الاولى بين يدي الخديو سنة ١٨٨٧ ثم انتقل الى المدرسة التجهيزية قضى فيها أربع سنين نال في نهايتها شهادة البكالوريا وكان من النابغين واشتهر باستقلال الفكر وصراحة القول من ذلك الحين . وانتبه المرحوم على باشا مبارك ناظر المعارف يومئذ لفصاحته وقوة عارضته فقال له مرة : « انك امرؤ القيس وستصير عظيما » وأخبرنا أحد رفاقه في تلك المدرسة أن المرحوم على باشا مبارك اختصه بجنيته يتناوله كل شهر مدة اقامته في المدرسة ودون اسمه في كشف ماهيات المعلمين واضطر مصطفى لنقش خاتم يختم به الكشف على اصطلاحهم وهو أول عهده بالاختتام

وكان في اثناء اقامته بالمدرسة التجهيزية موضع اعجاب الاساتذة والتلامذة جميعا لما امتاز به من حسن الالقاء وفصاحة اللسان . ولم يكن ناظر المعارف أقل منهم اعجابا به فكان ينشطه ويدعوه الى منزله ويناقشه في المسائل العلمية أو الاجتماعية ويقدمه الى جلسائه من العلماء والوزراء والكل

يعجبون به ويتوقعون له مستقبلا مجيدا . فلما أتم دروسه التجهيزية سنة ١٨٨٩ دخل مدرسة الحقوق الخديوية على أن يعد نفسه لصناعة المحاماة لأنها أحوج المهن الى الخطابة . ورأى في وقته متسعا فالتحق بمدرسة الحقوق الفرنسية أيضا فكان يتلقى العلم بالمدرستين حتى نال الكفاية منه فذهب الى جامعة طولوز بفرنسا حيث أدى الامتحان ونال الشهادة وهو في التاسعة عشرة من عمره

وتنبه خاطره وهو يدرس الحقوق الى المسائل السياسية ومضارها على مصر والاحتلال، وهو وطنى حريص على وطنيته، مستقل الفكر، شديد الثقة بنفسه . وقد تشرب من أساتذته الفرنسيين الاستهانة بانجلترا والوثوق بفرنسا فأصبح همه انقاذ مصر من الاحتلال . وكان عضوا عاملا في عدة جمعيات أدبية يخطب فيها ويباحث وأكثر بحثه في مصر والاحتلال والجللاء . وكان يتردد على الجرائد الوطنية ليكتب في هذه المواضيع . ولقى اصغاء وتنشيطا فألف رواية فتح الاندلس التمثيلية ، وكتابا في حياة الامم والرق عند الرومان، وألف بعد ذلك كتاب المسألة الشرقية وغيره وكلها ترمى الى تحبيب الاستقلال الى المصريين واحياء الشعور الوطنى فيهم . فالتف حوله جماعة من المريدين والمعجبين وأكثرهم من رفاقه في المدرسة ومن يرى رأيهم من تلامذة المدارس العالية فأنشأ لهم مجلة شهرية سماها « المدرسة » يبت فيها آراءه وأفكاره واتفق في أثناء ذلك رجوع المرحوم عبد الله نديم خطيب العراقيين الى مصر سنة ١٨٩٢ وسمع بمصطفى كامل فقربه منه واقتبس صاحب الترجمة بعض أساليبه واطلع على دخائل الحوادث الماضية وتبين أسباب الفشل فأصبح قادرا على تجنبها وزاد رغبة في انقاذ مصر من سلطة الاجانب ولا يكون ذلك الا بالالتفاف حول أمير البلاد فاستنبط فكرة الاحتفال بعيد الجلوس الخديوى فحرض رفاقه التلامذة على ذلك

فاحتفلوا به في الازبكية في ٨ يناير سنة ١٨٩٣ فقربه الخديو
ورضى عنه . وفي ذلك الاحتفال صرح مصطفى
كامل للمرة الاولى بانتقاد حالة الحكومة ودعا المصريين
الى مطالبة الانجليز بالجلء عن بلادهم قياما بوعودهم . وكان
في جملة الحاضرين ناظر مدرسة الحقوق فاستدعى مصطفى اليه
في القد وعاتبه على تصريحه فأجابه انه مصرى وله الحق ان
يبحث في شؤون مصر وشدد لهجته فرفع الناظر امره الى نظارة
المعارف فأصدرت أمرا بمنع التلامذة من الاشتراك في مثل
ذلك ومن مكاتبة الصحف . فاعتبر مصطفى هذا الامر موجها
اليه فازداد تمسكا برأيه وتضاعفت همته على اخراجه الى
حيز العمل



وجاء مصر في ذلك الحين المسيو «دلونكل» وهو فرنساوى كثير
التظاهر بالغيرة على المصريين . وكان في مصر يومئذ حزب
وطنى تألف بطبيعة الحال من اوائل عهد الاحتلال ولم يكن حزبا
منظما له رئيس ونائب وامين وكاتب مثل احزاب هذه الايام
ولكنه ضم نخبة النبهاء والوجهاء الذين يكرهون الاحتلال
وينتقدون اعمال الانجليز اما رغبة في استقلال مصر او تقمة
لذهاب نفوذهم . ولهذا الحزب فضل على اكثر الصحف الوطنية
التي نشأت في اوائل الاحتلال لانهم كانوا يساعدونها ماديا
وادبيا تحت طى الخفاء للاستعانة بها على جرائد الاحتلال .
وكان مصطفى كامل طبعاً من جملة ذلك الحزب وكان «دلونكل»
يحضر مجتمعات الوطنيين ويستحثهم على الثبات . فالتقى
هناك بصاحب الترجمة وأعجب بذكائه وفصاحته فرغبه في
السفر الى فرنسا للتبحر في الحقوق فسافر الى باريس آخر
سنة ١٨٩٣ وأعجبه حرة القوم وموافقهم اياه في انتقاد
الانجليز فعرف كثيرين من رجال السياسة والصحافة فيها .
وفي ٨ يناير سنة ١٨٩٤ احتفل بعيد الجلوس الخديوى هناك

احتفالا بهذه أكثر المقيمين في باريس من المصريين وهم من التلامذة المرسلين لتلقى العلم على نفقة الحكومة المصرية . فألقى فيهم مصطفى كامل خطابا استحشهم فيه على الثبات في طلب الجلاء فوافقوه وتواطؤوا على استنجد فرنسا في ذلك الطلب على أن تكون حجتهم وعد انجلترا الذي صرحت به عام الاحتلال . وبلغ ذلك نظارة المعارف المصرية فأخرجت المشتركين في ذلك العمل من عداد الارسالية

وعاد مصطفى في أوائل السنة التالية الى مصر واحترف المحاماة شهرا فرآها أضيق من أن تسع مطامعه وفي صدره غرض أصبح جزءا من وجدانه ولم يكتف بما كان ينشره في الجرائد فحول على القاء الخطب السياسية في المنتديات العمومية فألقى خطبته الاولى في الاسكندرية ونشرتها الجرائد فرأى فيها الناس من شدة اللهجة على الاحتلال وطلب الجلاء ما لم يعهدوه من قبل فأعجبوا بالشاب وشاركوه في احساسه وفيهم من يرى ذلك الطلب بعيد المنال ولكن الانسان يلتذ بالانتقاد على غالبه . فأطروه ونشطوه فازداد رغبة في الخطابة والصحافة والذات له الشهرة ووطن النفس على التفانى في طلب الجلاء وجعل ذلك وجهته وكعبة آماله ومدار أعماله وهو يعلم عجزه عن تلك الامنية بنفسه وأهله فرأى أن يستعين بفرنسا وقد جراه على ذلك ما آنسه في رحلته الاولى من الحفاوة وما سمعه من التامين والترغيب على عادة الفرنسيين من الانقياد الى الوجدان . فكف عن صناعته وانقطع للمطالبة بالجلاء فشخص عام ١٨٩٥ الى باريس ومعه رسم كبير يمثل مصر والاحتلال الانجليزى بشكل يرمز عن توسل المصريين الى فرنسا أن تساعدكم كما ساعدت الامريكان واليونان والبلجيكيين والطلبان في نيل حريتهم

رفع هذا الرسم الى مجلس النواب الفرنسى في ٤ يونيو من تلك السنة . ومعه عريضة قدمها باسمه ينوب فيها عن مصر

في استنجد ذلك المجلس على الانجليز . وكان لهذا العمل دوى في فرنسا فضلا عن مصر وتحدث الناس يومئذ بجرأة هذا الشاب وعلو همته واقدامه وهو الى ذلك الحين لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره . فلم يأت هذا المسعى بالنتيجة المطلوبة ولكن الفرنسيين رحبوا بالخطيب المصري وتقاطر اليه كتاب الصحف يقابلونه وينشرون آراءه في جرائدهم . وتسابق القوم يدعونه لالقاء الخطب في انديتهم وكلها ترمى الى الغرض عينه . واول خطبة سياسية القاها على الافرنج في طولوز صدرها بتاريخ الاحتلال وعهوده وفصل احوال النظارات المصرية وسيطرة الانجليز فيها وصور استئثارهم بالوظائف والنفوذ واحتقارهم الاهالى واخذ يبرهن أن وجود الانجليز بمصر يخالف كل المعاهدات وان اخراجهم منها يوافق مصالح دول أوربا كافة . ثم القى خطبا أخرى وراسل الجرائد وكاتب الوزراء وكلها ترجع الى انتقاد الاحتلال وطلب الجلاء . أشهرها خطاب بعث به الى المستر «غلاستون» من باريس يسأله رايه في مسألة مصر والاحتلال فأجابه «غلاستون» جوابا جاء في جملة قوله : « اننا يجب أن نترك مصر ، بعد أن نتم فيها بكل شرف ، وفي فائدة مصر نفسها ، العمل الذي من اجله دخلناها » و « ان زمن الجلاء على ما أعلم قد وافى منذ سنين »

فلا عجب — بعد اعتراف اعظم رجال انجلترا بموافاة زمن الجلاء — اذا راينا مصطفى كامل يزداد ثباتا في دعوته . فرجع الى مصر في أوائل سنة ١٨٩٥ وقضى بضع سنوات وهو يخطب ويكتب ويكتب ويناضل . وانشأ جريدة «اللواء» اليومية لنشر آرائه السياسية سنة ١٨٩٩ وصوتها في الدفاع عن مصر والمصريين من أعلى الاصوات

ولما تم الاتفاق بين انجلترا وفرنسا بشأن مصر والمغرب الاقصى ولم ينل مصطفى من فرنسا غير الوعود وجه احتجاجه الى المراجع الاصلية اما الى رجال السياسة بانجلترا رأسا أو

الى جرائدهم ، وسافر الى بلاد الانجليز لهذه الغاية . ثم رأى ذلك لايفى بمراده ولايحيط بمدى صوته فأنشأ « اللواتين » الانجليزى والفرنسى لينشر فيهما أقواله عن مطالب مصر حتى يصل النداء الى انجلترا وسائر أوربا وألف لهما شركة مساهمة هى اول شركة مساهمة تألفت لانشاء الجرائد فى هذه البلاد وذهب بنفسه الى انجلترا واستقدم المحررين

فطار صيته فى الآفاق وأصبح اسمه مرادفا لاحتجاج مصر على انجلترا وهو فى خلال ذلك لا يضيع فرصة لا يحتج بها . ومن أشهر مواضيع احتجاجه مسألة دنشواى فقد كان فى مقدمة المنادين بظلم الحكم على أهلها واستكتب الاهلين عرائض لالتماس العفو وقع عليها ١٢٥٠٠ من المصريين ورفعها الى الخديو . وكان فى أثناء ذلك يخدم مصلحة الدولة العلية من طرق كثيرة فأنعم عليه السلطان بالرتب والالقب حتى بلغ الرتبة الاولى من الصنف الثانى والنیشان المجيدى الثانى . وتعلقت به قلوب المصريين وتعشقه بما لم يسبق له مثيل . فلما تشكل الحزب الوطنى انتخبوه رئيسا له طول حياته ولكنه رحمه الله كان قصير الحياة فتوفى فى الحادى عشر من فبراير سنة ١٩٠٨ وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره . فانتخبوا مكانه رفيقه فى جهاده المرحوم محمد بك فريد رئيسا للحزب ومديرا للألوية الثلاثة

صفاته وأعماله

كان رحمه الله متوسط القامة قمحى اللون سريع الحركة جريئا مقداما فصيح اللهجة قوى العارضة شديد الثقة بنفسه واسع الآمال طموحا للعلی مستقل الفكر صريح القول . وكان عصبى المزاج ، والعصبى يغلب فيه الذكاء وحدة الذهن وسرعة الخاطر وكانت هذه الطبائع ظاهرة فى الفقيد ظهورا واضحا اذ كثيرا ما كنا نراه فى أثناء نضاله يكاد يغلب على رأيه لما يظهر لنا من حجة خصمه فما هو الا أن يصدر « اللواء » فى اليوم التالى

فتراه قد تذرع بدفاع أيده بشواهد تاريخية انتبه لها. وكانت
تساعده على ذلك قوة الحافظة

وكان فيه من طبائع العصبيين سرعة الانفعال . وسريعو
الانفعال يغلب فيهم القلب في الرأي ولم يكن كذلك ، ولكنه كان
شديد الوطأة على مخالفيه ولو كانوا من أساتذته أو أقرب الناس
اليه . وسرعة الانفعال مع هذه الشدة قد يبعثان على الفشل
في الاعمال العظمى لأنها تفتقر الى التساهل والكظم والصبر على
المكاره فالفقيد سد هذا النقص بجراته وعلو همته وثقته
بنفسه . فكان اذا نهض لأمر اقتحمه اقتحام الاسد على فريسته
وجاهد في سبيله بيده ولسانه وجنانه لا يعجزه السفر ولا يبالى
بالتعب فقضى زهرة شبابه ينتقل من قارة الى قارة ومن عاصمة
الى عاصمة لا يتحول عن منبر عربى حتى يعلو منبرا افرنجيا .
اذا كتب رايت الحماسة تتجلى بين سطوره واذا خطب انقض
كالصاعقة أو انهال كالسيل . واذا توهم في احد وقوفا في طريقه
ناهضه وبارزه لا يبالى بمنصبه أو مقامه

وكان رحمه الله عفيف النفس نزيه الخلق صادق اللهجة
على الهمة لا يلد له من احوال الحياة غير التفكير في الغاية التي
وقف قواه عليها وهي خدمة بلاده بأشرف السبل وأنفعها .
وكان يعتقد أن الاستقلال أول خطوة يجب السير بها ويعنى
بالاستقلال خروج الانجليز من مصر بمساعدة دول أوربا
ورجوعها الى ما كانت عليه قبله . واستجمع قواه في هذا
السبيل فسافر وكتب وخطب وجادل وناقش لهذا الغرض .
وكان يرى مصلحة مصر مرتبطة بمصلحة الاسلام على العموم
فكان شديد المدافعة عنه كثير السعى في نصرته . ومن أقصى
أمانيه أن يكون نصير المسلمين في اقطار الارض . وقد
اطلعتنا بعض الاصدقاء على كتاب من بعض رجال ابن الرشيد
يؤخذ منه أن الفقيد سعى منذ بضع سنوات في السفر الى
نجد لملاقاة ذلك الزعيم هناك . وقرأنا في تأبين بعض مريديه

انه كان ينوى استئذان جلالة السلطان في أن يكون خطيب المسلمين في المدينة يوم وصول السكة الحديدية اليها وانه كان يهنيء اسباب الرحيل الى اليابان لحضور معرضها ونقل نتائج الافكار الكبيرة لربط العلاقات مع الشعب الياباني على أن يمر في اثناء طوافه ببلاد الهند ليري أحوال النهضة الاسلامية هناك . كل ذلك يدل على كبر نفس هذا الرجل وسعة مطامعه . . . وليس ادل على اخلاصه التام لمبادئه ، من الادلة التالية :

١ - ثباته في المبدأ الذي قام في نفسه منذ كان تلميذا لا يسمع صوته الا رفاقه حتى صار خطيب المحافل ومتكلم القوم وزعيم الحزب الوطني وصاحب الاولوية الثلاثة . له دعوة واحدة كانت تتجلى في مطالبه اذا كتب او خطب او ناقش او باحث بين الاصدقاء أو الاعداء بالعربية او الافرنجية على سواء

٢ - انقطاعه لهذه الدعوة وتفانيه في سبيلها حتى شغلته عن سائر مطالب الحياة وملاذ الشباب فلم يتزوج ولاجلس لشرب أو لهو ولا التفت الى جمال أو طرب . لايلذ له غير التحدث بالوطن أو الاستقلال أو الجلاء

٣ - اجماع الذين عاشروه من رفقاءه وأصدقائه على حبه واعتقاد الاخلاص فيه فضلا عن الآخرين مما لايتسأتى لغير المخلصين . لأن الانسان اذا سعى في مشروع عمومي طمعا بمال أو جاه لاتلبث حقيقة حاله أن تنكشف لعشرائه الاقربين أو شركائه في عمله فينفضوا من حوله كما أصاب كثيرين من زعماء الاحزاب في العالم القديم والحديث . ففسدت نيات أصحابهم وذهبت مساعيهم ادراج الرياح . وقد يبقى مع الزعيم المنافق أناس يداجونه ويداجيهم التماسا للكسب . ولكن أصحاب مصطفى كامل ثبتوا في ولائه حيا وميتا وهم يستهلكون في سبيل نصرته وفيهم جماعة من نخبة العقلاء والفضلاء ومعظمهم اكبر منه سنا وأوفر مالا وأعرض جاها وبعضهم أغزر منه علما

وقد نصره بعقولهم وأموالهم وقلوبهم ولم يستنكفوا من
تصدره في مجالسهم ولا داخلهم الحسد من رئاسته عليهم

هل هو رجل عظيم ؟

يختلف الحكم في عظمة الرجال باختلاف الأمم والاجيال
فبعضهم يقيسون العظمة بكبر المطامع وسعة الفتوح أو بكثرة
الأموال ، وبعضهم يقيسونها بمقدار النفع الذي يترتب على
ظهور ذلك العظيم . فمن الفرنسيين من يعد بونابرت أكبر
رجال فرنسا لكثرة فتوحه وكبر مطامعه وبعضهم يقدم
« باستور » عليه لأنه خدم الإنسانية باكتشافاته الميكروبية
وآخرون يفضلون رجال الدين والشارعين . وعندنا أن الرجل
العظيم إنما يكون عظيما بما يخلفه من الإعجاب والاثار الحسن
في نفوس معاصريه . إذ قد يكون عظيما بنفسه ولا يوفق لإتمام
عمله فيؤسس لمن يأتي بعده . وعلى هذا القياس نعد جمال
الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده عظيمين لأن الأول من
مؤسسى النهضة السياسية والثانى من مؤسسى النهضة
الدينية الإصلاحية . وعلى هذا القياس أيضا نعد مصطفى كامل
عظيما لأنه أحيأ في الأمة المصرية جامعة الوطن وهو القائل :
« لو لم أكن مصرية لوددت أن أكون مصرية » . وعلم المصريين
المجاهرة بطلب حقوقهم وأسمع دول أوربا أصواتهم . فهو
من أكبر مؤسسى النهضة السياسية المصرية . ولم يأت جمال
الدين الأفغانى عملا لا يستطيع مصطفى كامل مثله وأعظم منه
لو بلغ إلى مثل سنه . ألم يواقف أعظم دول الأرض حتى عرض
نفسه للنفى أو الطرد ؟ وقد تفانى في خدمة مبدئه حتى مات
شهيدا في ريعان شبابه

إن الفقيه أحيأ الشعور الوطنى بحماسته وجراته وجاءه
الموت السريع في أبان جهاده فذهب شهيدا . وعرف المصريون
له ذلك فاتحدوا في البكاء عليه وتعاونوا في تعظيمه وتكريمه
فظهر الشعور الوطنى بعد موته أكثر مما كان ظاهرا في حياته .

رجال اصلاح

- ١ - جمال الدين الأفغانى
- ٢ - محمد عبده
- ٣ - عبد الرحمن الكواكبى
- ٤ - قاسم أمين

السيد جمال الدين الحسيني الاففانى

١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ الموافق ١٨٣٨ - ١٨٩٦ م

قد تمر القرون وتتوالى الاجيال والناس على ما ساقتهم اليه الحاجة من شؤون معاشهم لا يفقهون غشها من سمينها ولا يدركون مبداءها ولا مصيرها حتى تتمخض الطبيعة فتلد من ابنائها افرادا يميطنون عن اسرارها اللثام فيرى الناس من ورائه شرائع ونواميس كانوا عنها غافلين . اولئك هم اقطاب العلم وانوار العالم ومنهم الفلاسفة الطبيعيون الذين مزقوا أستار الجهل وكشفوا غوامض الطبيعة فمهدوا سبل الاختراع والاكتشاف . ومنهم الفلاسفة العقليون الذين استطلعوا اسرار الحكمة المستترة وراء تلك النواميس وبينوا ما اودعه الخالق في خليقته من القواعد العقلية والروابط الادبية

ولكن الدنيا لا تجود بواحد من اولئك الافراد الا كل بضعة قرون فيسير الناس على خطواته اجيالا حتى اذا كادوا يرجعون الى غيهم جادت عليهم باخر ينفض فيهم روحا حية فيهبون من رقادهم ويعودون الى رشدهم ريثما ياتيهم ثالث

هكذا كان شأن العالم من بدء عمرانه . ومن اولئك الفلاسفة سقراط وافلاطون ومن تقدمهم وجاء بعدهم من فلاسفة اليونان والرومان والفرس والعرب وغيرهم من علماء العقول والمنقول ممن لا نزال نستضيء بنبراسهم

ولكن لله في خلقه حكمة لا تدركها العقول فقد ينبغ في بعض الاجيال افراد توافرت فيهم قوى الفلاسفة ومواهب رجال



جمال الدين الحسيني الافغانى

الاعمال فتحيط بهم بيئات لاتصلح لنماء مايفرسون فيذهب
سعيهم هباء منثورا

ولما كان الانسان لايقدر العمل الا بنسبة مايرتب عليه من
الفائدة كان نصيب كثيرين من عظماء الارض جهل الناس حق
قدرهم وأغفل التاريخ ذكرهم كما هو شأننا بفقيه الشرق
الفيلسوف الخطيب السيد جمال الدين الافغانى رحمه الله .
فقد نشأ قطبا من أقطاب الفلسفة وعاش ركنا من أركان السياسة
ولكنه مات ولم يتم عملا ولا ألف كتابا . على ان ذلك لا يحط من
مقامه وقد رأينا أعظم فلاسفة اليونان «سقراط» مات ولم يدون
شيئا من كلامه ولكن تلامذته حفظوا فلسفته ودونوها فتوارثها
الاجيال خلفا عن سلف . فعسى أن لا يحرم من مريدى الاستاذ
وتلامذته من يفعل مثل ذلك

ترجمة حياته

هو السيد محمد جمال الدين بن السيد صفتر ، ولد في بيت
شرف وعلم بقرية أسعد اباد من قرى كثر من أعمال كابل ببلاد
الافغان سنة ١٢٥٤ هـ «١٨٣٨م» ويتصل نسبه بالسيد على
الترمذى المحدث المشهور ويرتقى الى الامام الحسين بن على ابن
أبى طالب . وآل هذا البيت عشيرة كبيرة تقيم في خطة كثر
ولها منزلة عليا في قلوب الافغانيين لحرمة نسبها . وكانت تملك
جزءا من أرض الافغان حتى سلب الملك منها دوست محمدخان
جد الامير عبد الرحمن وأمر بنقل والد السيد جمال الدين
وبعض أعمامه الى مدينة كابل وجمال الدين لا يزال في الثامنة
من عمره . فعنى والده بتربيته وتثقيفه فتلقى مبادئ العلوم
العربية والتاريخ وعلوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه
وأصول وكلام وتصوف ، والعلوم العقلية من منطق وحكمة عملية
سياسية ومنزلية وتهذيبية وحكمة نظرية طبيعية والهيئة
والعلوم الرياضية من حساب وهندسة وجبر وهيئة أفلاك
ونظريات الطب والتشريح . وكانت ملامح النجابة والذكاء ظاهرة

فيه منذ نعومة اظفاره . فاتم هذا كله وهو في الثامنة عشرة من عمره ..

ثم عرض له سفر الى بلاد الهند فأقام بها سنة وبضعة أشهر ينظر في بعض العلوم الرياضية على الطريقة الافرنجية الحديثة .
وقدم بعد ذلك الى الاقطار الحجازية لاداء فريضة الحج فقضى سنة ينتقل من بلد الى آخر حتى وافى مكة المكرمة في سنة ١٢٧٣ هـ ١٨٥٦ م فوقف على كثير من عادات الامم التي مر بها في سياحته ثم رجع الى بلاده وانتظم في سلك رجال الحكومة على عهد الامير دوست محمد خان المتقدم ذكره ولما زحف هذا الامير الى هراة ليفتحها ويملكها على سلطان احمد شاه صهره وابن عمه سار السيد جمال الدين معه في جيشه ولازمه مدة الحصار الى ان توفي الامير وفتحت المدينة بعد معاناة الحصر زمنا طويلا .
وتقلد الامارة ولى عهدها شير على خان سنة ١٢٨٠ هـ - ١٨٦٣ م وأشار عليه وزيره محمد رفيق خان أن يقبض على اخوته ويعتقلهم فان لم يفعل سمعوا بالناس الى الفتنة والبوهم للفساد طلبا للاستبداد بالامارة . وكان في جيش هراة من اخوة الامير ثلاثة : محمد اعظم ومحمد اسلم ومحمد أمين ، فانتصر السيد جمال الدين لمحمد اعظم فلما احسوا بتدبير الامير ومشورة الوزير أسرعوا الى الفرار وتفرقوا في الولايات فذهب كل منهم الى ولايته التي كان يليها من قبل أبيه وطاشت بهم الفتن واشتعلت نيران الحروب الداخلية . وبعد مجادلات عنيفة عظم امر محمد اعظم وابن أخيه عبد الرحمن وتغلبا على عاصمة المملكة وانقذا محمد افضل والد عبد الرحمن من سجن قزنة وسمياه أميرا على أفغانستان ثم أدركه الموت بعد سنة وقام على الامارة بعده شقيقه محمد اعظم خان فارتفعت منزلة جمال الدين عنده فأحله محل الوزير الاول وعظمت ثقته به فكان يلجأ لرايه في العظام وما دونها وكادت تخلص حكومة الافغان لمحمد اعظم بتدبير السيد جمال الدين لولا سوء ظن الامير بالاغلب من ذوى قرابته مما حمله على تفويض مهمات الاعمال الى ابنائه

الاحداث وهم خلو من التجربة عراة من الحنكة فساق الطيش
احدهم وكان حاكما في قندهار على منازلة عمه شير على في هراة
ولم يكن له من الملك سواها وظن الفتى انه يظفر فينال عند ابيه
حظوة فيرفعه على سائر اخوته . فلما تلاقى مع جيش عمسه
دفعته الجراة على الانفراد عن جيشه في مائتى جندي اخترق
بها صفوف أعدائه فأوقع الرعب في قلوبهم وكادوا ينهزمون لولا
ما التفت يعقوب خان قائد شير على فوجد ذلك الغلام متقطعا
عن جيشه فكر عليه وأخذه أسيرا فتشتت جند قندهار وقوى
الامل عند شير على فحمل على قندهار واستولى عليها وعادت
الحرب الى شبابها وعضد الانجليز شير على وبذلوا له قناطير
من الذهب ففرقها في الرؤساء والعاملين لمحمد أعظم فبيعت
أمانات ونقضت عهود وجددت خيانات . وبعد حروب هائلة
تغلب شير على وانهزم محمد أعظم وابن أخيه عبيد الرحمن
فذهب عبد الرحمن الى بخارى وذهب محمد أعظم الى بلاد
ايران ومات بعد أشهر في مدينة نيسابور



أما السيد جمال الدين فبقى في كابل لم يمسه الامير بسوء
احتراما لعشيرته وخوف انتقاض العامة عليه حمية لال البيت
النبوى . الا انه لم ينصرف عن الاحتيال للغدر به والانتقام منه
بوجه يلتبس على الناس حقه بباطله . ولهذا رأى السيد
جمال الدين خيرا له أن يفارق بلاد الافغان فاستأذن في الحج
فأذن له على شرط أن لا يمر ببلاد ايران كيلا يلتقى فيها بمحمد
أعظم وكان لم يمت بعد فارتحل عن طريق الهند سنة ١٢٨٥ هـ -
١٨٦٨ م بعد هزيمة محمد أعظم بثلاثة أشهر . فلما وصل الى
التخوم الهندية تلقته حكومة الهند بحفاوة واجلال الا انها
لم تسمح له بطول الإقامة في بلادها ولا اذنت للعلماء في الاجتماع
عليه الا تحت مراقبة رجالها ، فلم يقم هناك الا شهرا ثم سيرته
من سواحل الهند في أحد مراكبها الى السويس ، فجاء مصر

وأقام بها نحو أربعين يوما تردد على الجامع الأزهر وخالطه كثير من طلبة العلم السوريين ومالوا إليه كل الميل وسألوه أن يقرأ لهم شرح الاظهار فقرأ لهم بعضا منه في بيته ثم تحول عن الحجاز عزمه وتعجل بالسفر الى الاستانة



وبعد أيام من وصوله الاستانة قابل الصدر الاعظم عالي باشا فنزل منه منزلة الكرامة وعرف له الصدر فضله وأقبل عليه بما لم يسبق لمثله وهو مع ذلك بزيه الافغانى من القباء والكساء والعمامة العجراة وحومت عليه لفضله قلوب الامراء والوزراء وعلا ذكره بينهم وتناقلوا الثناء على علمه وأدبه وهو غريب عن أزيائهم ولغتهم وعاداتهم ولم تمض ستة أشهر حتى عين عضوا في مجلس المعارف فأدى حق الاستقامة في آرائه ولكنه أشار الى طرق لتعميم المعارف لم يوافق عليها رفقاؤه وبينها ما ساء شيخ الاسلام اذ ذاك لانها كانت تمس شيئا من رزقه فأرصد له العنت حتى كان رمضان سنة ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م فرغب اليه مدير دار الفنون أن يلقي فيها خطابا للحث على الصناعات فاعتذر اليه بضعفه في اللغة التركية فألح عليه فأنشأ خطابا طويلا كتبه قبل القائه وعرضه على نخبة من أصحاب المناصب العالية فاستحسنوه

فلما كان اليوم المعين لاستماع الخطاب تسارع الناس الى دار الفنون واحتفل له جم غفير من رجال الحكومة واعيان أهل العلم وأرباب الجرائد وحضر في الجمع معظم الوزراء فصعد جمال الدين على منبر الخطابة وألقى ما كان أعده ببلاغة سحررت عقول السامعين . فأنكر مشايخ العلم شيئا من آرائه واتصل الامر بشيخ الاسلام وكان متغيرا عليه كما علمت فالتمس من الدولة إبعاده عن الاستانة فصدر له الامر بالجلء عنها بضعة أشهر حتى تسكن الخواطر ويهدأ الاضطراب ثم يعود ان شاء ففارقها

وحمله بعض من كان معه على التحول الى مصر فجاء اليها في اول
المحرم سنة ١٢٨٨ هـ - ٢٣ مارس ١٨٧١ م

قدم السيد جمال الدين الى مصر على قصد التفرج بما يراه
من مناظرها ومظاهرها ولم تكن له عزيمة على الاقامة بها حتى
لاقى صاحب الدولة رياض باشا فاستمالته مساعيه الى المقام
وأجرت عليه الحكومة راتباً مقداره الف قرش مصرى كل شهر
نزلاً اكرمته به لا في مقابلة عمل . واهتدى اليه بعد الاقامة كثير
من طلبة العلم واستوروا زنده فأورى واستفاضوا بحره ففاض
درا وحملوه على التدريس فقرأ من الكتب العالية في فنون الكلام
الأعلى والحكمة النظرية من طبيعية وعقلية وفي علم الهيئـة
الفلكية وعلم التصوف وعلم أصول الفقه الاسلامى . وكانت
مدرسته بيته فعظم امره في نفوس طلاب العلوم واستجزلوا
فوائد الاخذ عنه وأعجبوا بعلمه وأدبه وانطلقت الالسن بالثناء
عليه وانتشر صيته في الديار المصرية . ثم وجه عنايته لتمزيق
حجب الاوهام عن أنوار العقول فنشطت لذلك الباب واستضاءت
بصائر وحمل تلامذته على العمل فى الكتابة وانشاء الفصول
الادبية والحكمية والدينية فاشتغلوا على نظره وبرعوا وتقدم فن
الكتابة فى مصر بسعيه وكان القادرون على الاجادة فى المواضيع
المختلفة قليلين

فنبغ من تلامذته فى القطر المصرى كتبة لايشق غبارهم ولا
يوطأ مضمارهم وأغلبهم أحداث فى السن شيوخ فى الصناعة
وما منهم الا من اخذ عنه او عن أحد تلامذته أو قلد المتصلين به .
هذا ما حسده عليه أقوام واتخذوا سبيلاً للطعن عليه من قراءته
بعض الكتب الفلسفية اخذاً بقول جماعة من المتأخرين فى تحريم
النظر فيها فتمكنوا من نسبة ما أودعته كتب الفلاسفة الى رأى
هذا الرجل وأذاعوا ذلك بين العامة ثم أيدهم أخلاط من الناس
من مذاهب مختلفة . غير أن هذا كله لم يؤثر فى مقامه من نفوس
العارفين بحاله

وكان رحمه الله على علمه وفضله ميالا الى السياسة فنظر في حال مصر وما آلت اليه من التدخل الاجنبى فعلم أن لابد من تغير أحوالها وكان قد انتظم في سلك الجمعية الماسونية وتقدم فيها حتى صار من الرؤساء فأنشأ محفلا وطنيا تابعا للشرق الفرنساوى دعا اليه مريديه من العلماء والوجهاء فصار أعضاؤه نحوا من ثلاثمائة عدا وكان شديد الكره للدولة الانجليزية كما تقدم من حاله معها في الهند وما كان من اعتدائهم على أبناء أبيه فجهر بذلك غير مرة ونشر فصولا ناطقة به ترجموها الى جرائد انجلترا واهتموا بها كثيرا حتى تولى المستر غلادستون نفسه أمر الجدل في موضوعها . فلما عظم أمر محفله داخل الخوف فنصل انجلترا فوشى به الى الحكومة وبث الرقيب في المحفل فسعوا فيه فسادا . وفي خلال ذلك بلغت أحوال مصر نهاية الارتباك فصرح بأمور قوت حجة الساعين وكان تولى مصر الخديو توفيق باشا فأصدر أمره باخراجه من القطر المصرى هو وتابعه أبو تراب ففارق مصر الى البلاد الهندية سنة ١٢٩٦ هـ - ١٨٧٨ م وأقام بحيدر اباد الدكن وفيها كتب رسالته في «نقى مذهب الدهريين»



ولما كانت الحوادث العرابية بمصر دعى من حيدر آباد الى كلكتا وألزمته حكومة الهند بالاقامة فيها حتى انقضى أمر مصر وفتأت الحرب الانجليزية ثم أبيع له بالذهاب الى أى بلد فاختار الشخوص الى أوروبا . وأول مدينة نزلها مدينة لندره أقام بها أياما قلائل ثم انتقل الى باريس فوافاه اليها صديقه الشيخ محمد عبده المصرى . وكانت في مصر جمعية وطنية اسمها جمعية العروة الوثقى فكلفته على بعد الدار أن ينشئ جريدة تدعو المسلمين الى الوحدة الاسلامية فأنشأ «العروة الوثقى» وكلف صديقه المشار اليه بتحريرها وكان لها وقع حسن في العالم الاسلامى فنشر منها ١٨ عددا ثم قامت الموانع دون

استمرارها حيث اقفلت ابواب الهند عنها وشددت الحكومة الانجليزية في اساءة من يقرأها

وقضى جمال الدين في باريس ثلاث سنوات نشر في أثنائها مقالات في جرائدها تبحث في سياسة روسيا وانجلترا والدولة العلية ومصر وترجمت جرائد انجلترا كثيرا منها وجرت له أبحاث فلسفية مع الفيلسوف الفرنسي رينان في «العلم والاسلام» فشهد له هذا بسعة العلم وقوة الحججة ثم شخص الى لندره بايعاز اللورد شرشل واللورد سالسبرى ليسألاه عن رأيه في المهدي وظهوره اذ ذاك . ثم عاد الى فرنسا وتعرف بكثيرين من علمائها وفلاسفتها فأحلوه مكانا عليا

ثم عزم على نجد فاستقدمه شاه الفرس اذ ذاك المرحوم ناصر الدين شاه على لسان البرق ليراه فسار قاصدا طهران فالتقى في أصفهان بالامير ظل السلطان فلاقى منه اكراما حتى اذا وصل طهران استقبله الشاه أحسن استقبال وأكثر من الثناء عليه حيثما ذكره حتى في بلاطه وبين أهله وأولاده وولاه نظارة الحربية على أن يرقبه بعد قليل الى منصب الصدارة



وكان جمال الدين قد درس اخلاق الامم وعرف تواريخ الدول وتدبير احوال السياسة على اختلاف الامكنة والازمنة مع بلاغته وقوة برهانه . فقال لدى امراء الفرس وعلمائها منزلة قل أن ينالها غيره في مثل حاله فأصبح منزله حلقة علم يؤمها سراة البلاد ووجهاءها يتسابقون الى سماع حديثه فخامر الشاه ريب من أمره مخافة أن يكون وراء ذلك ما يخشى منه على سلطانه فأبدى تغيره عليه ، فأدرك جمال الدين ما في نفسه فاستأذنه في السفر لتبديل الهواء فأذن له فسار الى موسكو في روسيا فلاقاه أهلها بالتجلة والاکرام لما سبق الى مسامعهم من شهرته . ثم شخص الى بطرسبورج وتعرف بأعظم رجالها من العلماء

والسياسيين ونشر في جرائدها مقالات ضافية في سياسة الافغان
والفرس والدولة العلية والروسية والانجليزية كان لها دوى
شديد في جو السياسة

واتفق اذ ذاك فتح معرض باريس لسنة ١٨٨٩ م ف شخص
جمال الدين اليها فالتقى بالشاه في مونيخ عاصمة بافاريا عائدا
من باريس فدعاه الشاه الى مرافقته فأجاب الدعوة وسار في
معيته الى فارس فلم يكد يصل طهران حتى عاد الناس الى
الاجتماع به والانتفاع بعلمه والشاه لا يرتاب من أمره كأن سياحته
في أوروبا محت كثيرا من شكوكه . فكان يقربه منه ويوسطه في
قضاء كثير من مهمات حكومته ويستشير في سنن القوانين
ونحوها فشق ذلك على أصحاب النفوذ وخصوصا الصدر
الاعظم فأمر الى الشاه أن هذه القوانين وان تكن لا تخلو من النفع
فهي لا توافق حال البلاد فضلا عما ستأول اليه من تحويل نفوذ
الشاه الى سواه . فأثر ذلك في الشاه حتى ظهر على وجهه
فأحس جمال الدين بالامر فاستأذنه في المسير الى بلدة شاه
عبد العظيم على ٢٠ كيلومترا من طهران فأذن له فتبعه جم غفير
من العلماء والوجهاء وكان يخطب فيهم ويستحثهم على اصلاح
حكومتهم فلم تمض ثمانية أشهر حتى ذاعت شهرته في أقاصي
بلاد الفرس وشاع عزمه على اصلاح ايران فخاف ناصر الدين
عاقبة ذلك فأنفذ الى شاه عبد العظيم خمسمائة فارس قبضوا
على جمال الدين وكان مريضا فحملوه من فراشه وساقوه يخفرونه
خمسون فارسا الى حدود المملكة العثمانية فعظم ذلك على
مريديه في ايران فثاروا حتى خاف الشاه على حياته

أما جمال الدين فمكث في البصرة ريثما عادت اليه صحته
فشخص الى لندره وقد عرفه الانجليز من قبل فتلقوه بالاكرام
ودعوه الى مجتمعاتهم السياسية وأنديتهم العلمية ليروه ويسمعوا
حديثه وكان أكثر كلامه معهم في بيان حال الشاه وتصرفه في المملكة
وما آلت اليه حالها في عهده مع حث الحكومة الانجليزية على

السعى في خلعه . وفيما هو في ذلك ورد عليه كتاب مع المايين الهمايوني بواسطة المرحوم رستم باشا سفير الدولة العلية في لندره اذ ذاك أن يقوم الى الاستانة فاعتذر لانه في شاغل وقتي لاصلاح بلاده . فورد عليه كتاب آخر وفيه ثناء وتحريض فأجاب الدعوة تلغرافيا على أن يتشرف بمقابلة جلالة السلطان ثم يعود . فقدم الاستانة سنة ١٨٩٢ فطابت له فيها الإقامة لما لاقاه من التفات الحضرة السلطانية واکرام العلماء ورجال السياسة وما زال معززا مكرما وجيها محترما حتى دأبهمه السرطان في فكه أواخر سنة ١٨٩٦ وامتد الى عنقه فتوفاه الله في ٩ مارس سنة ١٨٩٧ واحتفل بجنائزه ودفنه في مدفن «شيخلر مزارلغى» قرب نشان طاش

صفاته الشخصية

كان أسمر اللون بما يشبه أهل الحجاز ربعة ممتلىء البنية أسود العينين نافذ اللحظ جذاب النظر مع قصر فيه فاذا قرأ أدنى الكتاب من عينيه ولكنه لم يستخدم النظارات . وكان خفيف العارضين مسترسل الشعر بجة وسراويلات سوداء تنطبق على الكاحلين وعمامة صغيرة بيضاء على زى علماء الاستانة

«طعامه» : كان قانتا قليل الطعام لايتناوله الا مرة في النهار ويعتاض عما يفوته من ذلك بما يشربه من منقوع الشاي مرارا في اليوم . والعفة في الطعام لازمة من يعمل أعمالا عقلية لان البطنة تذهب الفطنة . وكان يدخن نوعا من السيجار الا فرنجي الجيد ولشدة ولعه بالتدخين وعنايته في انتقاء السيجار لم يكن يركن الى أحد من خدمه في ابتياعه فيبتاعه هو بنفسه

«مسكنه» : كان يقيم في أواخر أيامه بقصر نشان طاش بالاستانة ، انعم عليه به جلالة السلطان وفيه الاثاث والرياش وعربة من الاصطبل العامر يجرها جوادان وأجرى عليه

رزقا مقداره خمس وسبعون ليرة عثمانية في الشهر . فكان قبل مرضه الاخير يقيم معظم النهار في منزله فاذا كان الاصيل ركب العربية لترويح النفس في متنزه كاغدخانة بضواحي الاستانة وكان كثير القيام لاينام الا الفلس الى الضحى

«مجلسه وخطابه» : كان اديب المجلس كثير الاحتفاء بزائريه على اختلاف طبقاتهم ينهض لاستقبالهم ويخرج لوداعهم ولا يستنكف من زيارة اصغرهم على امتناعه من زيارة اكبرهم اذا ظن في زيارته نزولاً . وكان ذا عارضة وبلاغة لا يتكلم الا اللغة الفصحى بعبارات واضحة جلية . واذا آتس من سامعه التباسا بسط مراده بعبارة اوضح فاذا كان السامع عاميا تنازل الى مخاطبته بلغة العامة . وكان خطيبا مصقعا لم يقم في الشرق أخطب منه . وكان قليل المزاح وزينا كتوما قد يخاطب عشرات من الناس في اليوم فيبحث مع كل منهم في موضوع يهمه ، فاذا خرج جلسه كان خروجه آخر عهده بذلك الموضوع حتى يعود هو اليه بشأته

«أخلاقه» : كان حر الضمير صادق اللهجة عفيف النفس رقيق الجانب وديعا مع انفة وعظمة ، ثابت الجأش قد يساق الى القتل فيسير اليه سير الشجاع الى الظفر . وكان راغبا عن حطام الدنيا لا يدخر مالا ولا يخاف عوزا . ومما رواه المرحوم اديب اسحاق : ان جمال الدين لما ابعد من مصر أنزل في السويس خالي الجيب فأتاه السيد النقادی فنصل ايران في ذلك الثغر ومعه نفر من تجار العجم قدموا له مقدارا من المال على سبيل الهدية أو القرض الحسن ، فردده وقال لهم : «احفظوا المال فأنتم اليه أحوج ان الاسد لا يعدم فريسة حيثما ذهب» وكان مقداما حاثا على الاقدام فلا يخرج جلسه من بين يديه الا وقد قام في نفسه محرض على العلى منشط على السعى في سبيله . ولكنه كان على فضله لا يخلو من حدة المزاج ولعلها كانت من اكبر الاسباب لما لاقاه من عواقب الوشاية

«عقله» : كان ذكيا فطنا حاد الذهن سريع الملاحظة يكاد يكشف حجب الضمائر ويهتك السرائر دقيق النظر في المسائل العقلية قوى الحجة ذا نفوذ عجيب على جلسائه فلا يباحثه أحد في موضوع إلا شعر بانقياد الى برهانه وربما لا يكون البرهان بحد ذاته مقنعا . وكان مع ذلك قوى الذاكرة حتى قيل أنه تعلم اللغة الفرنسية أو بعضها وصار يقدر على الترجمة منها ويحفظ من مفرداتها شيئا كثيرا في أقل من ثلاثة أشهر بلا استاذ إلا من علمه حروف هجائها يومين

«علومه» : كان واسع الاطلاع في العلوم العقلية والنقلية وخصوصا الفلسفة وفلسفة تاريخ الاسلام والتمدن الاسلامي وسائر احوال الاسلام . وكان يعرف اللغات الافغانية والفارسية والعربية والتركية والفرنساوية جيدا مع المام باللغتين الانجليزية والروسية . وكان كثير المطالعة لم يفته كتاب كتب في آداب الامم وفلسفة اخلاقهم الا طالع . وأكثر مطالعته في اللغتين العربية والفارسية

«آماله وأعماله» : يؤخذ من مجمل أحواله أن الغرض الذي كان يصوب نحوه أعماله والمحور الذي كانت تدور عليه آماله توحيد كلمة الاسلام وجمع شتات المسلمين في سائر اقطار العالم في حوزة دولة واحدة اسلامية تحت ظل الخلافة العظمى . وقد بذل في هذا المسعى جهده وانقطع عن العالم من أجله فلم يتخذ زوجة ولا التمس كسبا ولكنه مع ذلك لم يتوفق الى ما أراده فقضى ولم يدون من بنات افكاره الا رسالة في نفى مذهب الدهريين ورسائل متفرقة في مواضيع مختلفة قد تقدم ذكرها ولكنه بث في نفوس أصدقائه ومريديه روحا حية حركت همهم وحددت أقدامهم فانتفع الشرق وسوف ينتفع بأعمالهم

الشيخ محمد عبده

مفتى الديار المصرية

١٢٥٨ - ١٣٢٣ هـ الموافق ١٨٤٢ - ١٩٠٥ م

ترجمة حياته

نشأ الفقيد في قرية صغيرة (محلة نصر) من أبوين فقيرين فلم يمنعه ذلك من الارتقاء بجده واستعداده حتى بلغ منصب الافتاء وأصبح علما في الشرق وقطبا من أقطاب الدهر سينقش اسمه على صفحات الايام ويبقى ذكره ما بقى الاسلام

ولد عام ١٢٥٨ هـ وأبوه يتعاطى الفلاحة وقد أدخل فيها أولاده الا محمدا لأنه توسم فيه الذكاء فأراد أن يجعله من الفقهاء . فأدخله كتاب القرية فتردد اليه حيناً ثم أرسله الى الجامع الاحمدى في طنطا أقام فيه ثلاث سنوات ثم نقله الى الجامع الازهر فقضى فيه عامين لم يستفد فيهما شيئا وهو ينسب ذلك بالاكتر الى فساد طريقة التعليم

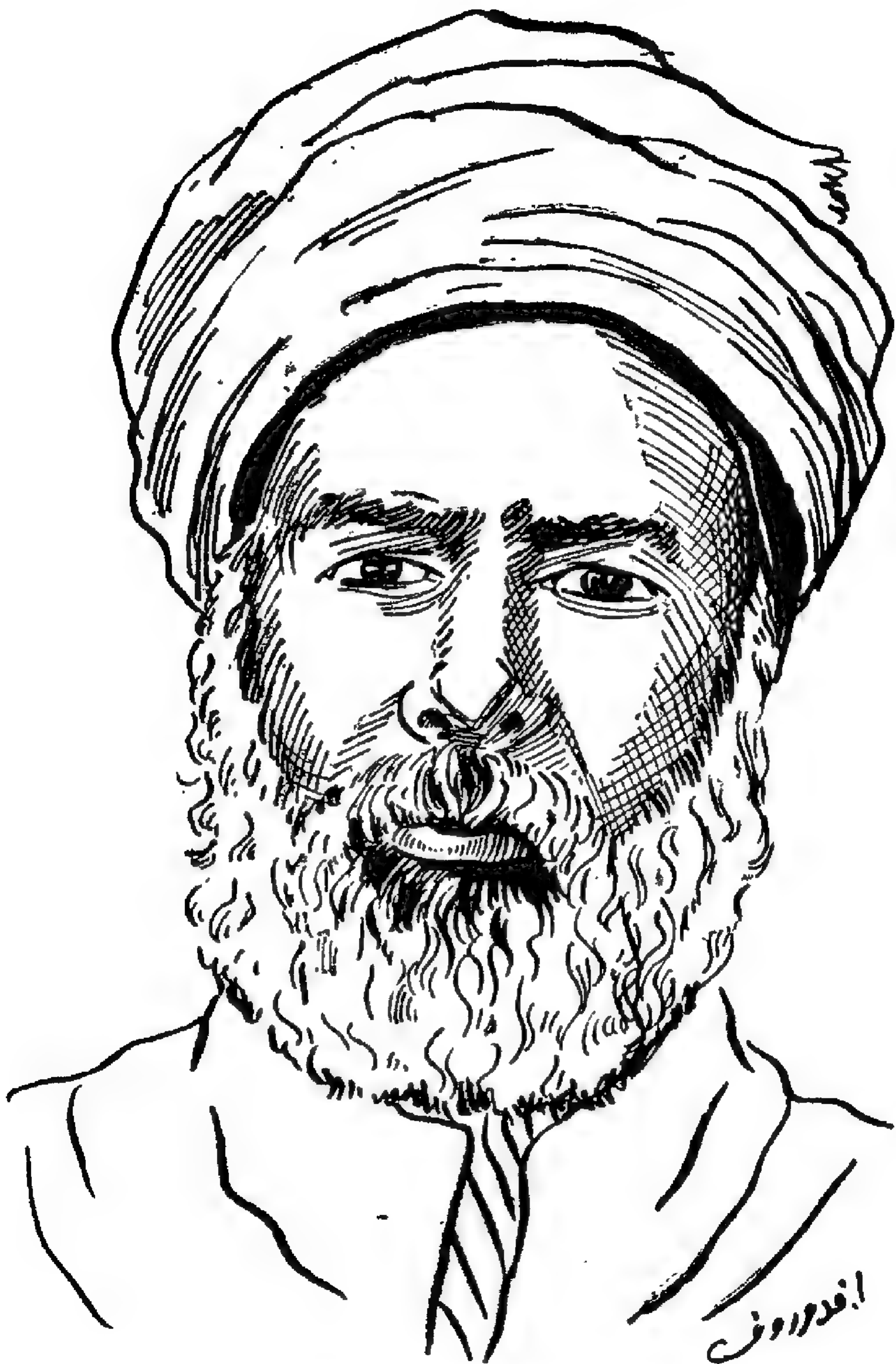
ثم انتبه لنفسه ولم ير بدا من تلقى العلم فاستنبت لنفسه أسلوبا في المطالعة وأعمل فكرته في تفهم ما يقرأه فاستلذ العلم واستغرق في طلبه فأحرز منه جانبا كبيرا على ما استطاع ادراكه بتلك الطريقة

واتفق أن ورد على مصر سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) السيد جمال الدين الافغانى فيلسوف الاسلام وصاحب الترجمة لا يزال في الازهر وقد أدرك الثلاثين من عمره . وتولى جمال

الدين تعليم المنطق والفلسفة فانخرط الفقيد في سلك تلامذته مع جماعة من نوابغ المصريين تخرجوا على جمال الدين فخرجوا لا يشق لهم غبار كأن الرجل نفخ فيهم من روحه ففتحوا أعينهم وإذا هم في ظلمة وقد جاءهم النور فاقتبسوا منه فضلا عن العلم والفلسفة روحا حية ارتهم حالهم كما هي آذ تمزقت عن عقولهم حجب الاوهام فنشطوا للعمل في الكتابة فأنشأوا الفصول الادبية والحكمية والدينية . وكان صاحب الترجمة الصق الجميع به وأقربهم الى طبعه وأقدرهم على مباراته . فلما قضى على جمال الدين بالابعاد من هذه الديار قال يوم وداعه لبعض خاصته : « قد تركت لكم الشيخ محمد عبده وكفى به لمصر عالما »

وتقلب الفقيد في بعض المناصب العلمية بين تدريس في المدارس الاميرية وتحرير في الوقائع المصرية وكتابة في الدوائر الرسمية . حتى اذا كانت الثورة العراقية ، فاشترك اشتراكا فعالا فيها . ولما احتل الانجليز مصر ألقى القبض على الشيخ محمد عبده في جملة الذين قبض عليهم وحوكموا فحكم عليه بالنفي لانه أفتى بعزل الخديو توفيق باشا فاخترت الإقامة في سورية فرحب به السوريون وأعجبوا بعلمه وفضله فأقام هناك ست سنوات فاغتنموا اقامته بينهم وعهدوا اليه بالتدريس في بعض مدارسهم

وانتقل من سورية الى باريس فالتقى فيها بأستاذه وصديقه جمال الدين وكانا قد تواعدا على اللقاء هناك فأنشأ جريدة العروة الوثقى وتحريرها منوط بالشيخ فكانت لها رنة شديدة في العالم الاسلامي ولكنها لم تعيش طويلا . وتمكن الشيخ في أثناء اقامته بباريس من الاطلاع على أحوال التمدن الحديث وقرأ اللغة الفرنسية على نفسه حتى أصبح قادرا على المطالعة فيها . ثم سعى بعضهم في اصدار العفو عنه فعاد الى مصر فولاه الخديو القضاء وظهرت مناقبه ومواهبه فعين مستشارا في محكمة



الشيخ محمد عبده

افندوون

الاستئناف وعين عضوا في مجلس ادارة الازهر وعين أخيرا مفتيا للديار المصرية سنة ١٣١٧ هـ (١٨٩٩ م) وما زال في هذا المنصب حتى توفاه الله في ١١ يوليو سنة ١٩٠٥ ولم يعقب ذكره يبقى به اسمه ، ولكنه خلف آثار يخلد بها ذكره

مناقبه وأعماله

كان ربع القامة أسمر اللون قوى البنية حاد النظر فصيح اللسان قوى العارضة متوقد الفؤاد بليغ العبارة حاضر الذهن سريع الحاطر قوى الحافظة . وقد ساعده ذلك على احراز ما أحرزه من العلوم الكثيرة الدينية والعقلية والفلسفية والمنطقية والطبيعية وتلقى اللغة الفرنسية وهو في حدود الكهولة في بضعة أشهر . وكان شديد الغيرة على وطنه حريصا على رفع شأن ملته وذاع ذلك عنه في العالم الاسلامي فكاتبه المسلمون من أربعة أقطار المسكونة يستفتونه ويستفيدون من علمه وهو لا يرد طالبا ولا يقصر في واجب

ناهيك بما عهد اليه من المشروعات الوطنية فقد كان القوم لا يقدمون على عمل كبير الا رأسوه عليه أو استشاروه فيه . فرأس الجمعية الخيرية الاسلامية وألف شركة طبع الكتب العربية وشارك مجلس شورى القوانين في مباحثه . وآخر ما عهد اليه تنظيم مدرسة يتخرج فيها قضاة الشريعة ومحاموها . فضلا عما اشتغل فيه من التأليف والتصنيف وما كان يستشار فيه من الامور الهامة في القضاء أو الادارة بالمصالح العامة والخاصة . وبالجمله فقد كان كنز فوائده للقريب والبعيد بين افتاء ومشورة واحسان وكتابة ومداولة ووعظ وخطابة ومباحثة ومناظرة واستنهاض وتحريض وتنشيط وغير ذلك

على أن عظمتة الحقيقية لا تتوقف على ما تقدم من أعماله الخيرية أو العلمية أو القضائية وانما هي تقوم بمشروعه الاصلاحى الذى لا يتصدى لمثله الا أفراد لا يقوم منهم فى الامة

الواحدة مهما طال عمرها الا بضعة قليلة . وهذا ما أردنا
بسطه على الخصوص في هذه العجالة

العظمة الحقيقية

تختلف العظمة شكلا واثرا باختلاف السبيل الذي
يسعى صاحبها فيه أو الغرض الذي يرمى اليه . فمنهم
العظيم في السياسة أو الحرب أو العلم أو الدين ومن
العظماء من يوفق الى اتمام عمله ومنهم من يرجع بصفقة
الحاسر من نصف الطريق أو رבעه أو عشرة على أن أكثر العظماء
انما يأتون العظائم لمجرد الرغبة في الشهرة الواسعة ويغلب
أن يكون ذلك في رجال الحرب . وهؤلاء تنحصر ثمار أعمالهم
في أنفسهم أو أهليهم أو أمتهم على انهم لا يستطيعون نفعا
لأنفسهم الا بضر الآخرين - اعتبر ذلك في سير كبار الفاتحين
كالاسكندر وبونابرت وغيرهما فكم سفكوا في سبيل عظمتهم
من الدماء أو ارتكبوا من المحرمات وكان النفع عائدا على أنفسهم
أو أمتهم ولم يطل مكثه الا قليلا

وأما رجال العلم فعظمتهم تقوم بما ينيرون به الازهان من
الاصول العلمية أو يكتشفونه من أسباب الامراض والوقاية
منها أو يضعونه من النظمات والقوانين أو غير ذلك . ونفعهم
يشمل القريب والبعيد الرقيع والوضيع ولا يسفكون في
سبيل نشره دما ولا يرتكبون محرما وهو باق مابقى الانسان
وينمو بنمو المدنية

وأما رجال الدين ومن جرى مجراهم من واضعى الشرائع
والاحكام فتأثيرهم أوسع دائرة وأعم شمولا لانه يتناول البشر
على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم رجالا ونساء كبارا وصغارا
وعليهم يتوقف نظام الاجتماع وآدابه وأخلاق الناس وعاداتهم
وعلائقهم بعضهم ببعض . وعظماء الدين فئتان : الفئة الاولى

واضعوا الشرائع كالانبياء أو من في معناهم ممن ينسبون أعمالهم الى ماوراء الطبيعة . والفئة الثانية المصلحون الذين يصلحون الدين بعد فسادہ - لأن الدين اذا مر عليه بضعة قرون فسد وتغير شكله وانقلب وضعه تبعاً لمطامع الذين يتولون شؤونہ فتفسد الامة وينحط شأنها حتى يقوم من يصلحه ويعيده الى رونقه . ووضع الاديان عمل شاق قل من يفوز به والاصلاح الدينى لا يقل مشقة عنه . وربما كان ادخال دين جديد ايسر من اصلاح دين قديم . فالديانة المسيحية لم تكلف البشر في قيامها من الدماء اكثر مما كلفتهم في اصلاحها . على أن ما يضيعة رجال الدين في نشره من الدماء يعوضونه بسرعة انتشاره اعتبر ذلك في الفرق بين النصرانية والاسلام في قيامهما . ويقال نحو ذلك في الاصلاح فقد طلبه وسعى فيه غير واحد من رجال النصرانية فلم يتفق منهم الى اصلاح كبير غير لوثر لأن اهل السياسة نصروه . ولا بد من استعداد الاذهان لقبول الاصلاح وتهيئة الاسباب الاخرى . فكم نهض من المصلحين بالسيف فغلبوا على امورهم وذهب سعيهم عبثاً . أما المصلحون بالوعظة الحسنة والتعليم فعملهم بطيء ولكنه راسخ في الاذهان واصبر على كوارث الحدثان - والشيخ محمد عبده واحد منهم

هو وجمال الدين

نشأ الشيخ محمد عبده نير البصيرة حر الضمير وربى في الاسلام وتعلم علومه فشب غيوراً عليه ثم اطلع على علوم الامم الراقية من اهل هذا التمدن ودرس تاريخ الاجتماع ونواميس العمران فرأى الاسلام في حاجة الى نهضة ترفع شأنه وتجمع كلمته . واتفق اجتماعه بالسيد جمال الدين الافغانى فأخذ عنه الفلسفة والمنطق

والحكمة الشرقية وكان جمال الدين غيورا على الاسلام راغبا في جمع كلمته ورفع شأنه فتوافقا في الغاية ولكنهما اختلفا في الوسيلة . لان جمال الدين سعى في ذلك من طريق السياسة فأراد جمع شتات المسلمين في أربعة اقطار العالم تحت ظل دولة اسلامية واحدة وقد بذل في هذا المسعى جهده وانقطع عن العالم من أجله فلم يتخذ زوجة ولا التمس كسبا وانما جعل همه السعى الى تلك الغاية فلم يوفق الى غرضه لأسباب عمرانية طبيعية لا محل لذكرها . وكان الشيخ محمد عبده رفيقه في كثير من مساعيه واطلع على دخائل أموره وعرف أسباب حبوته فعلم أن جمع كلمة المسلمين ورفع شأنهم من طريق السياسة لا ييسر الوصول اليه فسعى فيه من طريق العلم . فجعل همه رفع منار الاسلام وجمع كلمة المسلمين بالتعليم والتهذيب وتقريبهم من أسباب المدنية الحديثة ليستطيعوا مجاراة الأمم الراقية في هذا العصر . ورأى ذلك لا يتأتى الا بتنقية الدين مما اعتوره من الشوائب التي طرأت عليه بتوالي العصور وتغالب الدول واختلاف اغراض أصحابها وأئمتها كما أصاب النصرانية في القرون المتوسطة اذ تمسك الناس بالعرض وتركوا الجوهر واستغرقوا في الاوهام ونبدوا الحقائق . والسبيل الوحيد لمغالبة الاوهام والخرافات انما هو العلم الصحيح على ما بلغ اليه في هذا العهد . وعلم الفقيد رحمه الله أن محور العلوم الاسلامية اليوم مصر ومركز العلم بمصر أو في العالم الاسلامي كافة « الجامع الازهر » فرأى انه اذا أصلح الازهر فقد أصلح المسلمين فسعى جهده في ذلك فاعترضه أناس من أهل المراتب يفضلون بقاء القديم على قدمه واستنصروا العامة عليه وغرسوا في أذهانهم أن المفتي ذاهب بالمسلمين الى مهاوى الضلال والبدع . فلم يهمه قولهم لعلمه ان ذلك نصيب أمثاله من قديم الزمان - على انه لم ينجح في اصلاح الازهر الا قليلا ولكنه وضع

الاساس ولا بد من رجوع الامة الى تأييد هذه النهضة ولو بعد حين فيكون الفضل له في تأسيسها

على ان الجانب الاعظم من عقلاء المسلمين وخاصتهم يرون رأيه في اصلاح حالة الدين ورجاله . وربما سبقه كثيرون منهم الى الشعور بحاجة المسلمين الى ذلك ولا سيما المتخرجين بالعلوم العصرية من الناشئة المصرية ولكنهم لم يجسروا على التصريح بأفكارهم في غير المجتمعات الخصوصية لئلا ينسبهم الناس الى المروق من الدين ، فلما جاهر محمد عبده برأيه وافقوه وصاروا من مريديه ونصروه بالسنتهم وأقلامهم . فحاجة المسلمين الى الاصلاح ليست هي اول من انتبه اليها ولكنها اول من جاهر بها كما ان لوثير المصلح المسيحي ليس اول من انتبه لحاجة النصرانية الى الاصلاح ولكنه اول من جاهد في سبيلها وقد فاز بجهاده لقيام السياسة بنصرته . واما مصلح المسلمين فكانت السياسة ضده وانما حملة على تلك المجاهرة حرية ضميره وجسارته الادبية ومنصبه الرفيع في الافتاء

الاسلام والمنية

فلما صرح الشيخ محمد عبده بحاجة المسلمين الى الاصلاح انقسم المسلمون الى فئتين : فئة ترى بقاء القديم على قدمه وهم حزب المحافظين ، وفئة ترى حل القيود القديمة واطلاق حرية الفكر والرجوع الى الصحيح من قواعد الدين ونبذ ماخالطه من الاعتقادات الدخيلة . وكان رحمه الله زعيم هذه الفئة يناضل عن مبادئها بلسانه وقلمه وبكل جراحة من جوارحه . وكانت مساعيه من هذا القبيل ترمى الى غرضين رئيسيين : الاول تنقية الدين الاسلامي من الشوائب التي طرات عليه ، والثاني تقريب المسلمين من اهل التمدن الحديث ليستفيدوا من ثمار مدنيته علميا وصناعيا وتجاريا وسياسيا . فاهل العصبية الاسلامية يرون هذا التقريب مغائرا لما يرجونه

من استقلال المسلمين بالجامعة السياسية لأن مجازاة أهل التمدن الحديث بأسباب مدنيته وتسهيل الاختلاط بهم يضعف عصبية الاسلام على زعمهم ويبعث على تشتيت عناصره فيستحيل جمعها في ظل دولة واحدة . ولكن الشيخ عبده كان يرى ذلك الاجتماع السياسي مستحيلا في هذه الحال فلم يشأ أن يضيع وقته كما أضاعه أستاذه وصديقه جمال الدين وأن يخسر فائدة تقرب المسلمين من أسباب هذا التمدن فسعى في ذلك بما نشره من فتاويه المتعلقة بالربا والموقوذة ولبس القبعة ونحو ذلك مما يقرب المسلمين من الامم الاخرى ويسهل أسباب التجارة

تنقية الدين

وأما تنقية الدين الاسلامي من الشوائب الطارئة عليه فأساس سعيه فيها انه أطلق لفكره الحرية في تفسير القرآن ولم يتقيد بما قاله القدماء أو وضعوه من القواعد التي يحرم الائمة تبديل شيء منها . فرأى أن يحل نفسه من هذه القيود ويفسر القرآن على ما يوافق روح هذا العصر فيجعل أقواله وآراءه فيه موافقة لقواعد العلم الصحيح المبني على المشاهدة والاختبار ولنواميس العمران على ما بلغ اليه هذا العلم الى الآن مع مطابقتها لاحكام العقل وأصول الدين كما فعل النصارى في تفسير الكتاب المقدس بعد ثبوت مذاهب العلم الجديد . وهو أوعر مسلكا في الاسلام لارتباط الدين بالسياسة فيه . والقرآن أساس الدين والدنيا عندهم فيعلقون على تفسيره أهمية كبرى لأنه مرجع الفقه وغيره من الاحكام الشرعية والسياسية ولذلك رأى أهل السنة تقييده بأقوال الائمة الاربعة وخالفهم الشيعة باستبقاء باب الاجتهاد مفتوحا فلا يرون بأسا في العدول عن تفسير الى آخر بشروط يشترطونها في مفسريهم وهم يعرفون عندهم بالائمة المجتهدين

التفسير

وقد توالى على تفسير القرآن أحوال تختلف باختلاف العصور من الاسلام الى الآن ترجع الى اربعة عصور :
الاول العصر الشفاهى : وهو ينحصر فى ايام النبى واصحابه فقد كانوا عند ظهور الدعوة كلما تليت عليهم سورة او آية فهموها وأدركوا معانيها بمفرداتها وتراكيبها لأنها بلسانهم وعلى أساليب بلاغتهم ولأن أكثرها قيلت فى أحوال كانت القرائن تسهل فهمها وإذا أشكل عليهم شيء منها سألوا النبى فيفسره لهم . وكان التفسير مختصرا بسيطا لسداجة الدولة الاسلامية يومئذ

ثانيا العصر التقليدى : ونريد به عصر التابعين او حواليه وكانت الدولة الاسلامية قد اخذت فى النمو والارتقاء فاحتاجوا الى التوسع فى التفسير وكان أكثرهم أميين فاذا أعجزهم تفسير بعض الآيات سألوا عنها من أسلم من أهل الكتاب ولاسيما اليهود المقيمين فى اليمن وكانوا قد أسلموا وظلوا على ماكان عندهم من التقاليد المتناقلة شفاهيا أو كتابة مما لاتعلق له بالاحكام الشرعية

ثالثا العصر الفلسفى المنطقى : ونريد به تدوين التفسير وضبطه بالقياس الفلسفى والحكم المنطقى بعد أن اختلط المسلمون بأهل العلم القديم فى الشام والعراق وفارس واطلعوا على علوم القدماء وفلسفة اليونان والهند ونقلوا ذلك الى لسانهم واستخرجوا منه علم الكلام . وكان العرب قد وضعوا العلوم اللسانية وضبطوا معانى الالفاظ وأساليب التعبير فنظروا فى التفاسير السابقة نظر الناقد ومحصولها وضبطوها بالقياس العقلى بالاعتماد على قواعد المنطق بما تقتضيه الفلسفة اليونانية القديمة على نحو ما فعله لاهوتيو النصارى قبل ذلك

رابعا العصر العلمى : الذى نحن فيه وهو عصر الفلسفة

الجديدة المبنية على العلم الطبيعي الثابت بالمشاهدة والاختبار ويمتاز عن العصر السابق بإطلاق حرية الفكر من قيود التقليد القديمة التي أغلت السنة أسلافنا وأقلامهم وأوقفت مجارى التمدن أجيالا متطاولة. فالشيخ عبده رحمه الله أراد أن ينقل التفسير الى روح هذا العصر فيفسر القرآن بما يطابق أحكام العقل ويحل الاسلام من قيود التقليد . فسار في هذا الطريق شوطا بعيدا فألقى على طلبة الازهر خطبا كثيرة في التفسير نشرت في مجلة « المنار » وطبع بعضها على حدة وكان لها تأثير حسن في نفوس العقلاء . ولو مد الله في أجله لأتم هذا العمل ولكنه قضى أسفا خائفا ولسان حاله يردد هذين البيتين وهما :
ولست أبالي أن يقال محمد أبل أو اكتظت عليه المآثم
ولكن ديننا قد أردت صلاحه أحاذر أن تقضى عليه العمائم
على انه خلف جماعة من تلامذته ومريديه أكثرهم من أهل العلم وأرباب الاقلام وفيهم نخبة كتاب المسلمين وشعرانهم في هذا العصر . وأكثرهم مجاهرة بنصرته وإذاعة آرائه صديقا السيد رشيد رضا صاحب « المنار الاسلامي »

والشيخ محمد عبده زعيم نهضة اصلاحية لاخوف منها على الدماء أو الارواح وأكثر نهضات الامم في سبيل اصلاحها لا تخلو من اهراق الدماء ، فهو رجل عظيم يجدر بالمسلمين أن يبكوه وأن يقتفوا آثاره في التوفيق بين الاسلام والمدنية الحاضرة وتنقيته مما ألم به بتوالى الازمان وذلك ميسور لمن أطلق فكره من قيود التقليد واسترشد بما يهديه اليه العقل الصحيح بالاسناد الى العلم الصحيح . على اننا نرجو أن لاتعدم هذه النهضة من يخلف الامام الفقيه في الانتصار لها والعمل بها والله على كل شيء قدير

السيد عبد الرحمن الكواكبي

١٢٦٥ - ١٣٢٠ هـ الموافق ١٨٤٨ - ١٩٠٢ م

العظمة والشهرة صديقتان يغلب أن تتصاحبا فلا تكون احداهما بدون الاخرى . ولكنهما كثيرا ماتفترقان فتكون العظمة بلا شهرة والشهرة بلا عظمة . فتري بين أهل الشهرة الواسعة من اذا لقيتهم وسبرت غورهم رأيتهم كالطبل يدوي صوته الى بعيد وجوفه فارغ . وانهم انما نالوا تلك الشهرة بما طبعوا عليه من الميل الى نشر محامدهم في الصحف فيقرأها الناس ويتحدثوا بها . وقد ينفقون المال ويتحدون أوعر أسباب السعي في هذا السبيل . وتري بينهم من لامحمدة له فينتحل محامد غيره أو تكون له «حبة منها فيجعلها قبة» فاذا نشر ذلك عنه في صحيفة أو نشرة أو كتاب حمله وطاف به في الأهل والأصدقاء يترنم بقراءته عليهم ويتلذذ بما يلقي من آيات الإعجاب وخصوصا في هذه البلاد - بلاد المجاملة التي يزداد فيها المغرور غرورا اذ لا يسمع من الناس الا اطراء واعجابا ولو كانت حاله تدعو الى التقرير والتعنيف - ويعدون ذلك من آداب الحديث

فما كل شهر عظيم ولا كل عظيم شهر فكم بين ظهرائنا من رجال توفرت فيهم شروط العظمة ولو رافقتها الأسباب لاتوا بالأمور العظام . وقد تظهر مواهبهم من خلال أعمالهم وأن ضاقت دائرة العمل . ولكنهم لرغبتهم عن الشهرة لا يعرف أسماؤهم الا القليلون فاذا أصابهم سوء اذاع مريدوهم أخبارهم وتحدثوا بأفضالهم

ومن هذا القبيل المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبي الحلبي



عبد الرحمن الكواكبي

فقد جاء مصر سنة ١٣١٨ هـ وأقام في قلب العاصمة ومع سعة علمه وغزارة مادته لم يسمع بذكره أحد ولا عرفه إلا الاصدقاء والاختصاص . وهناك أناس يقصرون عن ادراك بعض منزلته علما وفضلا ولكنهم لا تبطأ أقدامهم مصر حتى تتناقل الصحف أخبارهم بما ينشرونه فيها من نفعات اقلامهم أو ثمار قرائحهم - وقد لا تكون تلك الثمار شهية - وإنما يعمدون الى نشرها رغبة في الشهرة . فالكواكبي رحمه الله لم يكن من أولئك ولكن همسه كان منصرفا الى خدمة الوطن ونشر المبادئ الصحيحة فيه بالتأليف والتلقين بعد أن قضى معظم العمر في خدمة الحكومة العثمانية في حلب وقاسى امورا صعبا من وشايات ذوى الاغراض فلم يلق تربة تصلح لفرس مبادئه فجاء مصر ونشر بعض كتبه فعاجله الاجل فمضى ومضت معه امانيه وهى شبيهة بأمانى المرحوم السيد جمال الدين الافغانى وقد استهلك في سبيلها كما استهلك ذاك من قبله

نشاته وميوله

آل الكواكبي أسرة قديمة في حلب هاجر اليها اجدادهم منذ أربعة قرون ولهم شهرة واسعة ومقام رفيع في حلب والاستانة . يرجعون بأنسابهم الى السيد ابراهيم الصفوى أحد أمراء أردبيل العظام . ولهم آثار مشهورة منها المدرسة الكواكبية في حلب ونبغ منهم جماعة كبيرة من العلماء ورجال الادارة ومنهم فقيه العلم السيد عبد الرحمن وقد ولد في حلب سنة ١٢٦٥ هـ وأبوه الشيخ احمد الكواكبي أحد مدرسى الجامع الاموى الكبير

تلقى السيد عبد الرحمن مبادئ العلم في بعض المدارس الاهلية ودرس العلوم الشرعية في المدرسة الكواكبية واتقن العربية والتركية وبعض الفارسية ووقف على العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحديثة . وكان ميالا من حدائته الى صناعة القلم فاشتغل في تحرير جريدة «فرات» التى كانت

تصدر في حلب باسم الحكومة وهو في السابعة والعشرين من عمره . حررها خمس سنوات وأنشأ في أثناء ذلك جريدة سماها «الشهباء» واشتغل بخدمة الحكومة فتقلب في عدة مناصب علمية وإدارية وحقوقية وأهل النقص يذكرون فضله في كل واحدة منها كبيرها وصغيرها لأن اقتدار الرجل يظهر في الصفات كما يظهر في الكبائر . وكان حب الإصلاح وحرية القول والفكر باديتين في كل عمل من أعماله . فلم يرق ذلك لبعض أرباب المناصب العليا فوشوا به فتعمدت الحكومة حبسه ثم جردوه من أملاكه . فلم يقلل ذلك شيئا من علو همته فغادر الوطن وطلب بلاد الله فجاء مصر ثم خرج منها سائحا فطاف زنجبار والحبشة وأكثر شطوط شرق آسيا وغربها ثم رجع إلى مصر

رحلته في جزيرة العرب

ومما يذكر له ونأسف لضياع ثماره أنه رجل رحلة لم يسبقه أحد إليها ويندر أن يستطيعها أحد غيره . وذلك أنه أوغل في أواسط جزيرة العرب فأقام على متون الجمال نيفا وثلاثين يوما فقطع صحراء الدهناء في اليمن . ولا ندري ما استطلع من الآثار التاريخية أو الفوائد الاجتماعية فحسب أن يكون ذلك محفوظا في جملة متخلفاته . وتحول من هذه الرحلة إلى الهند فشرقى أفريقيا أيضا وعاد إلى مصر وكان أجله ينتظره فيها

صفاته

كان الكواكبي واسع الصدر طويل الأناة معتدلا في كل شيء وكان عطوفا على الضعفاء حتى سماه الحلبيون «أبا الضعفاء» وجاء في الرائد المصري أنه كان له في بلده مكتب للمحاماة يصرف فيه معظم نهاره لرؤية مصالح الناس ويبحث إلى المحاكم من يأمنهم من أصحابه ليدافعوا عن المظلومين والمستضعفين

وكان واسع الاطلاع في تاريخ المشرق على العموم وتاريخ

الممالك العثمانية على الخصوص وله ولع في علم العمران . والف
كتبا لم ينشر منها الا كتاب «طبائع الاستبداد» وهو فريد في
بابه . وكتاب «أم القرى» ومع تمسكه بالاسلامية والمطالبة
بحقوقها والاستهلاك في سبيل نصرتها فقد كان يعيدا عن
التعصب يستأنس بمجلسه المسلم والمسيحي واليهودي على
السواء لانه كان يرى رابطة الوطن فوق كل رابطة

ومن يقرأ ترجمة الكواكبي والافغانى وغيرهما من رجال هذه
النهضة ويدرس أعمالهم والاحوال المحيطة بهم يعترف بفضلهم
في نصره الحقيقة وتأييد الحق والحرية



قاسم أمين

١٢٨٢ - ١٣٢٦ الموافق ١٨٦٥ - ١٩٠٨ م

كان للمرأة العربية مقام رفيع في التمدن العربي القديم فتعاطت الكتابة وتولت الادارة وعانت سائر أعمال الرجال في الالف الثالث قبل الميلاد اي منذ أكثر من ٤٠٠٠ سنة . وعرفنا دولا عربية في أعالي الحجاز لايتولى الملك فيها الا النساء . ناهيك بما تناقله العرب من أخبار بلقيس صاحبة اليمن والزباء (زينوبيا) صاحبة تدمر . عدا اللواتي اشتهرن في اثناء الجاهلية من العرافات والكواهن ولايتولى الكهانة الا الممتازون بالعقل والتدبير بعد أن ينالوا المقام الرفيع ويحرزوا العلم الواسع . ويقال بالاجمال أن المرأة في الجاهلية كان لها شأن وارادة وانفة ورأى وحزم . ونبغ غير واحدة منهن قبيل الاسلام وفي أوائله في السياسة والحرب والادب والشعر والتجارة والصناعة على اثر ما حصل من النهضة في النفوس والعقول يومئذفاشتهر جماعة منهن بمناقب رفيعة تضرب بها الامثال . وممن اشتهرن بالحزم والرأى خديجة بنت خويلد زوج النبي واسماء بنت أبى بكر وسكينة بنت الحسين وغيرهن (١)

ظلت المرأة العربية على انفتها وعزة نفسها وسمو منزلتها في أيام الراشدين وزاد توسعها في طلب المعرفة اذ اتسع المجال للعقول والمواهب فنبغت غير واحدة بالشعر والادب وأنت بعضهن أعمالا يعجز عنها كبار الرجال . فلما افضت

(١) ترى تفصيل ذلك في الجزء الخامس من تاريخ التمدن الاسلامى

الدولة الى بنى أمية في اواسط القرن الاول للهجرة أصاب المرأة العربية صدمة قوية غيرت كثيرا من طبائعها لتكاثر الجوارى والفلماني في دور الامراء وانغماس بعض الخلفاء في الترف والقصف وانتشار الفناء والمسكر وتكاثر المخنثين في المدن وتوسطهم بين الرجال والنساء بالباطل

ولما استبحر عمران المسلمون في العصر العباسي زادوا انغماسا في القصف واللهو والخلاعة وفسدت النية بين الرجل وامراته وهو صاحب الذنب لأنه بدد شعائره وأمياله بين عدة نساء فقلت ثقة امراته به . ولم ينضج التمدن في ذلك العصر حتى تنوسيت المرأة العربية وذهبت حريرتها وغيرتها وانحطت نفسها وذهبت انفتها واستقلال فكرها . فاحتقرها الرجل وساء الظن بها وصار يعاشرها على غل وسوء رأى يقفل عليها الابواب والنوافذ . وأصبح الطعن في طباعها وسوء سريرتها شائعا على السنة الناس حتى الفوا فيها الروايات والتقصاص ونظموا بها الشعر وتفننوا في وضع الجمل الحكيمة والعبارات البليغة في تحذير الناس من المرأة وعدم الوثوق بها . هذه قصة « ألف ليلة وليلة » تمثل حال المرأة في العصور الاسلامية الوسطى بعد شيوع التسري وانغماس المسلمين في الترف .
وأما الاشعار فاليك ما قاله أبو العلاء المعري :

إذا بلغ الوليد لديك عشرا	فلا يدخل على الحرم الوليد
وان خالفتني وأضعت نصحي	فأنت وان رزقت حجا بليد
الا ان النساء حبال غي	بهن يضيع الشرف التليد

وأصبح الكاتب اذا اراد تعزية صديق على فقد بنت له قال ما قاله أبو بكر الخوارزمي اذ كتب الى رئيس بهراه يعزيه ببنته وهو قوله :

« ولولا مذكركه من سترها . ووقفت عليه من غرائب امرها . لكنت الى التهئة اقرب من التعزية . فان ستر العورات من الحسنات . ودفن البنات من المكرمات . ونحن



قاسم امین

في زمان اذا قدم احدنا فيه الحرمة . فقد استكمل النعمة .
واذا زف كريمة الى القبر . فقد بلغ امنيته من الصهر .
قال الشاعر :

ولم ار نعمة شملت كريما كنعمة عورة سسترت بقبر
وقال آخر :

تهوى حياتي واهوى موتها شفقاً والموت اكرم نزال على الحرم
وقال آخر :

وددت بنيتي وودت اني وضعت بنيتي في لحد قبر
وقال آخر :

ومن غاية المجد والمكرمات بقاء البنين وموت البنات
وقال آخر :

سمينها اذ ولدت تموت والقبر صهر ضامن وبيت
هذا مثال من آراء ادباء المسلمين وشعرائهم في المرأة بين
القرنين الرابع والخامس للهجرة وقد زادت حطة وصغاراً في
الاجيال الاسلامية الوسطى تبعاً للتقهقر العام وبلغت غاية ذلك
في القرون الاخيرة قبل النهضة وقد تساوت في ذلك الانحطاط
المرأة المسلمة وغير المسلمة من نساء الشرق الاسلامي على
الاجمال والناس سكوت . لان القرائع جامدة والنفوس ميتة
بما تولى الناس من فساد الاحكام وتفشى الجهل

فلما اخذ القوم بأطراف التمدن الحديث واستنارت العقول
بالعلم انتبه العقلاء الى المرأة وعمدوا الى النظر في تحسين حالها
ورفع شأنها لعلمهم ان الامة يتوقف اصلاحها على اصلاح
المرأة . فطفقوا يتهامون في ذلك تهيباً من مقاومة تيار
العامة الذين يعدون التضيق على المرأة من حقوق الرجل
ثم اخذ بعضهم يتظاهرون بنصرتها وانشئت المدارس
لتعليمها وظهر القائلون بوجوب اصلاحها وليس بينهم من
تصدى للمجاهرة بذلك على الملأ بالكتابة والخطابة لان الشجاعة
الادبية كانت قليلة بيننا . واسبق المسلمين الى طلب الافراج

عن المرأة في هذا العصر الاتراك في الاستانة لكثرة اختلاطهم
بالاجانب وسبقهم في الاطلاع على أسباب التمدن الحديث .
ولذلك كان كتابهم أسبق الى المجاهرة بوجوب رفع الحجاب
وأول من فعل ذلك من العرب هناك الشيخ أحمد فارس
صاحب الجوائب

أما في مصر فما زال العقلاء يتهامون في هذا الموضوع
وفي غيره مما يشعرون بحاجتهم اليه من الاصلاح الاجتماعى
أو الدينى حتى صرح الشيخ محمد عبده بأرائه فلاقى ما لاقاه
من المعارضة والنقمة وكانت وجهته الاصلاح الاسلامى على
العموم بحل قيود التقاليد وتحكيم العقل في التفسير والتأويل
الى ما فيه ترقية شؤون المسلمين . فكثرت مريدوه والمؤمنون
على أقواله وان قل المجاهررون بذلك على المنابر أو في
الصحف . ومن أولئك القليلون فقيد الامس قاسم بك امين
فانه أخذ على عاتقه القيام بأهم أسباب الاصلاح المطلوب
نعنى تحرير المرأة . تصدى لذلك بشجاعة يندر مثلها

الشجاعة الادبية

الشجاعة الادبية أن يقول الانسان اعتقاده ولو كان فيه
مايسىء الكبراء أو يهيج عليه العامة مما يؤول الى الخطر على
حياته أو مصلحته . وأصحاب هذه المنقبة قليلون ولاسيما
في الشرق بعد ماتوالى على أهله من أصناف الذل والخسف .
وأما في أبان تمدنه فقد اشتهر من رجاله جماعة تضرب
الامثال بشجاعتهم الادبية لسيادة العدل ونزوع ولاية الامور
الى نصرة الحق والضرب على ايدى الظالمين . فلم يكن الناس
يخافون أن يقولوا مايعتقدون حتى كان الرجل من العمامة
ربما انتقد الخليفة أو الامير في وجهه لا يخشى بأسا وقد تعود
المسلمون ذلك من زمن الراشدين . فلما افضت الدولة الى
بنى أمية وعمدوا الى الدهاء والشدة في تأييد سلطانهم
أمسكوا على الناس حريرتهم . ومع ذلك فقد نبغ غير واحد

بذلوا حياتهم في سبيل شجاعتهم كما أصاب أبا ذر الغفاري
وحجر بن عدي الكندي وسعيد بن جبير وغيرهم . ولا
تقتصر تلك الشجاعة على المسائل السياسية أو الدينية بل
هي لازمة في العلم والادب فقد عرض «غاليليو» حياته للخطر
لمخالفة الأولين في قولهم عن ثبوت الأرض

والإنسان من فطرته حر الفكر بذلك على ذلك ما يبدو في
كلام الأطفال من الصراحة والحرية ولكن تربيته على الخوف
والحذر وتضييق الفكر منذ الصغر بالخرافات والأوهام تقيدان
العقل حتى يعجز صاحبه عن التفكير إلا على القالب الذي
صب عقله فيه . فعلى طالب الإصلاح قبل أن يحل لسانه
من خوف العقاب أن يحل فكره من قيود التقليد . هذه هي
الخطوة الأولى نحو الشجاعة الأدبية . وجمهور العامة مقيدو
الفكر لا تتمشى أفكارهم إلا على الخطة التي رسمتها عاداتهم
فتبدو آراؤهم مسبوكة في القوالب التي اقتضتها تربيتهم أو
معتقداتهم . فقبل أن نطالبهم بحرية القول أو الشجاعة
الأدبية يجب علينا أن نعلمهم « حرية الفكر » أي أن نجعلهم
ينظرون فيما يعرض لهم من المسائل بعين العقل لابعين الغرض
وأن يبحثوا عن الحقيقة المجردة بقطع النظر عما غرس في
أذهانهم مما يخالفها فيحكموا عقولهم وليس عاداتهم ومعتقداتهم
ذلك ما يعبرون عنه باستقلال الفكر

فمتى أطلق الرجل فكره من قيود الغرض أو التقليد بقى
عليه أن يصرح بما يرشده إليه عقله إذ قد يكون في تصريحه
ما يسوء سواه أو يعود عليه بالضرر فيمسك عنه خوفا أو
مسايرة فيسكت . وقد يتمادى في جر المنفعة لنفسه فيقول
عكس ما يعتقده التماسا لرضى الآخرين ونرى أمثلة من ذلك
شائعة بيننا لهذا العهد

فالناس من هذا القبيل ثلاث طوائف : طائفة غلبت عليها الأوهام
وقيدتها التقاليد فلا تنظر في الأمور إلا بعين الغرض وبما
تقتضيه تلك القيود فلا يلام أصحابها إلا على الجهل . وطائفة

حلت أفكارها من تلك القيود ونظرت في الأمور بعين العقل
فظهر لأصحابها في شؤون العامة خلل يقتضى اصلاحا فمنهم
من يسكت عن ابداء رايه خوفا من غضب الجمهور أو مراعاة
لرئيس أو صديق - وهو جبن وضعف . ومنهم من لا يكتفى
بالسكوت عن الحق بل يجارى تيار الجهلاء فيقول عكس ما يعتقد
- وهو النفاق والرياء . ومنهم من يقول ما يعتقد به بشجاعة
وصراحة لا يبالي بما قد يلحقه بسبب ذلك من الضرر - وهى
الشجاعة الادبية واصحابها هم رجال الفضل على المجتمع
الانسانى ومنهم كبار المصلحين والشارعين . وليس المصلح
أو الشارع الا رجلا دعا الناس الى غير ما افوه أو تعودوه
من الاصلاح الدينى أو الاجتماعى وضحى بنفسه أو مصلحته
في هذا السبيل - وصاحب الترجمة من أولئك المصلحين

ترجمة حياته

كان أبوه أمين بك ابن أمير من أمراء الاكراد أخذ رهينة في
الاستانة على اثر خلاف وقع بين الدولة العثمانية والاكرد . ثم
جاء الى مصر على عهد اسماعيل باشا وانتظم في الجيش
المصرى ورقى فيه الى رتبة أميرالاي وتزوج بكريمة أحمد بك
خطاب أخى ابراهيم باشا خطاب فولدت له اولادا اكبرهم
قاسم صاحب الترجمة

وليس في ترجمة قاسم أمين مانراه في تراجم رجال الحرب
أو السياسة من الحوادث العديدة فقد ربي كما يربى أمثاله
من أولاد الوجهاء وتثقف في مدارس الحكومة المصرية وكان
ممتازا من صغره بالذكاء وحدة الذهن ولما أكمل دروسه كان
في جملة الذين اختارتهم الحكومة للارسال الى أوربا يتعلمون
على نفقتها على جارى العادة في ذلك الحين فدرس الحقوق في
فرنسا وعاد الى مصر سنة ١٨٨٥ فتعين وكيلا للنائب العام
في محكمة مصر المختلطة وما زال يرتقى حتى صار مستشارا
في الاستئناف وكان في كل أعماله مثال الأمانة والنشاط

واستقلال الفكر حتى توفاه الله بالسكتة في ٢١ ابريل عام ١٩٠٩ وهو في الثالثة والاربعين من عمره

صفاته وأعماله

كان رحمه الله ربع القامة أسمر اللون كثير التفكير قليل الكلام . وكان حر الفكر صادق اللهجة وقد زاده التبجر في القوانين والنظر في أقوال الفلاسفة الاجتماعيين استقلالاً في الفكر وصراحة في القول لأن القضاء يعود صاحبه التمسك بالحق واجلال قدر الحقيقة ، وممارسة القضاة الاحكام وتعودهم اذعان الناس لاقوالهم بلا مراجعة يزيدهم جرأة لابداء آرائهم في كل مسألة تعرض عليهم ولذلك رأيت المحاباة والرياء نادرين فيهم

وكان كبير النفس شديد الحرص على كرامتها ولذلك رايناه محبا لأمته راغبا في رفع منزلتها لأن حب الامة من حب الذات ولا يحب امته الا الذي يحب كرامة نفسه ومن يتغالى في خدمة أمته فانما يفعل ذلك حبا بنفسه

واطلع قاسم على احوال الامم الراقية في اثناء اقامته بأوربا فتمنى أن تكون أمته مثلها فنظر في أسباب الرقي فرآها كثيرة لايمكن تناولها دفعة واحدة ولايتيسر تناول شيء منها قبل اصلاح العائلة لأن الامة تكون كما تكون العائلة والعائلة تكون كما تريد المرأة فوجه عنايته الى اصلاح المرأة المسلمة وليس هو أول من رأى ذلك أو فكر فيه كما قلنا ولكنه كان حازما مقداما لا يكتفى بالقول والتذمر أو الاستسلام على عادة أكثر المفكرين بيننا ومنهم طائفة لا يقلون تعقلا وسدادا عن المفكرين في العالم المتمدن ولكنهم يقولون ولا يفعلون وهي آفة المشارقة . أما قاسم أمين فكان فعلا اذا اقتنع بصواب فكر أخرجه الى حيز العمل . فلما عرف الطريق المؤدى الى اصلاح امته بادر الى مباشرته وهو يعلم مايعتور مشروعه من العقبات وما سيلقاه من مقاومة تيار الراى العام .

لأن اصلاح المرأة يقتضى منحها الحرية ويتناول تقبيح الحجاب والنهى عن الطلاق وتعدد الزوجات مما يعده العامة من قبيل العقائد الدينية وهو ما لم يبحه الدين الا لضرورة فاضطر أن يبين ذلك فى أثناء بحثه . وبعد اعمال الفكرة ألف كتابه « تحرير المرأة » واسمه ينم على منزلة المرأة المسلمة فى اعتباره فهو يعدها مستعبدة وقد أخذ على نفسه أن يحررها . وعلم أن الناس سيكبرون قوله وينكرون عليه مشروعه - حتى المرأة لأنها ألفت الذل وتعودت أن تعتبر نفسها من أدوات المنزل . فلم يكن يتوقع أن يرى ثمرة سعيه فى حياته فرضى أن يضع الاساس لسواه فصدر كتابه المشار اليه بقوله :

« وغاية ما أريد هو أن أستلفت الذهن الى موضوع قل المفكرون فيه لا أن أضع كتابا يوفى الكلام فى شأن المرأة ومكانتها من الوجود الانسانى . وقد يوضع مثل هذا الكتاب بعد سنين متى نبتت هذه البذرة الصغيرة ونما نباتها فى اذهان أولادنا وظهرت ثمراتها وعملوا على اقتطافها والانتفاع بها » ثم بين حاجة المرأة المصرية أو المسلمة الى اصلاح موجهها كلامه الى الخاصة والعلاء فأورد فصلا فى « أن حال المرأة فى الهيئة الاجتماعية يتبع حال الآداب فى الامة » لا يقرأه قارئ الا توسم من خلال سطورہ الحماسة ونصرة الحقيقة وصدق اللهجة . فقد افتتح كلامه بقوله :

« انى ادعو كل محب للحقيقة أن يبحث معى فى حالة النساء المصريات وأنا على يقين انه يصل وحده الى النتيجة التى وصلت اليها وهى ضرورة اصلاح فيها . هذه الحقيقة التى أنشرها اليوم شغلت فكرى مدة طويلة كنت فى خلالها أقلبها وأمتحنها وأحللها حتى اذا تجردت عن كل ما كان يختلط بها من الخطأ استولت على مكان عظيم من موضوع الفكر منى وزاحمت غيرها وتغلبت عليه وصارت تشغلنى بورودها وتنبهنى الى مزاياها وتذكرنى بالحاجة اليها فرأيت ألا مناص من ابرازها من مكان الفكر الى فضاء الدعوة والذكر

ثم اخذ يبحث في علاقة المرأة بالامة ويورد الادلة والبراهين التاريخية والاجتماعية ويستنهض الهمم ويستحث القرائح على العمل بعبارات ملؤها الحماسة والاخلاص قال :

« ولا يركن الى حب السكينة الا اقوام على شاكلتنا . فقد أهملنا خدمة عقولنا حتى أصبحت كالارض البائرة التي لا يصلح فيها نبات . وحتى مال بنا الكسل الى معاداة كل فكر صالح مما يعده اهل الوقت حديثا غير مألوف سواء كان من السنن الصالحة الاولى او قضت به المصالح في الازمنة » وكثيرا مايكتفى الكسول وضعيف القوى في الجدل بأن يقذف بكلمة باطلة على حق ظاهر يريد أن يدفعه فيقول : تلك بدعة في الاسلام . وما يرمى بهذه الكلمة الا حبا في التخلص من مشقة الفهم أو الخروج من عناء العمل في البحث أو الاجراء . كأن الله خلق المسلمين من طينة خاصة بهم وأقالهم من أحكام النواميس الطبيعية التي يخضع لسلطانها النوع الانساني وسائر المخلوقات الحية

« سيقول قوم ان ما انشره اليوم بدعة . فأقول نعم اني اتيت ببدعة ولكنها ليست في الاسلام بل في العوائد وطرق المعاملة التي يحمد طلب الكمال فيها »

وافاض في بسط الموضوع وتأيدته فأفرد فصلا لتربية المرأة وهو يعتقد انها مساوية للرجل لا تختلف عنه الا بما يستدعيه اختلافهما في الصنف . وان تعليمها العلوم الطبيعية والعقلية والادبية يساعدها على القيام بواجباتها المنزلية وترقية نفوس ابنائها . وقسم الكلام في التربية الى التربية بالنسبة الى الوظيفة الاجتماعية وبالنسبة الى الوظيفة العائلية . ثم تكلم في الحجاب - وكان قد ألف كتابا بالفرنسية قبل « تحرير المرأة » رد به على كتاب الدوك داركور الذي طعن فيه على المصريين وقبح أخلاقهم وعاداتهم واختصر قاسم في دفاعه عن الحجاب هناك فأفاض هنا في حقيقة الحجاب من الوجهة الدينية ومن الوجهة الاجتماعية واستأنف الكلام في « المرأة

والامة « وبين ارتباطهما في فصل طويل

وختم كلامه بفصل في « العائلة » وتوسع في الكلام على الزواج وشروطه وبين ان الشريعة الاسلامية تأمر بحسن المعاملة وتنهى عن تعدد الزوجات وتقبح الطلاق مسندا أقواله الى القرآن والحديث والقواعد الاجتماعية والاحكام العقلية . وفي كل فقرة دليل على صراحة فكره وصدق لهجته وتفانيه في خدمة أمته . ومع ذلك فلم يكد يظهر كتابه وتتناقله الايدي حتى تصدى لتخطئته أقوام جاهروا بالسخط على صاحبه بين منتقد وهازيء اما تمسكا بالقديم أو مجاراة لاحساس العامة لارتباط ذلك بمصالحهم وطرق معيشتهم . وفيهم من فعل ذلك عن اعتقاد خالص ولكن بعضهم تجاوز حد الانتقاد الى الاستهزاء والقول الهراء فاتهمه بعضهم بالمروق من الدين وآخرون بالخروج عن الآداب وزعم غيرهم انه يرمى الى قلب الهيئة الاجتماعية المصرية وممالة الانجليز على ضياع البلاد اما هو فأغضى عن ذلك كله ورجع الى الموضوع فزاده بسطا بكتاب آخر سماه « المرأة الجديدة » تكلم فيه عن « المرأة في حكم التاريخ » من أقدم أزمنته الى الآن في الامم القديمة والحديثة تأييدا لرايه في وجوب تحريرها ورفع شأنها وفي « الواجب على المرأة لنفسها » وفصول في « الواجب على المرأة لعائلتها » و « التربية والحجاب »

ولم يكتف بطلب تحرير المرأة لكنه وضع لحريتها حدودا وبين مايجب عليها وما يحق لها . ووضع للطلاق نظاما جعله نموذجا تنسج الحكومة على منواله اذا شاءت تحرير المرأة واعطاءها حقها الشرعى والمدنى . فقيد ارادة الرجل في الطلاق بحكم القاضى او المأذون بعد أن يرشد الزوج الى ما جاء في الكتاب والسنة من كره الطلاق عند الله وينصحه وبين له تبعة عمله واذا أبى الاصغاء وسط حكما من أهله وحكما من أهلها للاصلاح بينهما فاذا لم يفلح في ذلك كله أذن بالطلاق . ولا يخفى ما في ذلك من تدارك الاضرار التى تصيب

العائلات بتسرع البعض في تنفيذ طلب الطلاق وقد يكون طلبه عن غضب مؤقت فاذا اثناب اليه رشده ندم على ما فرط منه ظهرت كتابات قاسم امين في هذا الشأن من تسع سنوات فشغلت الالسنه والاقلام عاما او عامين تنبعت فيهما العقول وثارت الخواطر وقام الناس وقعدوا . وقد لاقى من العقلاء اعجابا كثيرا فنصره بعضهم بالسسنتهم واقلامهم وسكك الآخرون مجارة للعامة ونصرائهم . واكثر مجاهرة في نصرته واخذوا بيده زميلنا ابراهيم بك رمزي فانه انشأ يومئذ مجلة سماها « المرأة في الاسلام » جعلها وقفا على هذا المشروع ظهرت سنة ثم احتجبت ثم سكك الناس لاعن اهمال او اغفال ولكنها فترة الحضانة ريشما تتكيف عقول الامة لقبول تلك الآراء ، كالتلقيح بالجواهر النافعة فانه يحدث عند دخوله البدن تهيجا وقد يولد صديدا ثم يسكن في الظاهر ويعمل عمله رويدا رويدا . وقد اخذت نتائج ذلك السعى تظهر برغبة الناس في تعليم بناتهم وانشاء المدارس لهذه الغاية . وهذا من أدلة تسرب فكرة قاسم امين بالتدريج

ستتوالى الاجيال وتمر السنون قبل أن تتحرر المرأة المسلمة لكنها ستتحرر وترتقى وتتولى الاعمال الهامة وترفع شأن العائلة كما كانت سالفاتها في جزيرة العرب منذ آلاف من السنين فاذا بلغت الى ذلك الرقى تذكر انه كان صاحب الفضل عليها ويعظم ذكره فيبقى اسمه منقوشا بحروف مز نور على تاريخ الاجتماع الشرقى في التمدن الحديث

أعماله في غير تحرير المرأة

قد تمر القرون والناس على ماساقتهم اليه الفطرة في طلب المعاش لا يفقهون معنى الحياة ولا الاجتماع حتى تتمخض الطبيعة فتلد من أبنائها افرادا ينهضون بالامة الى ما يظنون فيه خيرها . هؤلاء هم اقطاب العالم ودعائم الهيئنة الاجتماعية فمنهم من يرى ثمرة سعيه وينال الفخر بحياته

ومنهم من يراها خلفاؤه ويطوبونه بعد موته

وصاحب الترجمة واحد من هؤلاء لم يجن ثمرة سعيه ولكن معاصريه عرفوا فضله واعترفوا بما طبع عليه من سعة العقل وسداد الرأي والرغبة في خدمة الأمة فعهدوا اليه بأعز المشروعات لديهم نعى انشاء « الجامعة » فولوه رئاسة اللجنة فلم يدخر وسعا في سبيلها الى آخر ساعة من حياته ذكرنا للفقيه فضله في نصرة المرأة لانه اظهر أعماله الاجتماعية ولكنه كان راغبا في سائر سبيل الاصلاح يطلبها من أبوابها القانونية مع تطبيقها على القواعد الاجتماعية الصحيحة لايفريه اطراء ولا يخيفه صياح ولا يستغرب نقمة الناس وتخوفهم من كل جديد . وكان يشير الى ذلك في اثناء اقواله ويحتاط له ويدفعه . وله في الاصلاح على اجماله مقالات كان ينشرها في جريدة « المؤيد » عنوانها « أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ » لم يذكر فيها اسمه وكان لها وقع حسن

وله أقوال مأثورة وجمل يتناقلها الناس عنه ويتخذونها قاعدة أو مثلا نشرتها ادارة الجريدة في كتاب سمته « كلمات لقاسم بك أمين » هو عبارة عن مختارات افكاره او مذكراته وفيه حكم فلسفية اجتماعية وشذرات علمية يجدر بالادباء الاطلاع عليها والتمثل بها وهذه أمثلة منها :

* ان الذي مدحك بما ليس فيك انما هو مخاطب غيرك

* اذا استشارك عدوك فأخلص له النصيحة لانه باستشارتك قد خرج من عداوتك ودخل في مودتك

* تعصب اهل الدين وغرور اهل العلم هما منشأ الخلاف الظاهر بين الدين والعلم . وليس بصحيح انه يوجد بينهما خلاف حقيقى لا في الحال ولا في المستقبل مادام موضوع العلم هو معرفة الحقائق المؤسسة على الاستقرار . فمهما كثرت معارف الانسان لامتلا كل فكر بعد كل اكتشاف

يتحققه العلم يبحث عن اكتشاف آخر وفي نهاية كل مسألة تحلها تظهر مسألة جديدة تطالبه بحلها . الآن وغدا يشتغل عقل الانسان بالعلم أى بمعرفة الحوادث الثابتة ولا يمنعه ذلك من التفكير فى المجهول الذى يحيط بها من كل طرف . هذا المجهول الذى لاقرار له ولا حد لافى الزمان ولا فى المكان هو دائرة اختصاص الدين

* من اختبارى لأرباب الافكار الذين اختلطت بهم يظهر لى ان الحمية عندهم سطحية لاتذكيها نار تتوقد فى القلب . حمية ألفاظ متى انتشرت عادت هباء لاتترك اثرا بعدها

* لا أدري ماهى غاية الكتاب الذين اذا أرادوا التعبير عن اختراع جديد يجهدون أنفسهم فى البحث عن كلمة عربية تقابل الكلمة الاجنبية المصطلح عليها كاستعمالهم مثلا كلمة السيارة بدلا من كلمة الاوتوموبيل . ان كان القصد . تقريب المعنى الى الذهن فالكلمة الاجنبية التى اعتادها الناس تقوم بالوظيفة المطلوبة منها على وجه أتم من الكلمة العربية وان كان قصدهم اثبات ان اللغة العربية لا تحتاج الى اللغات الاخرى فقد كلفوا أنفسهم أمرا مستحيلا اذ لم يوجد ولن توجد لغة مستقلة عن غيرها مكتفية بنفسها

* لاتكمل اخلاق المرء الا اذا استوى عنده مدح الناس وذمهم اياه (انتهت أقواله)

وجملة القول أن قاسم أمين من المصلحين العظام الذين يحفظ التاريخ ذكرهم وتزداد منزلتهم رفعة وفضلهم ظهورا بتوالى الاجيال . وفضله يشمل العالم الاسلامى على الاجمال بنصرته للمرأة المسلمة وله فضل خاص على القطر المصرى بما نشره بين المصريين من النصائح الخاصة بهم . وبما كان له من القدوة الحسنة بين زملائه وأصدقائه وغيرهم . لأنه خدم القضاء ٢٣ سنة كان فيها مثال النزاهة واستقلال الفكر والشجاعة الادبية لايراعى فى الحق صداقة ولا قرابة ولا مقاما

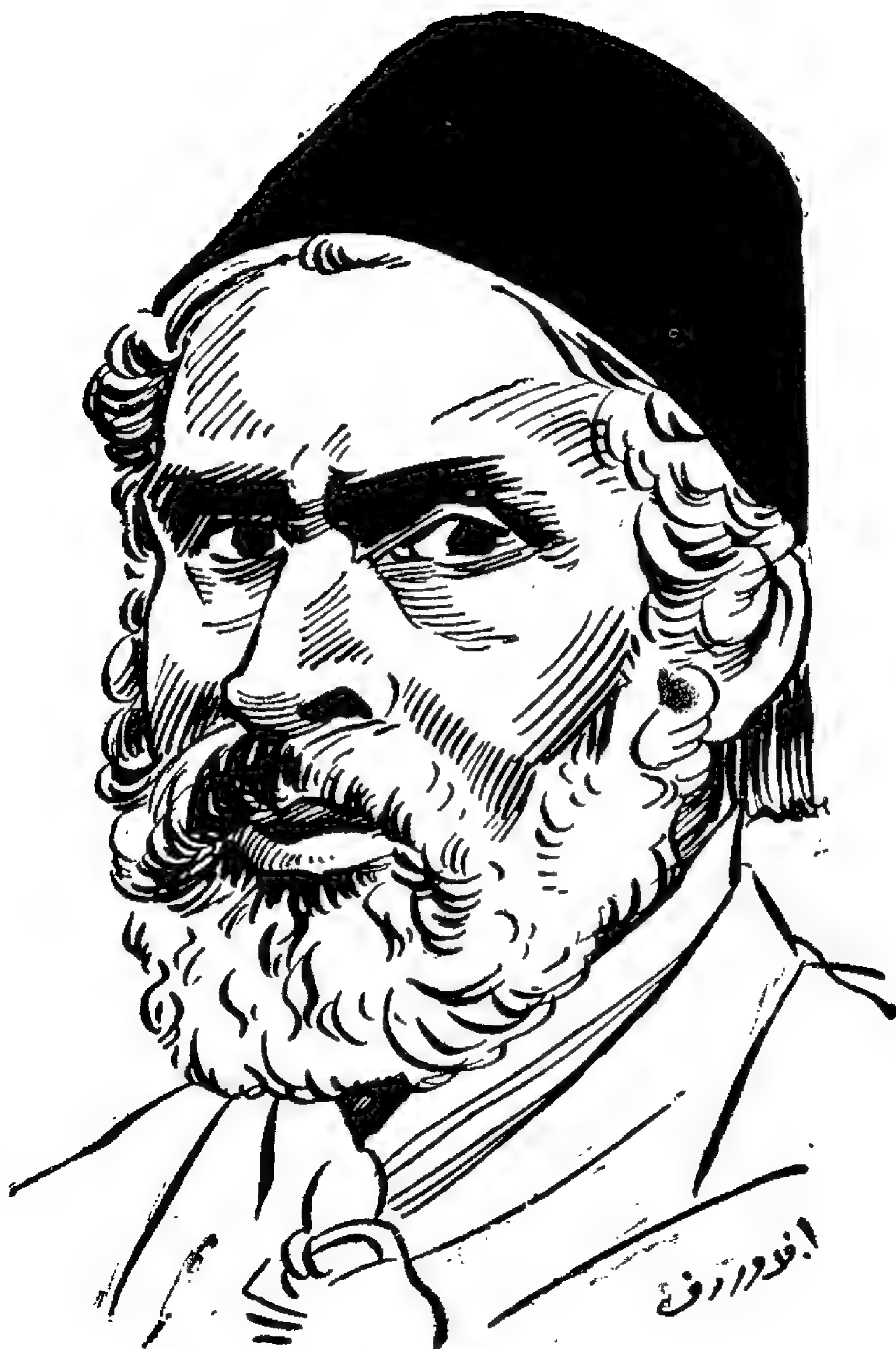
رجال علم و تعاليم

- ١ - محمود باشا الفلكي
- ٢ - رفاعة رافع الطهطاوي
- ٣ - عبد الله باشا فكري
- ٤ - علي باشا مبارك

محمود باشا الفلكي

١٢٢٠ - ١٣٠٢ هـ الموافق ١٨٠٥ - ١٨٨٥ م

ولد رحمه الله في بلدة « الحصه » في مديرية الغربية سنة ١٢٢٠ هـ ولم يكد يتربع حتى توفي والده فاحتضنه أخوه وكانت النجاة تتجلى في وجهه منذ صباه ، فأدخله أخوه مدرسة الاسكندرية سنة ١٢٤٠ هـ فأقبل على الدرس والمطالعة ، واكب على اكتساب العلم بهمة ونشاط فلم نمض عليه بضع سنوات حتى نال رتبة بلوك أمين فانتقل من هذه المدرسة الى غيرها من المدارس الاميرية المصرية وكان حيثما حل اشتهر بالنباهة والذكاء وخصوصا في الفنون الرياضية فلما اتم دروسه عينته الحكومة استاذا للعلوم الرياضية والفلكية في مدرسة المهندسخانة وكانت اذ ذاك برئاسة لامبير بك فترقى فيها الى رتبة صاغقول اغاسي انعم بها عليه محمد علي باشا سنة ١٢٦٢ هـ ولا يخفى ما كان للرتب من المنزلة اذ ذاك فكانت الحكومة لاتنعم على أحد برتبة ما لم يأت عملا عظيما يمتاز به عن اقرانه او يقوم بخدمة ذات بال. فحصل صاحب الترجمة على هذه الرتبة دليل على علو همته ورفع منزلته . على انها كانت داعيا الى تنشيطه فأكب على التبحر في العلوم ، فاخترته الحكومة المصرية سنة ١٨٥١ م وبعثت به الى أوروبا لاتمام علومه الرياضية والفلكية ، فثابر على ذلك تسع سنوات متوالية لازم في اثنائها مرصد باريس، وكان لا يترك فرصة لاستفيد بها شيئا حتى آن الامتحان فقدمه وحاز به قصب السبق فنال الشهادات ، وعاد ظافرا



محمود الفلكي

منصورا في عهد الامير سعيد باشا فأنعم عليه برتبة أميرالاي
وكلفه رسم خريطة للديار المصرية ، فأخذ في مباشرة هذا
العمل وهو أول من باشره من المصريين ، فرسم خريطة
الوجه البحرى رسما مدققا ، يدل على طول باعه ومهارته في
التخطيط والهندسة ، وهى خريطة مشهورة باسمه يرجعون
اليها عند التدقيق ، ولعلها أول مؤلف وضعه ، ثم أردفه
بمؤلفات أخرى بين رسائل وكتب بعضها في العربية وبعضها
في الفرنسية ، وهاك أسماءها ومواضيعها :

(١) الخريطة المتقدم ذكرها وقد أشرنا الى مانالته من المنزلة
الرفيعة

(٢) رسالة في التقاويم الاسرائيلية الاسلامية نشرها سنة
١٨٥٥ م بعد أن قدمها لمجمع العلوم في البلجيك ، وخلاصة
موضوعها تعيين زمن ابتداء تاريخ اليهود وهو عندهم في ٧
أكتوبر سنة ٣٧٦١ قبل الميلاد . ويريدون به اليوم الذى
تمت الخليفة فيه . والنظر في حدود يومهم وهو يتبدىء
عندهم في الساعة السادسة افرنجية مساء ويقسم الى ٢٤
ساعة وتقسم الساعة الى ١٠٨٠ قسما يقسم كل منها الى
٧٢ جزءا . وبحث في أسبوعهم وشهرهم وسنتهم والايام
التي تبدىء بها شهورهم وسنوهم مع تعيين اعيادهم
ومقارنة تاريخهم بتاريخ الميلاد المسيحى

(٣) رسالة في الحالة الحاضرة للمواد المغناطيسية الارضية
بباريس وضواحيها تلاها على المجمع العلمى الفرنسى وقد أعد
موادها في أثناء تجواله في أوربا

(٤) كتاب في التقاويم العربية قبل الاسلام نشره سنة
١٨٥٨ م وهو من أجل كتبه بحث فيه عن يوم ولادة صاحب
الشريعة الاسلامية فوصل الى نتيجة مآلها أنه ولد في ٩
ربيع الاول الموافق ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ للميلاد

ودقق النظر في حال التقويم قبل الاسلام فحكم بأنهم

كانوا يعملون بالحساب القمري الصرف . وبحث فيه أيضا عن عمر النبي عند وفاته فبلغ ستين سنة شمسية و ٢٨ يوما أو ٦٣ سنة قمرية و ٣ أيام . وارتأى ان العرب في جاهليتهم لم يكونوا يعرفون الساعات التي ينقسم اليها اليوم وهو رأى كوسين دى برسفال المؤرخ الفرنسى وشوسن

(٥) رسالة في الكسوف الكلى الذى ظهر بدنقلا في ١٨ يوليو سنة ١٨٦٠ وشاهده هو بنفسه هناك وكانت الرسالة داعيا الى اشتهاره بين علماء الفلك

(٦) رسالة في الاسكندرية القديمة وصف بها تلك المدينة في اقدم أزمانها مستشهدا بما اكتشفه هو من شوارعها ومراسيحها وأبنيتها وأرفق الكتاب بخريطة اوضح بها ذلك

(٧) رسالة في الايضاح عن أعمار الاهرام بحث فيها بحثا دقيقا فتبين له الغرض الاصلى من بنائها مطابقتها للشعرى . ومن رأيه أن الاهرام انما بنيت لغرض فلكى . قال مختار باشا المصرى : « وعلى ذكر هذه الرسالة يجدر بى ايراد عبارة هى فى حد ذاتها صادرة عن أفكار شخصية فقد كنت موجودا مع المرحوم عند شروعه فى أخذ مقاييس الاهرام وموقعها من التناسب الفلكى وأعلم علم اليقين أنه وصل للاطلاع على الغرض من تشييدها اذ وجد تحكيمها فى رسم يقابل بالضبط كوكب الشعرى عند طلوعه ، فكأن الأمر ببنائها أراد أن يجعلها مزولة يعرف بها يوم شم نسيم العلماء ، ولأجل تعريض جثث المدفونين فيها لموافاة صعود الكوكب المذكور فيسبغ عليه من آياته رحمة وغفرانا ، اذ ليس بخاف أن كوكب الشعرى كان عند الاقدمين وخصوصا المصريين من أجل المعبودات حتى عبر عنه بعضهم باله الآلهة »

(٨) رسالة فى التنبؤ عن ارتفاع النيل قبل ارتفاعه

(٩) بحث في ضرورة انشاء مرصد لمراقبة الحوادث الجوية

في مصر

(١٠) رسالة في مقياس مصر ومكيالها وميزانها ومقابلة

ذلك بالاقيسة الفرنسية

(١١) رسالة في مشابهة (كان) الناقصة بالفعل الفرنسي

Avoir

(١٢) رسالة في توحيد موازين العملة في القطر المصري باشر

كتابتها والموت حال بينه وبين اتمامها

وتقلد محمود باشا الفلكي رحمه الله مناصب ذات شأن

لا يتقلدها الا نخبة اهل الفضل . منها انه ناب عن الحكومة

المصرية في المجمع الجغرافي بباريس سنة ١٨٧٥ وفي البندقية

سنة ١٨٨١ وتقلب في مناصب الحكومة حتى بلغ مسند الوزارة

فعهدت اليه نظارة الاشغال العمومية . ثم عهدت اليه نظارة

المعارف العمومية فلم شعثها ونظمها ورتب كثيرا من اقسامها

فزهرت المعارف في عهده وأضاءت البلاد بها . وتولى رئاسة

الجمعية الجغرافية الخديوية مدة . وخلاصة القول انه كان

هماما حازما محبا لوطنه قضى سنى حياته عاملا في خدمته مجاهدا

في سبيل نشر المعارف بين أبنائه حتى توفاه الله فجأة سنة ١٣٠٣ هـ

وهو محاط بالكتب والاوراق أسفا على مؤلفات كان في عزمه

اتمامها فحال المنون بينه وبينها . فشقت وفاته على أهل

الوطن المصري فأبنه العلماء ورثاه الكتاب والشعراء بما دل

على تقديرهم فضله حق قدره

رفاعة بك رافع الطهطاوى

١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ الموافق ١٨٠١ - ١٨٧٣ م

هو السيد رفاعة بك بن بدوى بن على بن محمد ابن على بن رافع ويلحقون نسبهم بمحمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن فاطمة الزهراء

ولد فى طهطا بمديرية جرجا من صعيد مصر ، ويؤخذ مما كتبه عن نفسه فى رحلته التى سيأتى ذكرها أن أجداده كانوا من ذوى اليسار وأخنى الدهر عليهم وقعد بهم كما هو شأنه فى بنى الزمان . فلما ولد المترجم كانت عائلته فى عسر ، فسار به والده الى منشأة النيدة بالقرب من مدينة جرجا وأقام بين قوم كرام يقال لهم بيت أبى قطنة من أهل اليسار والمجد . فأقاما هناك مدة ثم نزحا الى قنا ولبثا بها حتى ترعرع الفلام فأخذ يقرأ القرآن ثم نقل الى فرشوط وأخيرا عاد الى طهطا . وكان قد حفظ القرآن وقرأ كثيرا من المتون المتداولة على أخواله وفيهم جماعة كبيرة من العلماء الأفاضل كالشيخ عبدالصمد الانصارى ، والشيخ أبى الحسن الانصارى ، والشيخ فراج الانصارى ، وغيرهم

ثم توفى والده فجاء رفاعة الى القاهرة وانتظم فى سلك الطلبة بالجامع الأزهر سنة ١٢٢٣ هـ وجاهد فى المطالعة والدرس جهادا حسنا حتى نال من العلم شيئا كثيرا ولم تمض عليه بضع سنين حتى صار من طبقة العلماء الاعلام فى الفقه واللغة والحديث وسائر علوم المعقول . وكان فى جملة من تلقى العلم عليهم من العلماء الشيخ حسن العطار المتوفى

سنة ١٢٥٠ هـ شيخ الجامع الازهر فأحب صاحب الترجمة وميزه عن سائر أقرانه التلامذة وخصه بالتقرب منه لما آتس فيه من الذكاء والاجتهاد فكان يتردد الى منزل الشيخ يأخذ عنه بعض العلوم أو يستشير في أمر أو مشاكل ذلك

وقضى صاحب الترجمة بمجاورة الازهر زهاء ثمانى سنوات وكان كما قدمنا في عسر ، وكانت والدته تنفق عليه مما تبيعه من بقايا حليها ومصاغها . فلما أتم دروسه تعين سنة ١٢٤٠ هـ (١٨٢٤ م) اماما في بعض آليات الجند براتب يساعده على القيام بأود حياته

وكان ذلك في عصر محمد على باشا الذى كان يرسل البعث المصرية الى أوربا لتلقى العلوم الحديثة ليكونوا له أعوانا في فتح المدارس وبث تلك العلوم في أبناء البلاد فأمر بتعيين صاحب الترجمة اماما لهم للوعظ والصلاة . فسارت الارسالية المشار اليها من مصر سنة ١٢٤١ هـ (١٨٢٥ م) . وهى أول ارسالية مصرية الى فرنسا . فتاقت نفس المترجم الى علوم المغرب فعكف على درس اللغة الفرنسية من تلقاء نفسه رغبة منه في تحصيل العلوم بها أو نقله منها الى العربية لعله يتخلص من مهنة الامامة . وكان معظم درسه اللغة بنفسه فلم يتقن التلغظ بها ولكنه تمكن من فهم معانيها فهما جيدا . واخذ يطالع العلوم الحديثة فأتقن التاريخ والجغرافيا وعلوما أخرى ، وكان ميالا الى التأليف والترجمة فترجم وهو في باريس كتابا سماه « قلائد المفاخر في غرائب عوائد الاوائل والاواخر » وغيره . فبلغ محمد على باشا ما أظهره السيد رفاعة من النباهة والرغبة في العلم من تلقاء نفسه فسر به سرورا عظيما واستبشر بطالعه

وفي سنة ١٢٤٧ هـ (١٨٣١ م) عاد رحمه الله الى الديار المصرية بعد أن نال الشهادات الناطقة بدرجة من العلم والفضل فولاه محمد على منصب الترجمة في المدرسة الطبية



رفاعة رافع الطهطاوى

التي كان أنشأها سنة ١٢٤٢ هـ في قرية أبى زعبل قرب القاهرة برئاسة كلوت بك الشهير . وكان متوليا رئاسة الترجمة بها قبله المرحوم يوحنا عنجورى من أبناء سوريا ، وله فيها خدمات جليلة وشهد لصاحب الترجمة بقصب السبق فولوه الترجمة وعمل على خدمة البلاد لاسيما وأن عارف اللغات الأجنبية إذ ذاك كانوا يعدون على الأصابع . ومما يعد له فضلا جزيلا أنه أول من باشر انشاء جريدة عربية في سائر المشرق وهى « الوقائع المصرية » فانها أنشئت بمساعيه ومساعدته سنة ١٢٤٨ هـ ولا تزال الى الآن وهى الجريدة الرسمية المصرية

وفي سنة ١٢٤٩ هـ انتقل من مدرسة أبى زعبل الى مدرسة الطوبجية في طره لترجمة الكتب الهندسية والفنون العسكرية . وفي سنة ١٢٥١ هـ (١٨٣٥ م) افتتح محمد على مدرسة للألسن الأجنبية وعهد بإدارتها الى صاحب الترجمة وسميت عند فتحها مدرسة الترجمة فقام الشيخ رفاعة إذ ذاك حق القيام بإدارة هذه المدرسة واختار لها التلاميذ من مدارس الأرياف بسائر جهات القطر فبلغ عدد تلاميذها في أول الامر خمسين تلميذا ثم زاد حتى صار ٢٥٠ تلميذا ، وكان في أبى زعبل مدرسة تجهيزية للطب فنقلت الى جهات الألبانية فعهدت إدارتها اليه مع مدرسة الألسن ومدارس أخرى فرعية منها مدرسة للفقهاء والشريعة ، وأخرى للمحاسبة ، وأخرى للإدارة والأحكام الأفرنجية

وفي سنة ١٢٥٨ هـ تألف قلم الترجمة من أول فرقة خرجت من مدرسة الألسن وبعد سنة ونصف سنة من تأليفه نال رتبة قائم مقام وكان قد نال مايتقدمها من الرتب تدريجا في أوقات متتابعة وفي سنة ١٢٦٢ هـ نال رتبة أميرالاي فصار يدعى رفاعة بك بدلا من الشيخ رفاعة

وما زال رفاعة بك ناظرا لمدرسة الألسن حتى اغلقت على

عهد الامير عباس باشا الاول فأمر بارساله الى السودان
لنظارة مدرسة الخرطوم وما زال هناك حتى توفي عباس باشا
المشار اليه سنة ١٢٧٠ هـ ، فعاد الى مصر ومثل بين يدي
سعيد باشا فعهد اليه سنة ١٢٨١ وكالة مدرسة الحربية
بجهة الصليبة تحت رئاسة سليمان باشا الفرنساوى وبعد
قليل أنشئت مدرسة الحربية بالقلعة فأحيلت اليه نظارتها مع
نظارة قلم الترجمة ومدرسة المحاسبة والهندسة الملكية
والتفتيش والمعمارية وعند ذلك نال الرتبة الممتازة

وفي سنة ١٢٧٧ هـ أقيمت كل هذه المدارس فبقى رفاعة بك
بغير منصب الى سنة ١٢٨٠ هـ فأعيد الى نظارة قلم الترجمة
وتعين عضوا في قومسيون المدارس وتولى ادارة جريدة
« روضة المدارس » مع مثابرتة على التأليف . وما زال قائما
بهذه المهام حتى توفاه الله سنة ١٢٩٠ هـ بداء النزلة الثانية
وله من العمر ٧٥ سنة . وقد ملأ الديار المصرية من
الترجمين والاساتذة والمهندسين وغيرهم ممن استفادوا من
مؤلفاته وتعاليمه . وقد اطلعنا على كتاب خطى اسمه « حلية
الزمن بمناقب خادم الوطن » تأليف صالح بك مجدى عدد
فيه مناقب صاحب الترجمة وعنه أخذنا معظم ما ذكرناه هنا .
وقد ذكر فيه أيضا عددا كبيرا من الذين أخذوا العلم عنه
ونبغوا واشتهروا وذكر مناصبهم ووظائفهم وأعمالهم مما
لا محل لذكره هنا

صفاته

وكان رحمه الله قصيرا القامة واسع الجبين متناسبا لاعضاء
أسمر اللون حازما مقداما على ذكاء وحدة . وهذا مانهض
به من حضيض العسر الى مراتب المجد والفخر حتى أصبح
ممن يشار اليهم بالبنان ويقتدى بأعمالهم بنو الانسان
وكان فى أوائل حياته الى أن عاد من الديار الافرنجية

يلبس اللباس العربى الخاص من الجبة والعمامة والقفطان كما ترى رسمه فى صدر هذه المقالة ثم بدله باللباس الفرنجى المشهور

مؤلفاته

نختم ترجمة حاله بذكر مؤلفاته الواحد بعد الآخر مع وصفها بقدر الامكان :

(١) خلاصة الابريز والديوان النفيس . وهو رحلته الى فرنسا ذكر فيه ما شاهده من العادات والاخلاق والازياء وآثار التمدن الحديث وكل مايتعلق بذلك وقد حازت من القبول لدى محمد على باشا حتى امر ان تتلى فى قصوره ثم امر بطبعها وتفريقها فى الدواوين وبين الوجهاء والاعيان

(٢) التعريبات الشافية لمريد الجغرافية . وهو مجلد ضخيم ترجمه من الفرنسية الى العربية لتدريس الجغرافية فى المدارس المصرية . وقد طبع غير مرة فى مجلد كبير

(٣) جغرافية ملطبرون . وهو كتاب مؤلف من عدة مجلدات كبيرة يبحث فى الجغرافية بحثا تاريخيا مطولا ترجم منه المؤلف اربعة مجلدات كبيرة طبعت فى مطبعة بولاق . ويظهر من مطالعتها انه ترجمها على عجل والواقع يؤيد ذلك لاننا علمنا انه ترجم مجلدا منها فى ستين يوما سنة ١٢٦٥ هـ

(٤) كتاب قلائد المفاخر فى غريب عوائد الاوائل والاواخر . ترجمه فى باريس وقد تقدم ذكره

(٥) كتاب المرشد الامين فى تربية البنات والبنين . وهو مجلد واحد ألفه للتعليم فى مدرسة البنات

(٦) كتاب التحفة المكتبية فى النحو . ألفه لتعليم قواعد النحو فى المدارس الابتدائية مطبوع طبع حجر

(٧) مواقع الافلاك فى اخبار تليماك . وهو تعريب وقائع تليماك الفرنسية ترجمه يوم كان فى الخرطوم مع بعض التصرف

(٨) مباهج الالباب المصرية في مناهج الالباب العصرية . وهو بحث عن آداب العصر وسياسته وصنائه وعلومه وفنونه ومطبوع بمطبعة بولاق الاميرية

(٩) مختصر معاهد التنصيص . وهو اختصار المعاهد مع بعض الزيادات الى الاصل ولم يطبع

(١٠) المذاهب الاربعة ، وهو بحث في المذاهب الاربعة الفه اثناء رئاسته لمدرسة اللسن

(١١) شرح لامية العرب

(١٢) القانون المدنى الافرنجى . مطبوع

(١٣) كتاب توفيق الجليل وتوثيق بنى اسماعيل وهوتاريخ لمصر طبع ونشر

(١٤) كتاب هندسة ساسير . ترجمه من الفرنسية الى العربية وقد طبع بمطبعة بولاق

(١٥) رسالة فى الطب (لم تطبع)

(١٦) جمال الاجرومية وهو منظومة سهلة فى الاجرومية (مطبوعة)

(١٧) نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز . وهو آخر مؤلفاته طبع فى روضة المدارس بمطبعة المدارس الملكية

وله رحمه الله غير ماتقدم ذكره من المآثر العلمية بين منظومات ورسائل ومقالات شىء كثير لم يطبع . وقد وقفنا على بعضه . وأما خدماته فى التعليم والتهديب فغنيصة عن البيان . ويقال بالاجمال أن رفاعة بك رافع خدم خدمة كبرى فى نشر العلوم الحديثة بنقلها الى اللغة العربية وتسهيل تناول اللغات الاجنبية بمدرسة اللسن وقلم الترجمة وغيرها

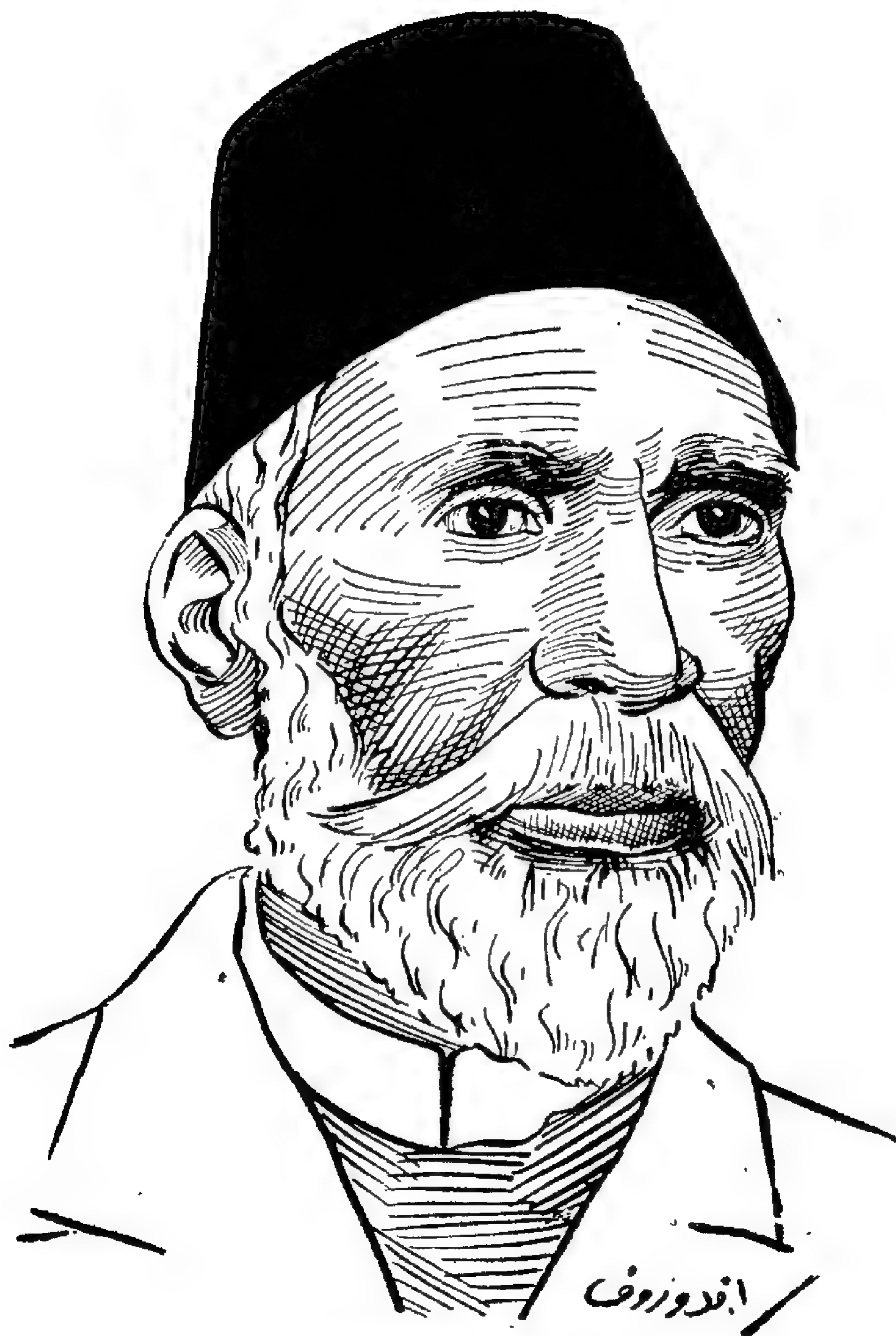
عبد الله باشا فكرى

١٢٥٠ - ١٣٠٧ هـ الموافق ١٨٢٤ - ١٨٨٩ م

هو عبد الله باشا فكرى بن محمد افندى بن الشيخ عبد الله ابن الشيخ محمد وكان الشيخ عبد الله من العلماء المدرسين فى جامع الازهر وكان مالكى المذهب أخذ العلم عن الشيخ عبد العليم الفيومى وغيره . وما زال الشيخ عبد الله مقيما فى مصر حتى قدمت الجنود الفرنسية فى أواخر القرن الثامن عشر وأساءوا معاملة العلماء فرحل الى منية خصيب (المنيا) فأقام بها مدة ثم عاد الى القاهرة وعكف على الاشتغال فى العلم حتى توفى فنشأ ابنه محمد افندى بليغ على مثال أبيه جادا فى طلب العلم

وكانت مصر قد انتقلت الى حكم العائلة المحمدية العلوية وانشئت مدارس العلوم الرياضية والمدرسة الحربية فدخلها وخاض عباب علومها حتى تمكن منها فانتظم فى خدمة الجيش وترقى الى رتبة صاغقول اغاسى وحضر عدة مواقع حربية اهمها حرب المورة ، فعقد فى المورة على والدة المترجم وعاد بها الى الحجاز فوضعت بمكة المشرفة غلاما سماه باسم ابيه عبد الله وهو عبد الله باشا فكرى صاحب الترجمة

ومن غريب الاتفاق ان سنة ولادته وافقت مجموع جمل الآية « قال انى عبد الله آتانى الكتاب » وذلك سنة ١٢٥٠ هـ وقد وافق ذلك نبوغه بالعلم والفضل واشتهاره بسائر فنون الكتابة نثرا ونظما وقد اعجب هو ايضا بهذا الاتفاق فلما شب وتعلم نقش هذه الآية على خاتم له كان يختم به كتبه . ثم عاد محمد



عبد الله باشا فكري

افندى بليغ بولده الى القاهرة ومازال في خدمة الحكومة حتى
نال منصب باشمهندس الشرقية ثم مفتش هندسة الجيزة
والبحيرة وتوفي سنة ١٢٦١

أما صاحب الترجمة فكان عند وفاة والده لم يتجاوز
الحادية عشرة فنشأ في حجر بعض أقارب أبيه وكان قد بدأ
بتعلم القرآن فاته وجوده ثم اشتغل في طلب العلم في الجامع
الازهر وتلقى العلوم المتداولة فيه كاللغة والفقه والحديث
والتفسير والعقائد والمنطق على الشيخ ابراهيم السقا والشيخ
محمد عيش والشيخ حسن البلتاني وغيرهم وكان مع ذلك
يشتغل في تعلم اللغة التركية حتى اتقنها وتعين في القلم التركي
في الديوان الكتخدائي (١٢٦٧ هـ) وهو لا يزال مكبا على طلب
العلم في الازهر يفتنم ساعات الفراغ قبل ذهابه الى الديوان
وبعد رجوعه منه ثم انتقل من الديوان المذكور الى ديوان
المحافظة ثم الى الداخلية بصفة مترجم ثم الحق بالمعية «السنية»
على عهد الامير محمد سعيد باشا وبقي فيها الى ولاية الخديو
اسماعيل باشا سنة ١٢٧٩ هـ فأبقاه في معيته فسافر معه الى
الاستانة عندما أمها لاتمام الرسوم في تقليد الولاية وأداء
الشكر للسلطان وما زال في خدمته يرافقه في أكثر رحلاته
فسافر الى الاستانة مرارا وهو يقوم بمهمة الكتابة تارة مع
الخديو اسماعيل وطورا مع الحرم الخديو وبمهمات أخرى
فنال الرتبة الثانية مع لقب بك سنة ١٢٨٢ هـ

وفي سنة ١٢٨٤ قلده الخديو اسماعيل ملاحظة الدروس
الشرقية وهي العربية والتركية والفارسية بمعية أنجاله وهم
محمد توفيق باشا والخديو والبرنس حسن باشا والبرنس
حسين باشا عم الخديو وغيرهم من أمراء العائلة الخديوية

فقام يباشر أمرهم في التعليم والتعلم والتسدرج في الفضل
والتقدم فكان أحيانا يباشر التعليم بنفسه وأحيانا يقوم
بمراقبة غيره من المعلمين وملاحظة القاء الدروس وتقويم

طريقة التعليم . . فلم يزل على ذلك الى ان ترقى الخديو الى رتبة الوزارة والمشيورية وتوجه الى دار الخلافة العظمى لأداء رسوم الشكر على ذلك للسلطان فصحبه المترجم الى دار السعادة وبقي معه الى ان عاد

وفي سنة ١٢٨٦ نقل الى ديوان المالية فاقام أياما بغير عمل ثم عهد اليه النظر في أمر الكتب التي كانت في ديوان المحافظة على ذمة الحكومة وابداء رايه فيها فلبث مدة يتردد الى ذلك الديوان وينظر في الكتب . ثم رفع تقريراً مفصلاً ضمنه بيانها وما رآه في حالها وذكر فيه ان ابقاءها على حالتها لا يحسن ولا يحفظها ولا يمكن من الانتفاع بها وقال بلزوم جعلها على هيئة ينتفع بها الناس اما بانشاء محل خاص تنقل اليه ويجعل فيه ما فيه من الكفاءة لها من الخزائن وتوضع به على الوضع الموافق واما باحالتها على المدارس لتودع في المكتبة الجارية انشاؤها بمساعي على باشا مبارك ناظرها اذ ذاك على سعة لا تضيق بهذه الكتب وأمثالها وأوضح ان الوجه الثاني اولى وقد حصل ذلك على ما قرره فاستنقذت تلك الكتب النفيسة من زوايا الخمول والاهمال ورتبت ترتيباً حسناً في المكتبة المذكورة وهي الآن في دار الكتب المصرية



وكان المجلس الخصوصي اذ ذاك (وقد صار الآن مجلس الوزراء) مشغلاً في جمع اللوائح والقوانين وتنقيحها وتعديلها فعهد الى صاحب الترجمة بالمساعدة في ذلك فاستلم القوانين واللوائح التركية واخذ في العمل الى سنة ١٢٨٧ هـ

وفي سنة ١٢٨٨ هـ تعين وكيلاً لديوان المكاتب الاهلية والرئيس اذ ذاك على باشا مبارك . وفي سنة ١٢٩٤ هـ نال صاحب الترجمة رتبة المتمايز وبعد سنتين تعين وكيلاً لنظارة المعارف العمومية ونال رتبة ميرمران الرفيعة ثم عهد اليه منصب الكتابة الاولى

بمنصب النواب مع المنصب السابق . وفي سنة ١٢٩٩ هـ (١٨٨١ م) تعين ناظرا للمعارف العمومية وفي رجب من تلك السنة أقيل من منصبه مع سائر زملائه النظار لحوال اقتضتها الثورة العسكرية اذ ذاك وامرها مشهور

ثم كانت الثورة العراقية المشار اليها فلما انقضت واخذت الحكومة في محاكمة زعمائها والقائمين بها كان صاحب الترجمة من جملة المقبوض عليهم وبعد استجوابه لدى لجنة التحقيق ظهرت براءته فأطلق سراحه ولكنهم قطعوا عنه معاشه ، ولم يعيدوه اليه الا بعد جهد جهيد

وفي سنة ١٣٠٢ هـ توجه الى الحجاز لاداء فريضة الحج فلقى من علماء مكة والمدينة وأدبائهما ما يليق بمقامه من الاكرام والاعظام وكتب في ذلك كتابا سماه الرحلة الملكية . وفي السنة التالية شخص لزيارة بيت المقدس والخليل ومعه نجله أمين باشا فكري فلقى من العلماء والعظماء هناك ما يجدر بفضله ثم سارا الى مدينة بيروت الزاهرة لتبديل الهواء واقاما فيها شهرا كان مقامهما فيها منتدى الفضلاء ومشرع الادباء والعلماء ثم ارتحل الى دمشق فلاقى فيها ما لاقاه في بيروت من الاحتفاء وحسن الوفادة ثم عرج الى بعلبك فزار آثارها وسار منها بطريق لبنان الى بيروت فأقام فيها شهرين وعاد الى مصر



وفي سنة ١٣٠٦ انتدبته الحكومة المصرية لرئاسة الوفد العلمى المصرى فى المؤتمر الذى انعقد فى مدينة استوكهلم عاصمة اسوج ونروج وصحبه فى هذه الرحلة ايضا نجله المتقدم ذكره عضوا فى هذا الوفد . وقبل سفره من الاسكندرية احسن اليه الجناب الخديو بالنيشان المجيدى من الدرجة الثانية وقد مر فى وفادته المذكورة على ترستا من أعمال النمسا وفينيسيا (البندقية) وميلانو من أعمال ايطاليا ولوسرن

من أعمال سويسره وباريس فأقام بها أكثر من عشرين يوما تفرج فيها بمشاهدة المدينة وضواحيها وكان وقت المعرض فشاهد ما فيه من عجائب الصنائع وغرائب الفنون ثم برحها الى لندره ومنها الى نوتردام ولاهاي من أعمال هولاندا وليدن من أعمالها ايضا وزار مكتبتها الشهيرة ورأى مطبعتها المعروفة بالمطبوعات الشرقية ثم توجه منها الى كوبنهاجن عاصمة الدنيمارك ومنها الى استوكهلم محل مأموريته فنال من العلماء المجتمعين لهذا المؤتمر باستوكهلم وحرستيانيا مزيد الرعاية وأهداه اوسكار الثانى ملك اسوج ونروج عند اتمام هذه المهمة نيشان (وازه) من الدرجة الاولى ومر في العودة من مأموريته على برلين عاصمة بلاد المانيا وفيينا عاصمة النمسا فلقى بها ما لقيه في العواصم الاخرى من الاحتفاء وقد اخذ بعد عودته الى مصر يجمع المواد ويعد المعدات لتدوين رحلته التى وعد بها عن المهمة وعما رآه في العواصم التى مر بها ولكن منعه من استمرار السير في ذلك مرض السكتة الذى اعتراه في شهر رجب سنة ١٣٠٧ فابقى اتمامها الى ما بعد تمام صحته ولكن عاوده بعد ظهر الخميس في ٧ ذى الحجة وهو عائد من «ابعاديته» بتلحوين وتزايد عليه حتى وافاه الاجل المحتوم في الساعة الثانية عريية من صباح يوم الاحد عاشر الشهر وهو يوم النحر وشيع محمولا على هامات الوقار والتبجيل تودعه المحاجر والقلوب . ونظرا لما كان له من المقام الرفيع لدى الخديو محمد توفيق تعطف بتعزية أهله وأولاده برسالة برقية

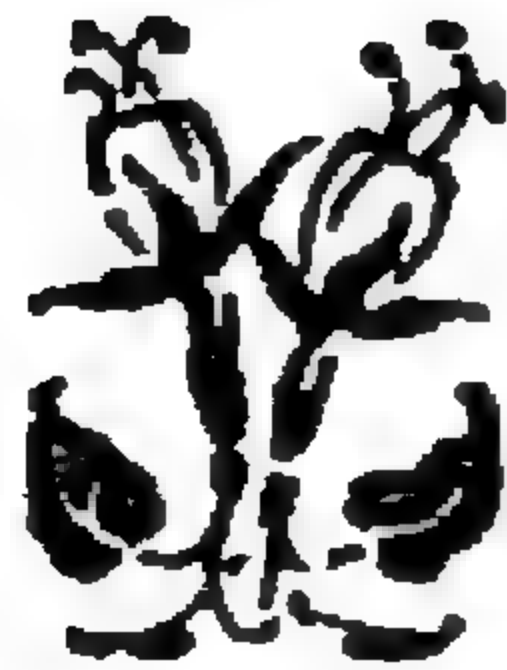


وكان رحمه الله شاعرا مطبوعا وكاتبا فصيحاً وقد نبغ بين الكتبة والشعراء ومصر قليلة الوسائل التعليمية وكان يذهب في انشائه مذهب القرون الوسطى من ابناء هذا اللسان مع ميل الى التسجيع

اما رحلته الى المؤتمر فقد عنى نجله المتقدم ذكره بنشرها

في كتاب سماه « ارشاد الالباء الى محاسن اوربا » في مجلد
ضخم طبع بمصر سنة ١٨٩٢ م وهو جدير بالمطالعة تحقيق
بالاعتبار لما حواه من اوصاف المدن الاوربية وعادات اهلها
واخلاقهم وفيه شيء كثير من نظم المؤلف ونثره مما لم ينشر
في سواه وابحاث علمية ولفوية وادبية

ومن مؤلفاته ايضا المقامة الفكرية في المملكة الباطنية طبعت
في مصر غير مرة ورسالة مطولة الى سلطان باشا يحثه فيها
على نشر العلوم في انحاء الصعيد ونبذة في محاسن آثار
محمد علي باشا والفوائد الفكرية للمكاتب المصرية وله غير ذلك
من المقالات والخطب وله قصائده الرنانة



على باشا مبارك

١٢٣٩ - ١٣١١ هـ الموافق ١٨٢٣ - ١٨٩٣ م

ولد في قرية برنبال الجديدة في مديرية الدقهلية سنة ١٢٣٩ هـ (١٨٢٣ م) واسم والده الشيخ مبارك بن مبارك ابن ابراهيم الروجى . وابتدأ في تعلم القراءة والكتابة على رجل من اهل القرية اعمى ثم نزلت العائلة الى ناحية الحمادين فلم يلب لهم المقام فيها فارتحلوا الى عرب السماعنة بالشرقية ولم يكن عندهم فقهاء فانزلوا والد صاحب الترجمة منزل الاكرام ، وصار مرجعهم اليه في الامور الدينية لانه كان صالحا تقيا متفقا . فاعتنى بتربية ولده بنفسه ثم عهد بتعليمه الى معلم اسمه الشيخ ابو خضر في مكان قرب برنبال لا يذهب الى والده الا كل يوم جمعة فحتم القرآن في سنتين ، ولكنه ترك معلمه لكثرة ضربه له وجعل يقرأ على والده . على ان كثرة اشغال الشيخ مبارك حملت صاحب الترجمة على اللهو واللعب حتى نسي ما كان قد تعلمه . فاشفق والده عليه لئلا يعيش بغير تعليم فأراد اجباره على العود الى معلمه فأبى خوف ضربه فتوسط له اشقاؤه لدى والده ، فسأله عما يريد تعليمه ففضل العدول عن الفقه ورغب في الكتابة لما كان يرى من حسن زى الكتاب وهيبته . وكان لوالده صديق يتعاطى الكتابة في القسم بناحية الاخيرة فعهد اليه في تعليمه ، فأنس على به ولفه حتى اختلط بعائلته فرأى حالته الداخلية غير ما كان يراه منه في الظاهر ، واتفق انه سأل مرة كم يجمع الواحد والواحد فاجابه « اثنين » فضربه بمقلاة البن فشج رأسه

وكان ذلك في محضر من الناس فشق ذلك على على فغادره ،
وسار الى والده يشكوه اليه فنقم عليه والده ففر من البيت
الى المطرية جهة المنزلة ملتجئاً الى خالة له هناك

واتفق انتشار الوباء (الكوليرا) اذ ذاك فأصيب به في الطريق
فحملة بعضهم الى بيته في قرية صان الحجر وعالجه حتى
شفى ، وادعى انه يتيم الاب والام ، ولكن والده وأخاه كانا
ساعين في التفتيش عنه . فلما رأهما في تلك القرية طلب
الفرار ، ولكنهما أمسكاه بعد ذلك وحملاه على العود الى
التعليم ، فسلمه والده الى كاتب آخر فلم يلبث معه الا قليلا
ثم عاد الى القراءة على والده فجعله مساعدا لاحد الكتاب في
القسم ولم يكن يدفع اليه الراتب المعين له وقدره خمسون
قرشا . فاتفق انه أرسل يوما لقبض حاصل بعض القرى
فقبضه وأبقى معه من المقبوض استحقاقه من الراتب وأرسل
الباقى فغضب عليه الكاتب حتى اذا اتفق جمع انفار
العسكرية وشى به الى المنوط به جمعهم فأمسكوه والقوه في
السجن فتوسط له والده امام عزيز مصر اذا ذاك محمد على
باشا فاطلقوا سراحه

ثم سعى له بعضهم في ان يكون كاتباً لدى مأمور زراعة
القطن في ابي كبير فحضر بين يدي المأمور واسمه عنبر افندي
فاذا هو حبشى اللون سمح الوجهه ورأى المشايخ والحكام
وقوفا بين يديه فتأخر حتى انصرفوا . ثم دخل عليه وقبل
يده فخاطبه بكلام رقيق عربى فصيح والتمس خدمته عنده
على ان يدفع اليه ٧٥ قرشا شهريا مع كفاءته من العيش ،
فسر على لذلك ولكنه عجب لحال هذا المأمور المخالفة لسواد
وجهه لاعتقاده ان الحكام لا يكونون الا من الاتراك . وما زال
يتحرى الاسباب التى جعلت ذلك العبد حاكما حتى علم اخيرا
انه معلم في مدرسة قصر العينى وان تلك المدرسة تعلم الخط
والحساب واللغة التركية . فسأل اذا كان يجوز للفلاحين
الانتظام فيها ف قيل له انما يدخلها من ساعدته الوسائط .



علي مبارك

فاتقدت في قلبه نار الغيرة ومال بكليته الى الدخول في تلك المدرسة على بعدها عن مقره وقلة وسائطه فاستأذن رئيسه يوما مدعيا الذهاب الى بيت ابيه فاذن له فغادر البلدة والتقى في قرية بنى عياض بطريقه بتلامذة مدرسة الخانقاه فاراد ان يدخلها لعلمه ان تلامذة قصر العيني انما ينتخبونهم من هذه المدرسة . فاجبره والده ان لا يفعل واختطفه قهرا وحمله الى بيته وعهد اليه رعاية الماشية ، ولكن ذلك لم يحسوله عن عزمه ففر ذات ليلة حتى جاء المدرسة ودخلها ولم يخرج منها ليلا ولا نهارا خوفا من ان يلقاه والده فيختطفه ويرجع به الى البيت . ولم يكن والده يكره تعليمه ، ولكنه يود بقاءه قريبا منه . ثم جاء بعد ذلك ناظر تلك المدرسة لانتخاب انجب التلامذة وادخالهم في مدرسة قصر العيني ولم تكن فيها دراسة الطب بعد . فكان على رأس المنتخبين لذكائه وفطنته فدخل تلك المدرسة سنة ١٢٥١ هـ (١٨٣٥ م) وسنه ١٢ سنة فقط

وكانت معاملة التلامذة هناك سيئة ومهينة جدا والطعام تافها قبيحا فأوقع صاحب الترجمة في مرض الجرب واشتد عليه فعلم والده بذلك فاراد استخراجه من المدرسة بالحيلة لانهم لم يؤذنوا له باخراجه فلم يرض على بل فضل البقاء في المدرسة رغبة في اتمام علمه فقبله والده وودعه وهما باكيان



وفي السنة التالية نقه من مرضه وعاد الى دروسه ولكن محمد علي باشا امر بان تجعل مدرسة قصر العيني لتعليم صناعة الطب فنقل تلامذة العلم منها الى مدرسة ابي زعبل . وكانت العلوم الرياضية لديه الى ذلك الحين كالطلاسم لا يفهم لها معنى لتعقدها وسوء طرق تدريسها فاعتنى ناظر المدرسة ابراهيم بك رافت بالقاء تلك الدروس بنفسه يشرحها للتلامذة

بأبسط عبارة - قال صاحب الترجمة : « وكانت طريقته هذه
باب الفتوح على »

وأخذ على من ذلك الحين يذوق لذة العلم على أنواعه ثم
انتخب فيمن انتخب لمدرسة المهندسخانة فدرس فيها خمس
سنوات

وفي سنة ١٢٦٠ هـ (١٨٤٤ م) عزم محمد علي باشا على
إرسال أنجاله إلى فرنسا للتعلم فانتخب على في جملة تلك
البعثة فأقاموا في باريس سنتين ثم أرسل بعضهم وفي جملتهم
هو إلى متس وقد تقلد كل منهم رتبة الملازم فأقاموا في هذه
أيضا سنتين درسوا فيها فن الحرب وما يتعلق به

ثم لما توفي محمد علي باشا وتولى عباس باشا استقدم
البعثة إلى مصر وأنعم على صاحب الترجمة ورفاقه برتبة
يوزباشى والحق هو بالجيش المصرى وقائده اذ ذاك سليمان باشا
الفرنساوى . ثم انتدبه الأمير عباس باشا الأول ليكون
في لجنة الامتحان التى عينها لامتحان مهندسى الريف فقام
بتلك المهمة حق القيام

وفي سنة ١٢٦٦ هـ (١٨٤٩ م) أوعز اليه عباس باشا ان
ينظم أسلوبا للمدارس مع الاقتصاد فى النفقة فنظمه وقدمه اليه
فاعجبه وأنعم عليه بمقابل ذلك برتبة أميرالاي . ولكنه طلب
اليه ان يتولى نظارة تلك المدارس بنفسه فاهتم بذلك اشد
الاهتمام ولم يكتف بالادارة ولكنه كان يؤلف بعض الكتب
اللازمة للتدريس واتى الى المدرسة بمطبعة حجر لطبع الكتب
وكان يراقب سير المدارس جيدا من حيث النظافة والترتيب
وطرق التعليم ، والف فى العمارة كتابا للتعليم (لم يطبع)

وما زالت الحال كذلك حتى تولى الأمير محمد سعيد باشا
فوشى اليه به ففصله من نظارة المدارس وبعث به فى الحملة
التى سارت لمحاربة روسيا مع الدولة العلية سنة ١٢٧٠ هـ
فسافر وقاسى أهوالا كثيرة ، وعاد سالما وعند عودته كان فى

جملة من اخلى سبيلهم من العسكرية فعاد الى مسكن حقير
اوى اليه لا يملك شيئاً ولم يلتفت اليه احد ممن كانوا له
اصدقاء وقت الرخاء . مكث سنين في هذه الحال حتى انف
المناصب والرتب والاف العزلة والسكنى بعيدا عن الناس وعزم
على العود الى بلده . وفيما هو في ذلك صدر الامر بفرز
ضباط الجهادية لانتقاء الصالحين منهم للخدمة فكان هو من
المختارين فتقلد منصب معاون في نظارة الجهادية ثم تعين
وكيلا لمجلس التجار ثم مفتشا لنصف الوجه القبلى . ثم
اقيل من هذه المناصب وتبرع بتعليم الضباط والصف ضباط
القراءة والكتابة والهندسة . وفي أثناء ذلك الف كتابا في
الهندسة سماه « تقريب الهندسة » وكتابا آخر في
الاستحكامات وآخر سماه تذكرة المهندسين . ثم رقت
فضاقت ذات يده حتى عزم على الاشتغال بالتجارة فاشترى
جانبا من الكتب كانت الحكومة عرضتها للمبيع بأثمان بخسة
فاستراها وباعها فربح منها ربحا حسنا ، ولكنه ما زال قانطا
مما كانت تطمح اليه انظاره من المناصب بسبب تغير سعيد
باشا عليه بما وثى به اليه كما قدمنا . فلما توفي سعيد باشا
سنة ١٢٧٩ (١٨٦٢ م) وخلفه الخديو اسماعيل باشا
تجددت آماله والحقه اسماعيل باشا بمعيته ثم عينه في نظارة
القناطر الخيرية وكانت لا تزال في حاجة الى المهندسين
فأجرى فيها عدة اصلاحات . وفي سنة ١٨٦٥ م بعث به للنيابة
عن الحكومة المصرية في المجلس الذى تألف لتقدير الاراضى
التى هى حق شركة خليج السويس على مقتضى القرار المحكوم
به من امبراطور فرنسا فقام بتلك المأمورية حق القيام فاحسن
اليه برتبة المتمايز

وفي سنة ١٨٦٧ هـ عهدت اليه وكالة ديوان المدارس . ثم
انتدبه الخديو للسفر الى باريس في مهمة مالية فاستفاد من
سفره هذا فوائد جمة واجتلى أهم المتاحف والآثار والمدارس .
وبعد عودته بقليل انعم عليه برتبة ميرمران وأحيلت الى

عهدته ادارة السكك الحديدية المصرية وادارة ديوان المدارس وديوان الاشغال العمومية ونظارة الاوقاف مع بقائه على نظارة القناطر الخيرية . ولا يخفى ما يقتضى للقيام بكل هذه الاعمال من الهمة والنشاط والقدرة فكان يعمل ليله ونهاره حتى لا يفوته شىء . وفي اثناء ذلك سعى فى نقل ديوان المدارس من العباسية الى درب الجمايز فى القاهرة حيث لا تزال الى اليوم وأسس دار الكتب المصرية وانشأ كثيرا من المدارس الاميرية المنظمة فى المدن الكبيرة بالوجهين القبلى والبحرى . وانشأ مدرسة دار العلوم يتخرج فيها معلمو اللغة العربية ويدرسون طرق التعليم والعلوم الحديثة . كما أنشأ معرضا للآلات الطبيعية وغيرها من أدوات العلوم الرياضية لكى يتمرن عليها التلامذة فتكون معرفتهم مبنية على المشاهدة والاختبار . ووجه التفاته الى الاوقاف فأصلح كثيرا فيها ودبر أملاكها ورتب حساباتها



وأما اعماله مما يتعلق بديوان الاشغال فكثيرة منها تنظيم شوارع القاهرة وتوسيعها كما هى عليه الآن . ومن الشوارع التى فتحت على يده شارع محمد على (القلعة الآن) وميدانه وشوارع الازبكية وميدانها وما يحيط بها من الشوارع ونحوها وباب اللوق وكانت جهات الفجالة والاسماعيلية تلالا وآكاما قدرة فانعم بها الخديو اسماعيل على الناس فمهدوها وبنوا فيها القصور والحدائق حتى صارت كما نراها الآن . وفى عهده بنى كبرى قصر النيل الباذخ المتين وتنظمت الجزيرة وانشئت فيها الشوارع المحفوفة بالاشجار . وجلبت المياه الى القاهرة بواسطة الشركة وانشىء كثير من الجسور والترع فى جهات القطر كترعة الابراهيمية والاسماعيلية . وفى عهد توليه الاشغال ايضا تم فتح قنال السويس رسميا ودعى الملوك لحضور الاحتفال بذلك فكانت الاعمال اللازمة للقيام بمعدات

ذلك الاحتفال منوطة به، فأهدى اليه بعد الاحتفال نشان غران
كوردون من النمسا ونیشان كومان دور من فرنسا والغران
كوردون من بروسيا

وبقيت عهدة تلك الادارة بيده الى سنة ١٨٧١ م ثم فصل
عنها لخلاف حدث بينه وبين ناظر المالية اذ ذاك وتعين ناظرا
للمكاتب الاهلية . ثم استقل ديوان الاشغال فتعين وكيله له
ثم تعين في مناصب اخرى حتى سنة ١٨٧٧ م عندما ترتب
مجلس النظار وصارت ادارة اعمال الحكومة منوطة به فتألف
المجلس تحت رئاسة نوبار باشا وتعين صاحب الترجمة
ناظرا على المعارف والادارات فبذل جهده في توسيع نطاق
المعارف فانشأ مدارس كثيرة في الوجه البحرى . حتى كانت
حادثة تدمير الجهادية ثم سقوط الوزارة النوبارية وتألفت
وزارة اخرى لم تدم طويلا لخلع الخديو اسماعيل وتولى
الخديو السابق وفي مدته هذه ايضا أجرى اصلاحات كثيرة
وخصوصا فى الرى

ولما انتهت الثورة العراقية بالاحتلال الانجليزى سنة ١٨٨٢م
عاد الى اهتمامه بالرى ومايتعلق به من بناء الجسور والحيضان
وحفر الترعى وتوزيع الماء . وفى اواخر تلك السنة سقطت
الوزارة الرياضية ثم عاد الى نظارة المعارف فأجرى فيها
هذه المرة ايضا اصلاحات جمة ثم اعتزل الاعمال وما زال حتى
توفاه الله

ولصاحب الترجمة مؤلفات مفيدة واشهر ما بقى
منها كتاب « الخطط التوفيقية » طبع بمصر فى عشرين جزءا
وهو تكملة لخطط المقرئى ومؤلف على مثالها . ومنها كتاب
علم الدين وهو عبارة عن رواية ادبية عمرانية فى عدة اجزاء

رجال أدب وفن

- ١ - عبد الله نديم
- ٢ - ناصيف اليازجي
- ٣ - ابراهيم المويلحي
- ٤ - بطرس البستاني
- ٥ - أحمد فارس الشدياق
- ٦ - عبده الحموي

السيد عبد الله نديم

١٢٥٩ - ١٢١٤ هـ الموافق ١٨٤٣ - ١٨٩٦ م

كتب ترجمة حياته صديقه الوفي احمد افندي سمر
فقال ما ملخصه : هو عبد الله بن مصباح بن ابراهيم .
وينتهي نسبه الى ادريس الاكبر من اسباط الحسن بن علي .
ولد بالاسكندرية سنة ١٢٥٩ هـ ، ١٨٤٣ م ، فحفظ القرآن
الكريم قبل ان يبلغ التاسعة ، وكان ابوه وسطا في اليسار ،
فلما رأى ذكاه ونجابته ادخله مدرسة جامع الشيخ ابراهيم
باشا ، فقرأ على اكابر المشايخ ، فأتقن فقه الشافعي والاصول
والمنطق وعلوم الادب اللسانية ، وهو في سن المراهقة ، فأخذ
منذ ذلك الحين يقول الشعر الرقيق والنثر المسجوع المحكم .
فما لبث ان سارت الامثال ببدايع آدابه ، وتسابق بلغاء
الكتاب والشعراء الى مطارحته . وكانت الكتابة الى ذلك
العهد مقصورة على السجع ، فتوخى المترجم له فيها أساليب
جديدة في الانشاء ، فاق فيها المتقدمين ، وأعجز المتأخرين .
تشهد بذلك رسائله الادبية ، ومؤلفاته التي تبلغ مائة مؤلف ،
في فنون مختلفة ، فقد أكثرها سرقة أو اغتصابا أو حرقا أو
اغراقا في مياه النيل ، كما سيأتى تفصيله

وكان رحمه الله منذ ترعرع جريئا مقسدا ، يميل الى
ركوب الاخطار ومعاناة الشدائد ، سعيا وراء المعالي . وقد
رأى ان ذلك لا ينال عفوا . فكان اول ما بدا به من تلك المطالب
المعجزة انه نظر في الوجود نظرة باحث مدقق ، فتبين له ان
الاشتغال بالعلم ربما عاقه عن بلوغ مقصده ، فتعلم صناعة



عبد الله ندیم

التلغراف واتفقها في أقل مما يتصور من الزمن ، كأن الكهرباء لم توجد الا لتزاحم خاطره في السرعة ، فلم يمض عليه بضعة أسابيع حتى استخدم تلغرافيا في مكاتب مختلفة ، أهمها مكتب تلغراف القصر العالي الخاص ، على عهد الخديو اسماعيل

ولم تكن وفرة الاعمال عائقة له عن التحصيل ، فقد كان يفتنم نوبة فراغه من العمل ، فيتردد الى الجامع الازهر ، يطالع مع بعض رفاق شبيبته الدروس التي كانوا يشتغلون بها . وأخص هؤلاء الرفاق العلامة الشيخ حمزة فتح الله المفتش الاول للغة العربية بنظارة المعارف حينذاك

ثم طرأ ما أوجب انفصاله عن الخدمة ، فاتصل بكثير من المقربين والعظماء ، فكانت له معهم مجالس مشهودة حضرها أفاضل الشعراء والمنشئين وناظروه وطارحوه نظما ونثرا فظهر عليهم جميعا

ثم قصد المنصورة ترويحاً للنفس ورأى أن التجارة خير رياضة له فأنشأ هنالك متجرا فراجت سوق بضاعته رواج آدابه ولكن كرمه تغلب على رأس المال والربح فقصدتهما جميعا وكان بيته ومتجره كعبة يحج اليها رجال الأدب وكانوا يتحدثون بمعجزة رسائله ومحرراته نظما ونثرا

نشأته السياسية

ثم عاد الى الاسكندرية في أوائل سنة ١٨٧٩ وهناك اخذت شمس حياته السياسية تبدو فكان أول سعيه في هذا السبيل ان اجتمع بصديقيه المخلصين محمد افندى امين باشكاتب محكمة اسبوط الأهلية ومحمود واصف افندى احد جامعى كتاب سلافة النديم ومحرر جريدة العدل وكانا وقتئذ من مؤسسى جمعية مصر الفتاة . فكان الاول نائب رئيسها والثانى كاتم اسرارها فتعرف ليلة اجتماعه بهما بالمأسوف عليهما اديب افندى اسحق وسليم افندى النقاش صاحبى

جريدتي مصر والتجارة وتعرف بكثير من أعضاء هذه الجمعية وشرع في بث أفكاره بما كان ينشره في تينك الجريدتين ثم رأى أن جمعية مصر الفتاة سرية يخشى عليها من الحكومة فاقنع صديقيه المشار اليهما بالانفصال عنها فانفصلا وتبعهما كثير من أعضائها ثم استشارهما في إنشاء جمعية علنية تسعى في ما يعود على الوطن وأهله بالمنفعة الحقيقية فاستصوبا رأيه. وشرع منذ ذلك الحين في تأليف قلوب أهل الثغر علما بأن المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه فتألفت الجمعية الخيرية الإسلامية في آخر ولاية اسماعيل باشا والقلوب واجففة والأفكار مضطربة وقد خرسست اللسنة وغلت الأيدي إلى الأعناق حتى ولاية محمد توفيق باشا فقام المترجم يثبت دعائم دعوته ويبث في الأذهان فوائد الاجتماع بلسان طلق فبرزت الجمعية الخيرية بمساعيه في ثوب الائتلاف وتسارع أعيان الثغر ووجهاءه للانتظام في سلكها وكانت هي أول جمعية إسلامية أسست في القطر المصري وكانت ترمى إلى غرض واحد هو تربية النشء وبث روح المعارف فيهم لترقية الأفكار وتطهير الأخلاق من دنس الجهالة

فأنشأت هذه الجمعية مدرسة لتعليم الأيتام وأبناء الفقراء مجاناً فسعى المترجم جهده حتى أكسبها عناية أمير البلاد فجعلها تحت رئاسة ولي عهده ووريث تاجه إذ ذاك وهو الخديو عباس باشا حلمي . فكان ذلك أدعى لنشاط رجالها وزيادة اهتمامهم فسعوا في توسيع دائرة المدرسة واستحضروا لها فضلاء المعلمين من العرب والأفرنج وأقاموا المترجم مديراً لها فوضع لها أساساً محكماً وعلم فيها الانشاء وعلوم الأدب فنمت وزهت حتى زاد عدد الطلاب فيها على الثلاثمائة في زمن وجيز ورتبت لها نظارة المعارف ٢٥٠ جنيهاً كل عام

فلما رأى المترجم أن غرسه قد كاد يثمر التمس من الخديو توفيق أن ينعم على الجمعية بالمدرسة البحرية لاتساعها وجودة موقعها فأجابته إلى ما طلب

ولقد بلغت هذه المدرسة من الشهرة وبعد الصيت على قصر المدة ما لم يبلغه غيرها في أزمان متطاولة ونالت من التفات الخديو توفيق باشا ونجليه الخديو عباس باشا وشقيقه مازن قدرها ونشطها وزادها زهوا ونماء مع ما كان يبذله صاحب الترجمة من العناية في عقد الحفلات العامة في بهو المدرسة يحضرها كبار القوم وسرااتهم فيسمعون المطرب والعجيب منه ومن تلامذته ثم ينصرفون ولا حديث لهم الا تردد ما سمعوه من العبارات الاخذة بمجامع القلوب

وفي تلك الاثناء مثل المترجم بالاسكندرية حالة البلاد وكيف يكون الوصول الى الشهامة والمروءة بروايتيه المشهورتين باسم « الوطن » و « العرب » مثلهما هو وتلامذته في ملهى زيزينيا بحضرة الخديو فكان لهما في نفسه من حسن الوقع ما بعثه على أن يدفع من ماله الخاص مائة جنيه مساعدة للجمعية . ولكن الحسد جر بعض ذوى النفوذ الى الايقاع بالنديم ففصل عن الجمعية وأقيل من ادارتها



وكان قبل ذلك قد ترك الكتابة الادبية واشتغل بالتحليل السياسي على الاسلوب الحديث بلا سجع ولا تقفيه فكان يحرر في جريدتي « المحروسة » و « العصر الجديد » اللتين صرح للمرحوم سليم افندي النقاش باصدارهما عقب الغاء « التجارة ومصر » وابعاد المرحوم اديب افندي اسحاق الى خارج مصر فجاء فيهما بالمعجب والمطرب

وما زال كذلك حتى استدعى صاحبهما من بيروت الكاتبين الفاضلين سليم افندي عباس والمرحوم فضل الله افندي الخوري فترك لهما امر هاتين الجريدتين وأنشأ « التنكيت والتبكيك » وهي جريدة اسبوعية ظاهرها هزل وباطنها جد فاودعها ما لم يسبقه أحد من كتاب العرب اليه ثم استبدلها بالطائف على ما قضت به المناسبات قبل

الثورة العرابية وكانت « الطائف » سياسية محضة بلغت من الشهرة ما لم تبلغه جريدة قبلها من التأثير على الأذهان



أما قيامه بنصرة الحزب الوطنى العرابى فسيببه انه لاقى من معاملة الحكومة له ولغيره ما يدل على تفضيلها الاجنبى لخدمتها عن الوطنى واتفق ظهور نيران الثورة فأصابت منه هوى فى القواد فتمكنت لانه سمع رجالا تنادى بطلب الاصلاح وتعقد الاجتماعات العلنية مجاهرة بمقاصدها فى أهم الصحف حتى اتفقت الاراء على أن فى مصر حزبا وطنيا لاهم له الا انتشال البلاد من وهدة الحراب فكانت رسل الحزب العسكرى تتردد على المترجم ورؤساؤه يكرمونه ويعظمونه فما زالوا به حتى انضم اليهم فوسموه بخطيب الحزب الوطنى واتخذوا جريدته مجالا لاقلام كثيرين منهم ومظهرا لافكارهم ولم يمض بضعة أسابيع حتى هاجت القاهرة وماجت اذ انبأها البرق بضرب الانجليز للاسكندرية فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وانتشأ الحرب بينهم وبين عرابى فقام المترجم مع محمود باشا سامى البارودى وغيره من رؤساء الجند المتخلفين الى الاسكندرية فوجدوا الجيش المصرى يتأهب لمغادرتها الى كفر الدوار بعد أن صارت معالمها دوارس فيساتا (هو وسامى) فى منزل المترجم . فلما كانت موقعة التل الكبير فى ١٥ من شهر سبتمبر سنة ١٨٨٢ وقت السحر فر عرابى واخوه وعلى الروبى وتبعهم المترجم فجاءوا القاهرة فى الساعة الرابعة بعد الظهر وساروا توا الى قصر النيل مركز نظارة الحربية اذ ذاك فتألف وقد ليسروا الى الاسكندرية والنسديم فى جملتهم ، ولكنه لم يصل الاسكندرية بل عاد من كفر الدوار واختفى من ذلك الحين . . . فقضى عشر سنوات مختفيا فى مديرية الغربية بين ميت الفرقا

والعتوه والجيزة وغيرها فيتنكر تارة بزى الدراويش وطورا بزى المغاربة أو غيرهم ، والحكومة تبث العيون والأرصاد للقبض عليه وهو أقرب اليها من جبل الوريد

فلما أعيثها الحيلة جعلت لمن ينبئها بمكانه مكافأة مقدارها ألف جنيه . وكان العارفون بمكانه كثيرين ولكنهم حافظوا على ولائه فآخفوه مكرما معززا حتى قبض عليه في شهر نوفمبر سنة ١٨٩١ في أواخر ولاية الخديو توفيق باشا فجيء به الى طنطا حيث حبس أياما وسئل عن موجب اختفائه فأوضحه فأمر بإبعاده الى حيث يشاء من البلاد غير المصرية فاختار يافا من ثغور فلسطين فسافر اليها باكرام وأقام هناك مدة ثم أزمع السياحة في تلك البلاد المقدسة فخرج من يافا في مارس سنة ١٨٩٢ مع صديق له الى جبل الطور المسمى جبل حارزيم وزارا مقام العزيز هناك وقبور كثيرين من الانبياء ومرا بأماكن كثيرة من جملتها نابلس ومدينة الخليل وبيت لحم والمسجد الأقصى ثم عادا الى يافا



وفي تلك السنة (١٨٩٢) تولى أريكة الخديوية سمو عباس باشا الثاني فعفا عن المترجم فعاد من يافا الى القاهرة وظل مترددا بينها وبين الاسكندرية أكثر من شهر ثم اتخذ الاولى . موطننا وأنشأ بها مجلته العلمية الادبية التهذيبية « الاستاذ » فنالت من الشهرة والانتشار في شهور مالم تنله سواها في اعوام وكان لها تأثير شديد في أفكار الامة على اختلاف نحلها

ثم ألغيت لاسباب سياسية وكلف المترجم بالخروج من مصر فغادرها ثانية الى يافا ودفعت له الحكومة المصرية اربعمائة جنيه يعتد بها لسفره ورتبت له ٢٥ جنيها كل شهر على شرط ألا يكتب شيئا في الجرائد يختص بسياسة مصر فلبث أربعة اشهر في يافا . ثم أعيد منها بإرادة سلطانية

فرجع الى الاسكندرية وأقام فيها أياما قابل في خلالها صاحب الدولة الغازى مختار باشا المندوب السلطانى العالى فساعده هذا على المسير الى الاستانة فسافر اليها . وصدرت الارادة السلطانية بتعيينه مفتشا للمطبوعات بالباب العالى وترتيب ٤٥ جنيها مجيديا له كل شهر فوق ما كان يتقاضاه من الحكومة المصرية وكان ينفقها كلها فى سبيل الخير والبر بالاهل والاقارب والاصدقاء

وقد نال لدى المقام السلطانى الحظوة الكبرى وتعرف بكثير من الوزراء وارباب المظواهر العلمية ولكنه اختص بالملازمة والمودة للامام العلامة الفيلسوف السيد جمال الدين الافغانى فاتصلت بينهما اسباب الالفة وتمكنت منهما روابط الاتحاد وقد بلغ تعلق السيد جمال الدين به وجميل اعتقاده فيه انه اصبح وامسى يعجب بقوة حجته فى المناظرة والجدل وسرعة بديهيته فى التحضير حتى صرح فى عدة مجالس بأنه ما رأى مثل النديم طول حياته فى توقد الذهن وصفاء القريحة وشدة العارضة ووضوح الدليل ووضع الالفاظ وضعا محكما بازاء معانيها ان خطب أو كتب

وقد كان يود الرجوع الى مصر ليقضى بها بقية أيامه فلم تتح المنية ذلك فداهمته بمخالبتها فقضى فى ١١ أكتوبر سنة ١٨٩٦ وأمر جلالة السلطان ان يحتفل بمشجده على نفقة الجيب الشاهانى الخاص فسار أمام نعشه فرقتان من الجيش وفرقة من الشرطة وتلامذة المكتب السلطانى وعدة من الوجوه والكبراء والعلماء يتقدمهم السيد جمال الدين الافغانى والشيخ محمد ظافر شيخ السلطان والسيد عبد الرحمن الجزولى حتى دفنوه فى باشكطاش . ولقد مات المترجم ولم يورث اهله الا الحزن والعناء لانه كان يقبض مرتبه من مصر والاستانة فلا تمضى عليه بضعة ايام حتى يفرغ من توزيعه على الاقارب والاباعد دون نفسه

أما أخلاقه فإنه كان برا بوالديه وذوى قرابته وقصاده ولو لم يكن يعرفهم ، فما أقرض أحدا شيئا وطالبه به ولا رد يوما سائلا ولا خضع لعظيم قط وإنما كان يلين ويتواضع لصغار الناس وأوساطهم وكان ذكيا فطنا قوى الحافظة فصيحاً جريئاً شاعراً مطبوعاً وكاتباً ناثراً

مؤلفاته وكتابه

ومن مؤلفاته الكثيرة ديوان شعر يشتمل على نحو أربعة آلاف بيت نظمها وشبابه باسم الثغر طلق المحيا . وديوان آخر في نحو ثلاثة آلاف بيت . وروايتا « الوطن » و « العرب » ورسائل أدبية مسجوعة لم تصل أيدي جامعي السلافة منها إلا الى أربع عشرة رسالة بعد السعى الكثير ومكابدة العناء الجزيل ، وكان ويكون (وهو الذى طبع بعضه فى الاستاذ) وواحد وعشرون كتابا فى فنون مختلفة قطع لاجلها أيام حرب الاختفاء رقاب الفراغ بسيوف الاقلام . منها ديوان شعر يحتوى على ما يقارب عشرة آلاف بيت وهو الآن محجور عليه فى الاستانة . ومنهما النحلة فى الرحلة . والاحتفاء فى الاختفاء . والشرك فى المشترك . وكتاب فى المترادفات . وآخر فى اللغة سماه موحد الفصول وجامع الاصول والفرائد فى العقائد . والآلىء والدرر فى فواتح السور . والبديع فى مدح الشفييع . وامثال العرب وغير ذلك

وقد فقد كثير من مؤلفاته ومنظوماته حرقا أو ضياعا أو اغتيالاً على أن شقيقه عبد الفتاح افندى نديم وصديقه محمود افندى واصف قد عنيا فى جمع ماتيسر من ذلك فى كتاب سمياه « سلافة النديم » فى منتخبات السيد عبد الله نديم « وطبعاه فمن اراد الاطلاع على ما كتبه النديم أو نظممه أو خطبه فعليه بالسلافة

الشيخ ناصيف اليازجي

١٢١٥ - ١٢٨٨ هـ الموافق ١٨٠٠ - ١٨٧١ م

هو الشاعر المطبوع واللفوى المدقق والنحوى المحقق أحد أركان النهضة اللغوية في بلاد الشام بن عبد الله بن ناصيف ابن جنبلاط بن سعد اليازجي اللبناني المولد الحمصي الاصل هاجر جده سعد المذكور من حمص مع جماعة من ذويه نحو سنة ١٦٩٠م لحيف لحقهم في تلك الديار فتوطن أناس منهم في ساحل لبنان في الجهة المعروفة بالغرب وآخرون في وادي النسيم وتفرق بعضهم في مواطن أخرى ولا تزال بقية أسرهم في حمص ونواحيها وهم عشيرة كبيرة من ذوى الوجاهة واليسار وكان مولد صاحب الترجمة في قرية كفر شيما من قرى الساحل المذكور في ٢٥ مارس سنة ١٨٠٠ م وكانت وسائل التعليم اذ ذاك محصورة في جماعة الاكليروس فتلقى القراءة البسيطة على القس متى من قرية بيت شباب . وكان والده من اطباء المشهورين في وقته على مذهب ابن سينا وكان مع ذلك اديبا شاعرا الا انه كان قلما يتعاطى النظم لقلة الدواعى اليه اذ ذاك ومن شعره أبيات قرظ بها ديوان الخورى حنايا المنير احد شعراء ذلك العصر لم يحفظ منها الا بيتان رواهما لنا حضرة حفيده اللغوى الشهير الشيخ ابراهيم اليازجي صاحب مجلة «الضياء» وقد اعتمدنا عليه في تحقيق اكثر ما اثبتناه في هذه الترجمة - اما البيتان فهما قوله في مطلع ذلك التقرير :

عش بالهنا والخير والرضوان يامن عنيت بنظم ذا الديوان

انى لقد طالعت فوجدته نظما فريدا ما له من ثان
فنشأ ولده على الميل الى الادب والشعر واقبل على الدرس
والمطالعة بنفسه وتصفح ما تصل اليه يده من كتب النحو
واللغة ودواوين الشعراء ونظم الشعر وهو فى العاشرة من عمره
ومن نظمه فى الصبا قوله :

ولما تشنى وهو ريان معطف يميل على سفح العقيق ويخطر
تذكرت اغصان الرياض يهزها نسيم الصبا والشبه بالشبه يذكر
ومن ذلك قوله أيضا :

كف عنى لا أبالك	قد تبينا محالك
وعرفناك والا	فمتى نعرف حالك
قد مضى لى بك عصر	حاملا فيه ملالك
حسب قلبى منك جور	كاد منه يتهالك
وكفانا ما احتملنا	منك فاستدع احتمالك
سنرى النادم منا	ويسىء الله فالك

ولما لم تكن الكتب لذلك العهد ميسورة لقلّة المطبوع منها
اذ لم يكن فى البلاد السورية ولا المصرية الا مطابع نادرة قلما
كانت تشتغل بطبع الكتب العلمية كان جل معتمده على كتب
يستعيرها من بعض الديار والمكاتب القديمة . فمنها ما يقرأها
مرة فيحفظ زبدتها ومنها ما ينسخها بخطه ، ولا يزال كثير
من تلك الكتب باقيا الى اليوم محفوظا عند أسرته وهى جميلة
الخط على القاعدة الفارسية وبعضها يبلغ عدة مئات من
الصفحات . وقد بلغ من كل علم من علوم العربية لبابه
ودرس أشهر مصنفاته وله فى جميعها مؤلفات مشهورة هى
اليوم عمدة التدريس فى أكثر المدارس المسيحية . وله ثلاثة
دواوين شعرية تعد من عيون الشعر كثير منها محفوظ على
اللسنة ولا سيما الايات الحكمية منها وهى فى شعره أكثر
من أن تحصى وله المقامات المشهورة باسم «مجمع البحرين»
وهى ستون مقامة اودعها من فنون الانشاء وصناعات البديع



ناصر اليازجي

ومن غريب اللغة والفاظها المنتقاة وأمثال العرب والآيات
الشريفة مادل على طول بآعه وغزارة محفوظه وذلك فضلا
عما أودعها من المسائل العلمية فى كل فن وماضمن شرحها
من تواريخ العرب وأنسابهم ووقائعهم

ثم انه لما بلغ أشده اتصل بالامير بشير الشهابى الشهير
فقربه اليه وجعله كاتباً ليده . فلبث فى خدمته اثنتى عشرة
سنة . ولما كانت سنة ١٨٤٠ وهى السنة التى خرج فيها
الامير بشير من البلاد الشامية انتقل صاحب الترجمة بأهل
بيته الى بيروت فأقام بها وتفرغ للمطالعة والتأليف والتدريس
ونظم الشعر ومراسلة الادباء حتى لهج بذكره القطرين :
الشامى والمصرى

وكانت تتوارد اليه ركائب الزائرين من كل صقع وفيهم
العلماء والوزراء وفى جملة من زاره منهم محمد عزت باشا
أحد قواد الجنود السلطانية فمدحه بأبيات ارتجالية يقول فى
مطلعها :

أعطى محمد عزة من فضله شرفاً لساحتنا بوطأة نعله
ومنها يقول :

يا زائراً بيتى أراك فتننته فعليك بيت غيره من مثله
أجللته عنى فصرت أهابه حتى كأنى لم أكن من أهله
وأقبل أكابر الشعراء من جميع الانحاء العربية على مراسلته
ومدحوه بما دل على وفور فضله وعلو كعبه فى الشعر
والادب ، ومما قال فيه الشيخ عبد الباقي العمري البغدادي
حين وقف على النبذة الاولى من ديوانه :

على نبذة من شعر ناصيف ذى الفضل
وقفت ومنى العين فى موضع الرجل
وطاطأت أجلالاً لها رأس شامخ
لاخمصه هام العلى موطن النعل

وهي قصيدة طويلة يقول منها :

إذا أنكرت دعواه في الشعر فتية
أقام عليها شاهد العقل والنقل

وان رام شعري أن يبارى شعره
يقول شعوري اننى عنك في شغل

ثم انه ما زال عاكفا على التعليم والتصنيف والنظم والنثر حتى أصيب بمرض عضال سنة ١٨٦٩ فانفلج فالجا نصفا عطل شطره الايسر فلزم داره ولكنه ما برح ينظم الشعر ويتلقى السائلين والمستفيدين الى أن فاجأه القدر بوفاة بكره المرحوم الشيخ حبيب فوقع ذلك الحادث عليه وقوع الصاعقة ولم يعيش بعد ذلك الا اربعين يوما . وكان قد بدأ ينظم قصيدة يرثيه بها ثم غلب عليه الحزن حتى لم يعد يملك عنان قريحته . ومما نظم في هذه القصيدة قوله :

ذهب الحبيب فيا حشاشة ذوبى	أسفا عليه ويا دموع أجيبى
ريبتيه للبين حتى جاءه	في جنح ليل خاطفا كالذيب
يا أيها الام الحزينة أجملى	صبرا فان الصبر خير طبيب
انى وقفت على جوانب قبره	أسقى ثراه بمدمعى المصبوب
ولقد كتبت له على صفحاته	بالوعتى من ذلك المكتوب
لك يا ضريح محبة وكرامة	عندى لأنك قد حوت حبيبى

وهي آخر ما نظمه وبعد أيام عاودته السكتة الدماغية فمات فجأة وكانت وفاته في ٨ فبراير سنة ١٨٧١ بعدما لزمه الداء ما يقرب من سنتين فعظم خطبه عند كل من عرف فضله أو سمع بذكره وكان له ماتم حافل بهذه الكبراء والعظماء من بيروت ولبنان ومشى في جنازته ما ينيف عن عشرة آلاف نفس . وولد له ١٢ ولدا ورثوا ذكاه وسرعة خاطره ولم يخلفه منهم في خدمة اللغة وآدابها الا الشيخ ابراهيم صاحب « الضياء »

صفاته

وكان رحمه الله معتدل القامة فوق الربعة أسمر اللون حنطيه اسود الشعر أجش الصوت مهيبا وقورا شهما كاملا متواضعا متأنيا في حديثه قليل الضحك عفيف اللسان لم تسمع له كلمة بذينة قط لا في حديثه ولا في كتابته ولم يهج أحدا ولا هجاه أحد في زمانه غير بيتين قالهما على سبيل الفكاهة في بخیل وهما :

قد قال قوم ان خبزك حامض والبعض أثبت بالخلاوة حكمه
كذب الجميع بزعمهم في طعمه من ذاقه يوما ليعرف طعمه ؟
وكان اذا ذكر أحد امامه بسوء اطرق وأغضى كأنه
لا يسمع . وكان ودودا مخلصا سريع الفهم قوى الذاكرة متسع
المدارك اذا حدث أخذ بمجامع القلوب لكثرة رواياته ونكاته
وكان يروى القصة بتواريخها وأسماء أصحابها وأسماء بلدانهم
ولم يكن على شيء من التأنق في اللفظ ولكن حديثه كان
كأبسط أهل وقته . ومن غريب ذاكرته انه كان اذا نظم
الشعر لا يكتبه بيتا بيتا ولكنه كان ينظم الابيات ثم يكتبها حتى
انه في مدة اعتلاله نظم مرة ثمانية عشر بيتا ثم أملاها دفعة
واحدة . وقد ألف احدى مقاماته وهى المقامة اليمامية على
ظهر الفرس وكان مسافرا بأهل بيته من بيروت الى بحدون
سنة ١٨٥٣ بقصد الاصطياف فلما انتهى اليها أخذ قرطاسا
فعلقها . وكان يحفظ القرآن بتمامه ويعبى من الشعر شيئا
كثيرا ولا سيما شعر المتنبي لشدة إعجابه به وكان يقول كأن
المتنبي يمشى فى الجو وسائر الشعراء يمشون على الأرض

شعره

أما شعره فقد كان سلسا حسن الالفاظ والتراكيب فضلا
عما له من المعانى المبتكرة والاكتار من الحكمة وضرب الامثال

ومع قلة رغبته في الغزل فان الغزل القليل الذي له فيه
خفة ورقة مثل قوله :

حوالك وقد حلت بكل قلب فؤاد لم يحل به سواك
نزلت به على طلل تفاني ولست بمن على طلل تباكي
أطعت العاذلين بقتل صب يريد القتل لكن عن رضاكا
تعز كرامة ويهون ذلا فتأنف أن يقول دمي فداكا
وقوله :

أخاف اذا أشار براحتيه لعلمي أن روحى فى يديه
ويحقق عند نظرتة فؤادى لأن سواده من مقلتيه
وقوله :

ان كان يلبس ما أفاد تجملا فيياض هذا الجيد تلبسه الحلى
واذا تزينت الهيون بكحلها فلقد نراه بمقلتيك تكحلا
ياناحل الاعطاف معشوقا ترى اتلوم مثلى عاشقا أن ينحلا
حاولت سفك دمي بعينك ثانيا هيهات قد سفكته عيني أولا
وقوله وهو مما نظمته فى صباه :

الوى على فضمنى وضممته وصدورنا بصدورنا لم تعلم
أهوى عليه وفى عفة يوسف حتى يميل وفيه عفة مريم
ومن نظمته فى المديح قصيدة مدح بها أسعد باشا قائد
جيش البلاد العربية قال فيها :

اذا قام من تحت السرادق راكبا اقام عجاجا فوقه كالسرادق
ولما راينا كيف تنقض خيله علمنا بها كيف انقضاض الصواعق
تفارق أطراف البلاد خيوله واصواتها فى قلبها لم تفارق
وله فى الحكم شئ كثير منه قصيدة جرت أبياتها مجرى
الامثال مطلعها :

لعمرك ليس فوق الارض باق ولا مما قضاه الله واق
ومنها :

أضل الناس فى الدنيا سبيلا محب بات منها فى وثاق

وأخسر ما يضيع العمر فيه فضول المال تجمع للرفاق
ومنها :

ألا يا جامع الأموال هلا رأيتك تطلب الأبحار جهلا
إذا أحرزت مال الأرض طرا
جمعت لها زمانا لا فراق وأنت تكاد تفرق في السواقى
فمالك فوق عيشك من تراق وتلبس ألف طاق فوق طاق
فضول المال ذاهبة جزافا كماء صب في كأس دهاق
وله من قصيدة :

متى ترى السكلب في أيام دولته
فاجعل لرجليك أطواقا من الزرد
واعلم بأن عليك العار تلبسه
من عضة الكلب لا من عضة الأسد

وله في صناعة التاريخ الشعرى اليد الطولى والتفنن الغريب
ولم يحدث حادث هام في أواسط القرن الماضى يستحق حفظ
تاريخ حدوثه الا نظم الشيخ اليازجى أبياتا في تاريخه . ومن
اشهر ما نظم في هذا الباب بيتان قالهما في فتح عكا
يتضمنان ٢٨ تاريخا وبيتان آخران نظمهما في السلطان عبد
العزيز . وله من هذا القبيل قصيدة هنا بها ابراهيم باشا
المصرى بفتح عكا ضمن كل بيت منها تاريخين لسنة ١٢٤٨ هـ
يقول في مطلعها :

الزهر تبسم نورا عن اقاحيها
إذا بكى من سحب الفجر باكيها
ومع التزامه التاريخ فيها لا ترى تكلفا في تركيبها مطلقا
ومن مديحها قوله :

كل البلايا من الدنيا متى نزلت بنا ، فنيران ابراهيم تطفئها
نار ونور متى قال النزال له والجود هات يدا لم يلق ثانيها
وله قصيدة من هذا النوع في مدح السلطان عبد العزيز

وقد أمر له بالانفاق على طبع بعض كتبه من الخزينة الخاصة
مطلعها :

قف بالمطايا على انجاد ذي سلم
وقل سلام على من دام في الخيم
ومن مخترعاته في فن النظم عاطل العاطل وهو أن تكون
أحرف الكلمة خالية من النقط وإذا تهجأت اسم الحروف
كان هجاؤه أيضا خاليا من النقط وهذه الأحرف ثمانية فقط
وهي الحاء والدال والراء والصاد والطاء واللام والهاء والواو
وقد نظم من هذا الجنس أربعة أبيات في مقاماته « مجمع
البحرين » وهي هذه :

حول در حل ورد	هل له للحر ورد
لحضور حلو وصل	ورده للصحو طرد
وله حول وطول	وله صد ورد
دهره حر صدور	هل له لله حد

وقد نظم من جناس ما لا يستحيل بالانعكاس أربعة عشر
بيتا وهي أيضا في مقاماته ولم يسمع بهذا المقنن لشاعر
قبله . ونظم بيتين طردهما مديح وعكسهما هجاء وهذا من
مبتكراته وهما في المقامات أيضا وله فيها غير ذلك من الفنون

مؤلفاته

وأما مؤلفاته سوى ما تقدم ذكره من دواوينه ومقاماته
فمعظمها من الكتب المدرسية لتلقى العلوم الأدبية . وقد
سلك فيها ولاسيما في الصرف والنحو مسلكا تدريجيا يناسب
حالة الطالب في كل سن فمنها المختصر الذي لا اختصار بعده
كالرسالة المسماة « بالجوهر الفرد » وقد جمع فيها الصرف
والنحو في ست صفحات ، ومنها المطول الذي أتى فيه على
أشهر أقوال المصنفين في هذين العلمين مع الإحاطة بجميع
قواعدهما وتعليل أحكامهما كالارجوزتين اللتين سمى أحدهما

« الجمانة في علم الصرف » ، والاخرى « جوف الفرا في علم النحو » تشتملان على مايزيد عن ألف وخمسمائة بيت كل واحدة منهما مشروحة بقلمه شرحا مستوفيا

وله بين ذلك مؤلفات أخرى منها النشر وهى « فصل الخطاب في الصرف والنحو » أيضا ، وهو جامع لأصول هذين العلمين وقد وقع اجماع المدرسين على انه أفضل متن وضع فيهما وقد جمع فيه بين الاحاطة والاختصار حتى لايمكن أن يحذف منه كلمة ولايزاد عليه كلمة . وفى طبقتيه وعلى أسلوبيه « عقد الجمان في علم البيان » و « نقطة الدائرة في العروض والقوافى » و « قطب الصناعة فى المنطق » وهذه الكتب الاربعة مشروحة بقلمه . ومن ذلك أرجوزتان مختصرتان فى الصرف والنحو مشروحتان بقلمه أيضا ، سمي الأولى «لمحة الطرف فى أصول الصرف » ، والثانية « الباب فى أصول الاعراب » . ومختصر آخر فى النحو سماه «طوق الحمامة» وهو نشر . وله فى البيان أرجوزة مختصرة سماها « الطراز المعلم » ، وأرجوزة أخرى فى النطق سماها « التذكرة » وشرح كلا منها شرحا موجزا . وأرجوزة مطولة فى فن العروض والقوافى شرحها ولده الشيخ حبيب . وكان قد شرع فى وضع شرح لديوان المتنبى ولم يتمه ، فأتته ولده الشيخ ابراهيم اليازجى وسماه «العرف الطيب فى ديوان أبى الطيب» وقد طبع هذا الشرح سنة ١٨٨٢ م

ابراهيم بك المويلحي

١٢٦٢ - ١٢٢٤ هـ الموافق ١٨٤٥ - ١٩٠٦ م

يتصل نسبه ببیت من البيوتات الكريمة التي ظهرت بمصر بعد الانقلاب في أول القرن الماضي ، وكان جده السيد ابراهيم المويلحي في أول أمره كاتباً للمرحوم حبيب أفندي كخيا محمد علي باشا ثم ارتقى كما ارتقى سواه من ذوى المواهب في مثل حال مصر في دورها الانتقالي من عصر الامراء المماليك الى عصر التمدن الحديث اذ هددتها مطامع الدول وحام حولها طلاب السيادة من الوزراء والقواد فتسابقت العقول واختلفت الاغراض ففاز كل بما بلغ اليه امكانه وساقته اليه فطرته . فارتقى بعضهم الى منصات الحكم واثرى آخرون بالتجارة والزراعة أو الصناعة أو غيرها . فكان للسيد ابراهيم المويلحي جد المترجم حظ كبير من ذلك الارتقاء . ومع انغماس أهل ذلك الانقلاب بالمطامع السياسية والمكاسب المالية واشتغالهم بالملاذ والملاهي لتسلط الجهل على معظمهم فالسيد ابراهيم كان محبا للأدب لا يخلو مجلسه من الادباء والشعراء يطارحهم ويذاكرهم . وقد أدى لمحمد علي في أوائل ولايته خدمات جليلة حفظها له ، فانتفع بها المترجم في حال ضيقه كما ستري

نشأته

ولد صاحب الترجمة في أوائل سنة ١٢٦٢ هـ (١٨٤٥م) في بيت وجاهة وعز وكان والده مشهوراً بصناعة الحرير

نسيج مصر وله فيها بيت تجارى كبير فجمع ثروة طائلة .
ونشأ ابراهيم فى سعة ورغد وهو يتهيأ للعمل فى تجارة
والده ولكنه كان مولعا بالادب والشعر من حدائته ، ورث
ذلك عن جده . ولم يخطرله ولا لوالده انه سيجعل الادب
مهنته وهى يومئذ مهنة الفقراء . . ولكن الاقدار ساقته الى
الاشتغال بها فى كهولته فكان من أعظم نوابغها

ظل ابراهيم فى حجر والده آمنا سعيدا حتى توفى الوالد
سنة ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م) والمترجم فى العشرين من عمره
فتولى تجارة ابيه وقبض على ثروته وجرى على خطته فى العمل
حينما فازداد تقدما . وكانت مضاربات البورصة حديثة
العهد فى هذا القطر وقد تحدث الناس بمعجزاتها وبهروا من
سرعة الاثراء بها وكان ابراهيم طالبا للعلی فلم يكتف بما بين
يديه من الرزق الواسع وحدثته نفسه أن يطلب الزيادة
بالمضاربة فضارب وهو يكسب تارة فيطمع بالمزيد ويخسر
أخرى فيطلب التعويض على نحو مانشاهده الآن مع مايعلمه
الكثيرون من عواقبها الوخيمة . فما زال المترجم يتدرج فى
المضاربة حتى استنزفت ثروته وأثقلته الديون

بين التجارة والوظيفة

على ان فروغ يده من المال لم يذهب بما نشأ عليه من
العز والانفة ولاضاعت مآثر جده لدى البيت الخديو . فنظر
اسماعيل باشا الخديو يومئذ فى هذا البيت نظرة العطف، وكان
اسماعيل اذا أعطى أغنى . فوهبه هبات الملوك فوقى الديون
ووسع التجارة . ثم أنعم عليه بالرتبة الثانية وعينه عضوا
فى مجلس الاستئناف وهو فى الثامنة والعشرين من عمره
وأنعم على أخيه عبد السلام باشا بتلك الرتبة أيضا . وأبقاه
فى مزاولة التجارة محافظة على ذلك المعهد التجارى . وتأيدا
لذلك أصدر أوامره لجميع من فى قصوره من النساء أن



ابراهيم المويلحي

يلبسن الانسجة المصرية من صنع هذا البيت وان لا يدخل في
تشريفات السيدات سيدة مرتدية غير هذه الانسجة . وأمر
بصنع كمية عظيمة منها لارسالها الى معرض فينا في تلك الايام
وما زال المترجم في وظيفته بمجلس الاستئناف حتى
افضت رئاسته الى المرحوم حيدر باشا يكن فوقع بينهما
شفاق انتهى باستقالة المترجم ولكن عناية الخديو اسماعيل
مازالت شاملة له فأمر باعطائه مصلحة دمغة المشفقولات
والمنسوجات على سبيل الالتزام . واتفق في اثناء ذلك
سقوط وزارة نوبار باشا المختلطة التي كان فيها عضوان
اجنبيان وخلفتها وزارة شريف باشا المعروفة بالوزارة الوطنية
وهموا بانشاء اللائحة الوطنية لتأسيس مبادئ الحكومة
الدستورية . فانتدب المترجم للاشتغال في ذلك مع المرحوم
السيد على البكرى . ثم صدر الامر بتعيينه سكرتيرا
للمرحوم راغب باشا ناظر المالية . ولم يتول هذه الوظائف
الا لما ظهر من نجابته وسداد رايه

تأسيس جمعية المعارف

على ان ميله الى الادب والشعر كان ينمو فيه بين مشاغل
السياسة والادارة فاتفق مع المرحوم عارف باشا احد اعضاء
مجلس الاحكام بمصر وصاحب المآثر الكبرى في نشر الكتب على
تأسيس جمعية عرفت بجمعية المعارف غرضها نشر الكتب
النافعة وتسهيل اقتنائها وانشأ هو مطبعة باسمه سنة ١٢٨٥
لطبع تلك الكتب وهي من اقدم المطابع المصرية . على ان
الجمعية كانت تطبع كتبها ايضا في مطابع اخرى وخصوصا
المطبعة الوهبية ، ولهذه الجمعية شأن كبير في تاريخ هذه
النهضة لأنها نشرت كثيرا من الكتب المهمة «كتاج العروس»
و « اسد الغابة » و « رسائل بديع الزمان » و « سلوك
الممالك » و « ألف باء » وغيرها من كتب التاريخ والادب
والفقه

أما صاحب الترجمة ففي السنة التالية لإنشاء مطبعته اتحد مع محمد عثمان بك جلال لإنشاء جريدة عربية ولم يكن من الجرائد العربية يومئذ إلا « الجريدة الرسمية » وجريدة « وادى النيل » فنال رخصة بجريدة سماها « نزهة الافكار » ولكنه لم يصدر منها الا عددان ، ثم حالت العوائق دون اصدارها ويقال عن السبب في ذلك ان المرحوم شاهين باشا اظهر لاسماعيل باشا تخوفه من انها تثير الافكار وتبعث على الفتن فصدر الامر بالغاءها وظلت المطبعة تشتغل بطبع الكتب لجمعية المعارف وغيرها وقد طبع فيها كتباً على نفقته

تقلبه في اعماله

فترى المترجم رحمه الله قد تقلب في أعمال مختلفة بين تجارة وخدمة في الحكومة وإنشاء المطابع والجرائد ونشر الكتب وغيرها وهو دون الثلاثين من العمر ولم ينل كل مرامه من واحد منها مع اقتداره وذكائه ولعل السبب في ذلك ل حاجته في استثمار عمله قبل ان ينضج وعدم ثباته في خطة واحدة . لأنه لو ثبت في التجارة مثلاً ولم يرغب عنها في خدمة الحكومة لكانت تجارته من أوسع التجارات أو لو ثبت في الخدمة ولم يعدل عنها الى الصحافة والطباعة لكان من اكبر اصحاب المناصب ولو ثبت في الصحافة الى الآن لكانت صحيفته من اكبر الصحف وأهمها ولكنه لم يكن يستقر على حال ، والاذكياء الذين لا يثبتون في عمل انما يكون سبب تقلبهم الرغبة في النجاح السريع يريدون الطلوع الى الارجح دفعة واحدة . فاذا استبطأوا الوصول الى قمة النجاح في عمل تركوه وانتقلوا الى سواه فيؤول ذلك في الكثير الى ضياع العمر في بناء القصور في الهواء . ولو ثبتوا في عمل واحد مهما يكن نوعه لكفاهم مؤونة الشكوى من معاكسات الزمان

على ان المترجم لم يشك ضيماً لانه كان مرعى الجانب وما

زال الخديو اسماعيل يذكر صدق خدمته له ، فلما حدث التغيير في منصب الخديوية سنة ١٢٩٦ هـ (١٨٧٨م) وأبعد الخديو الى أوروبا واستقر في ايطاليا استقدم المترجم اليه فجاءه وأقام في معيته بضع سنوات كان في أثنائها كاتب يده (سكرتيره العربى) يكتب عنه الرسائل الى الملوك والامراء . ولم يكن ذلك ليمنعه من العمل لنفسه فأنشأ في أثناء اقامته بأوروبا عدة جرائد كجريدة « الاتحاد » وجريدة « الانباء » ولم يثبت في واحدة منهما أو لعله كان ينشئها لغرض مؤقت فاذا ناله عطلها . وقال المؤيد انه اشترك مع المرحوم السيد جمال الدين الافغانى في تحرير « العروة الوثقى »

حياته في الاستانة

وفي سنة ١٣٠٣ هـ (١٨٨٥ م) ذهب الى الاستانة على اثر انشائه تلك الجرائد فأكرم السلطان وفادته وعينه عضوا في مجلس المعارف وكان ناظرها يومئذ منيف باشا العالم الشهير فقدر الرجل حق قدره وقربه منه وعول عليه في كثير من شؤون النظارة . وبعد أن أقام في هذا المنصب نحو عشر سنوات عاد الى مصر وعاد الى الاشتغال بالكتابة وقد نضجت مواهبه الانشائية واكتسب ملكة الصحافة لطول ممارسته اياها مع ما اختبره بنفسه في أثناء أسفاره ومخالطته كبار رجال السياسة واطلاعه على خفايا الامور . فعمد أولا الى مراسلة الجرائد بمقالات جامعة بين السياسة والادب وقواعد العمران أشهرها جمع على حدة في كتاب «ماهنالك» ثم انشأ جريدة « مصباح الشرق » الاسبوعية وهو يتردد في خلال ذلك الى الاستانة ويعود منها مشمولا بالنعم السلطانية من العطايا والرتب حتى بلغ المرتبة الاولى من الصنف الاول وما زال عاملا في خدمة الصحافة العربية حتى توفاه الله في ٢٩ يناير سنة ١٩٠٦ وهو في الثانية والستين من عمره

صفاته

كان ربع القامة ممتلىء الجسم حسن الملامح . وكان حلو الحديث لطيف النادرة سريع الخاطر حسن الاسلوب نابغة في الانشاء الصحفي وفي الطبقة الاولى بين كتاب السياسة وشاقة ومتانة واسلوبا مع ميل الى النقد والمداعبة ولا يخلو نقده من لذع أو قرص ، لا يراعى في ذلك صديقا ولا قريبا حتى قيل : « لم ينج من قوارص قلمه الا الذي لم يعرفه » وقد انتقدوا عليه تقليه في خطته وذلك تابع لتقليبه في سائر احوال حياته لما قدمناه من تردده في أعماله حتى قضى العمر في التنقل من عمل الى آخر . وضاعت الفائدة التي كان يرجى استثمارها من مواهبه لأنه كان نادرة في الذكاء وحدة الذهن والقدرة على فهم الامور والاحاطة بخفاياها وكشف غوامضها ، فلو رافقه الثبات في المبادئ والأعمال لكان من هذا الرجل غير ماكان

وهاك مثالا من انشائه رحمه الله يصف موكب صلاة الجمعة في الاستانة قال :

« ماقيصر في موكب انتصاره ولا الاسكندر في يوم افتخاره أستغفر الله بل ماسعد قادما من القادسية ولا المعتصم من عمورية أملاً للقلوب مهابة ولا للعيون بهاء من رؤية جلالة السلطان يوم الجمعة في موكبه

» في يوم الجمعة قبل الظهر بساعتين ترد العساكر رجالا وفرسانا من اطراف الاستانة الى بشكطاش عشرة آلاف أو يزيدون فينتظرون في طريق السراي السلطانية صدور الارادة السنية بتعيين المسجد . وهي عادة جارية الى اليوم وان كان المسجد الحميدى قد اختص بصلاة جلالته دون سواه . فاذا صدرت الارادة اجتمعت العساكر في ساحة المسجد امام باب السراي واصطفت صفوفا مضاعفة بعضها وراء بعض . وفي هذه الاثناء تتسابق مركبات المشيرين والوزراء

والمشايع والاجانب من السفراء وغيرهم فيجلس السفراء
ومن كان معهم من عليّة قومهم الوافدين على الاستانة في قاعة
الجيب الهمايوني المظلة على تلك الساحة التي لا يسمع السامع
فيها قيلا ولا صهيلا الا صليل الاسياف وترديد الانفاس
هيبة واجلالا وانتظارا واستقبالا لاشراق نور الحضرة السلطانية.
فاذا حان وقت الصلاة اشرقت المركبة السلطانية المذهبة
كالشمس ضياء من مطلع السراى تحمل الامام نائب الرسول
صلى الله عليه وسلم ويجلس امامه الغازى عثمان باشا .
والمشيرون وكبار رجال المايين حافون من حول المركبة مشاة
خشع الابصار ترهقهم ذلة من جلال تلك العظمة الامامية وهم
في غير هذه الساعة اكاسرة الزمان وقياسرة الرومان كبرا
وجبروتا وكلهم في امواج الملابس الذهبية يسبحون وعلى
صدورهم نياشين الجوهر تخطف الابصار وتأخذ الالباب .
حتى ان الناظر ليكاد يوالى الحمد لله تباعا على مامنحه للدولة
من عديد الرجال الصادقين في خدمة الامة والملة بشهادة
الكلمات الناطقة فوق النياشين ، لولا ما يعتريه من الاشتباه
فيهم والنيشان عنوان كتبه الدولة ووضعته على صدر حامله
شهادة منها للناس ببيان ماهو مكنون وراءه من فضائل الغيرة
والحمية . فاذا اختلف المكتوب على الصدر عن المكنون في
القلب كانت كبائع يفش الناس بوضعه على زجاجة الخل
عنوان ماء الورد . . » الخ



بطرس البستاني

١٢٣٥ - ١٢٠١ هـ الموافق ١٨١٩ - ١٨٨٢ م

في اقليم الخروب من قضاء الشوف في جبل لبنان قرية صغيرة على مسافة ثلاث ساعات من دير القمر وثلاث ساعات ونصف من صيدا وسبع ساعات من بيروت يقال لها الدية عدد سكانها خمسمائة نفس من طائفة الموارنة وقليل من البروتستانت نشأ فيها غير واحد من مشاهير اللبنانيين جميعهم من آل البستاني أشهرهم المرحوم المطران عبد الله البستاني والمطران بطرس البستاني والمعلم بطرس البستاني صاحب الترجمة وقد اقتطفنا ترجمة حياته مما كتبه جرائد الشام على اثر وفاته واثبتته دائرة المعارف في جزئها السابع ومما عرفناه بنفسنا من آثار اجتهاده وفضله

هو بطرس بن بولس بن عبد الله بن كرم بن شديد بن ابي شديد بن محفوظ البستاني من اعيان الطائفة المارونية . ولد في الدية عام ١٨١٩ في عهد اماره الامير بشير الشهابي الكبير في جبل لبنان وظهرت عليه مخايل النجابة والذكاء منذ نعومة اظفاره فاخذ في تلقى مبادئ العربية والسريانية على المرحوم الخوري مخايل البستاني . وكان المطران عبد الله البستاني اذ ذاك مطرانا على صور وصيدا وكان يقيم في بيت الدين فنمى اليه ان هذا الغلام وغلما آخر يدعى شبلي بن الخوري يوسف البستاني (المطران بطرس البستاني بعدئذ) قد تفردا بالذكاء والفطنة والاجتهاد بين اقرانهما فاستقدمهما اليه ثم

بعث بهما الى مدرسة عين ورقة بلبنان فقضيا فيها عشر سنوات حتى اتقنا آداب اللغة العربية مما تيسر الحصول عليه اذ ذاك كقواعد اللغة والمنطق والتاريخ والحساب والجغرافيا وتناولا اللغات السريانية واللاتينية والايطالية وتلقيا الفلسفة واللاهوت الادبي والنظري ومبادئ الحق القانوني

وكان صاحب الترجمة قد بلغ العشرين من سنه فاراد غبطة بطريك الطائفة المارونية اذ ذاك ارساله مع رفيقه الى رومية للتبحر في العلوم الدينية وكان والده قد توفي فعارضت والدته في ابعاده فتعين مدرسا في مدرسة عين ورقة مشمولاً بانظار البطريرك وكان البطريرك يعهد اليه قضاء بعض المصالح الى سنة ١٨٤٠ وكانت حال الجبل في اضطراب لما كان في نفس الدولة العلية على الامر بشير وابراهيم باشا . وكانت الدول الافرنجية قد بعثت مراكبها الى سواحل سوريا كي تعين الباب العالي على اخراج ابراهيم باشا منها . وكان صاحب الترجمة قد درس اللغة الانجليزية في بيروت اثناء اقامته بمدرسة عين ورقة وبعدها فاستخدمه الانجليز للترجمة . وكان دعاة المذهب الانجيلي من الاميركان قد اخذوا في الاقامة ببيروت للتعليم ونشر مذاهبهم فتعرف الى بعضهم وجعل يختلف اليهم يعلمهم اللغة العربية ويعرب لهم بعض الكتب حتى تمكنت علائق المودة بينه وبينهم ووافقهم على مذهبهم

وفي سنة ١٨٤٦ عزم استاذنا الدكتور فان ديك على انشاء مدرسة عربية فاستعان بصاحب الترجمة في انشائها فتولى التعليم فيها عامين الف في اثنتاهما كتابا مطولا في علم الحساب سماه « كشف الحجاب » طبع مرارا وذاع استعماله في سائر مدارس سوريا

ثم قدم بيروت وتولى منصب الترجمة في قنصلية امريكا مع مباشرة التأليف والترجمة والوعظ والخطابة ودرس في اثناء



بطرس البستاني

ذلك أو قبيلة اللغتين العبرانية واليونانية . وكان الدكتور
على سميث الأمريكاني قد باشر ترجمة التوراة الى
العربية فاستعان بصاحب الترجمة على ترجمتها . ولكن
الاجل عاجل الدكتور سميث فاتم الترجمة فان ديك
وهي الترجمة الأمريكية المشهورة . اما المعلم بطرس فانه
شرع في تأليف قاموسه « محيط المحيط »

وفي سنة ١٨٦٠ نشر نشرة سماها نفي سوريه وهي اول
نشرة عربية ظهرت في سوريا واذا جاز لنا ان نسميها جريدة
فالبستاني اول من انشأ جريدة عربية غير رسمية بين قراء
اللغة العربية

وفي عام ١٨٦٣ انشأ في بيروت مدرسة عالية سماها
« المدرسة الوطنية » أسسها على الحرية الدينية ومبدأ
الجامعة الوطنية العثمانية فتقاطر اليها الطلبة من سائر أنحاء
الشام ومصر والاسنانة وبلاد اليونان والعراق وغيرها فزاع
صيتها في الآفاق وظهر فضلها على رؤوس الاشهاد فأنعم
عليه السلطان بنيشان عال تنشيطا له ومكافأة لخدمته
وقد تولى ولده سليم البستاني نيابة رئاسة المدرسة
وكان متضلعا في العلوم الحديثة فكان يدرس التاريخ
والطبيعات والصف الاول في اللغة الانجليزية وكان والده رحمه
الله يلقي على التلامذة الخطب والمواعظ مرتين في الاسبوع



وفي سنة ١٨٦٩ فرغ من تأليف قاموسه « محيط المحيط »
وقد اخذه عن أشهر متون اللغة ولا سيما الفيروز ابادي
وصحاح الجوهري ولكنه يمتاز عنها كلها بما يأتي (١) انه
رتبه على حروف المعجم باعتبار الحرف الاول من الثلاثي
المجرد (٢) جمع فيه كثيرا من الالفاظ العامية وفسرها بالالفاظ
الفصحى (٣) انه اوضح كثيرا من اصول الاعجمية كان اصلها
مجهولا أو مهمل (٤) انه ادخل فيه كثيرا من المصطلحات التي

حدثت في اللغة بحدوث العلوم الحديثة المنقولة عن اللغات
الاعجمية فضلا عن بسط عبارتها وسهولتها . فجاء كتابا
وافيا بفرض طلاب اللغة العربية تفهمه العامة وترضى به
الخاصة طبعه في مجلدين كبيرين واستخرج منه مختصرا سماه
قطر المحيط اصغر منه حجما خصصه لتلامذة المدارس .
فشاع استعمال الكتابين في سائر انحاء سورية وغيرها . فلما
نم طبعهما رفع نسخة من محيط المحيط الى الحضرة
الشاهانية ونسخة الى الصدارة العظمى واخرى الى نظارة
المعارف بالاستانة فوقع عمله هذا موقع الاستحسان فجازته
الحضرة السلطانية بالجائزة الاولى التي ينالها المؤلفون وهي
مائتان وخمسون ليرة عثمانية وانعمت عليه بالنیشان المجيدى
من الدرجة الثالثة

وفي اول عام سنة ١٨٧٠ انشأ مجلة علمية ادبية سياسية
سماها الجنان وعهد بادارتها وانشائها في بادىء الامر الى نجله
سليم البستاني . وفي اواسط ذلك العام استعان بابنه سليم
في انشاء صحيفة سياسية سماها الجنة . فهي من اقدم
الجرائد السياسية العربية ببلاد الشام . ثم أصدر جريدة
الجنينة وتولى تحريرها ابن عمه سليمان افندى البستاني
ناظم الايادة . والجرائد الثلاث المشار اليها لا تصدر الآن
ووعد في آخر قاموسه بتأليف قاموس للاعلام اى مشاهير
الناس ولكنه رأى بعدئذ ان يتوسع في مشروعه هذا فعول
على تأليف قاموس شامل لسائر العلوم على اختلاف مواضعها
وازمانها فشرع فيه عام ١٨٧٥ م يعاونه به ولده سليم وبعض
الكتاب وسماه « دائرة المعارف » وهو كتاب فريد لم ينسج
على منواله في اللغة العربية . فأصدر منه رحمه الله ستة
مجلدات وتوفى وهو في بدء السابع فاتم السابع والثامن ابنه
سليم ولكنه توفى قبل الشروع في التاسع فأصدر ابناؤه الباقيون
الجزء التاسع بمعاوضة ابن عمهم سليمان افندى البستاني .
ثم حالت مواعيد ادت الى ايقاف العمل في بيروت ومضت على

ذلك بضع سنوات الى ان قدم القاهرة سليمان افندى المشار
اليه واخذ في اتمام الدائرة مع ابني عمه نجيب افندى ونسيب
افندى البستاني . فصدر الجزء العاشر ثم الحادى عشر
وكانت وفاته في اول مايو سنة ١٨٨٣ فجأة بعله
في القلب فطار خبر منعه في البلاد فاهتزت له انحاء سورية
اذ بفقده فقد الوطن السوري ركنا من اقوى اركانه في نهضته
الاخيرة . فبكاه الاهل والاصدقاء وابنه الخطباء والعلماء ورثاه
الكتاب والشعراء

مآثره وأعماله

نبغ البستاني في لبنان والعلم لا يزال طفلا في مهده فأخذ
في التعليم والتهذيب علما وعملا فألف الكتب وانشأ المدارس
والجرائد فهو اول من انشأ مجلة علمية وجريدة سياسية
ومدرسة وطنية وأول من أقدم على المشروعات الادبية بعزم
ثابت ، فألف الكتب وسهل طبعها ونشرها ، واشهر مؤلفاته :
دائرة المعارف ، ومحيط المحيط ، وقطر المحيط ، وكشف
الحجاب ، ومسك الدفاتر ، ومفتاح المصباح في الصرف
والنحو ، وكتب اخرى ورسائل عديدة للتثقيف والتهذيب
فضلا عن ترجمة الكتب الدينية والادبية . وانشأ ثلاث جرائد
الجنان والجنة والجنينة . ومن مشروعاته المدرسة الوطنية
وقد رأس مدرسة الاحد في بيروت خمس عشرة سنة وترجم
لها عدة رسائل دينية دعا فيها الى تربية الاولاد والامساك
عن المسكرات . وسن قانونا للمدرسة الداووية التى انشأها
داود باشا . وكان كثير الحث على تعليم النساء وهو اول من
خطب في هذا الموضوع بالشرق وله خطب كثيرة تلاها على منابر
بيروت وفي جمعياتها ومقالات جمة نشرها في جرائده كلها
فوائد

صفاته وأخلاقه

كان ربة ممتلىء الجسم سميئا قوى البنية ولولا ذلك

ما استطاع القيام بما عنى به من المشروعات العقلية والادارية .
وكان حازما نشيطا لا يفتر عن التفكير في مشروع يشرع فيه او
عمل يعمل له لخدمة وطنه . فاذا بدأ بعمل اكب عليه بكليته
مواصلا العمل للقيام به وكانوا اذا افتقدوه ليلا او نهارا عثروا
عليه في مكتبه بين كتبه وأوراقه . وكان ثابت الجنان قادرا
على الاعمال لا يأخذه ملل ولا ضجر مع ما يعترض المشروعات
العلمية والادبية في بلادنا من العقبات مما يثبط العزيمة
ويضعف العزم وخصوصا في أيامه . فقد نبغ في عصر لم تتوفر
فيه معدات الطبع والنشر ولا اعتاد فيه الناس مطالعة الجرائد
والاقبال على المؤلفات . ومع ذلك فانه عمل أعمالا يقصر عن
القيام بها عدة من الرجال الاقوياء فكان يؤلف ويعلم ويترجم
ويدير أعماله ويكتب عماله وأصدقائه ويضبط حساباته
ويدير مدرسته علما وعملا ناهيك بما كان يقوم به من
المساعدات الادبية لمن يقصده من المستشرين والمستعنين
فيقضى حاجاتهم ويحضر اجتماعات الجمعيات ويقدم الخطب
والمواعظ . وهو مع ذلك يستقبل الزائرين بوجه باش فلا
يرجع أحدهم من بين يديه الا شاكرا حامدا معجبا بلطفه
وخيرته

وكان مخلص الطوية دمث الاخلاق لين العريكة صادق
النية محبا لوطنه ودولته كريم الخلق بعيدا عن التعصب
كارها للتملق والرياء . وكان سخيا على المشروعات الادبية
بسبب المعشر حسن المحاضرة يسترضي جلسيه شابا كان او
شيخا ويخاطب كلا بما يناسب ذوقه وأخلاقه وكان يعتقد ان
المصالح العامة أساس كل تقدم فيبذل جهده في تأييدها متخذا
الصدق شعارا والنشاط عمادا

وكان مع ذلك رفيع الجناب وقورا محترما لم يجالسه
أحد الا خرج وفي نفسه انعطاف اليه وفي قلبه احترام له فكان
حيثما ذكر اسمه قرن بالمدح والثناء والتجلة والوقار فنال

مقاما رفيعا في نفوس ذوى الوجاهة والمقامات الرفيعة وأهل
الفضل على اختلاف مذاهبهم ونزعاتهم . وكان من أشدهم
صداقة له استاذنا الدكتور « كرنيلوس فان ديك » فقد ساكنه
وأكله وشاربه زمنا طويلا كانا معا اخوين متصافيين ونعم
الاخوان . فلما توفي صاحب الترجمة رثاه الاستاذ بلسان
الصديق وبكاه بدموع الاخ الشقيق ومما قاله وقد وقف
لتأبينه في الكنيسة :

« ان لم يكن لك في نقد الرجال يد
انظر الى الموت كيف الموت ينتقد

يدور في الارض حول الناس ملتصبا
كريم قوم ولا يرضى الذي يجد
« انى لمظلوم بوقوفى هنا اليوم خطيبا لان المقام الذى يليق
بى وارغب فيه انما هو ان اقوم فى وسطكم باكيا نائحا على
أخى وحبيبى الذى خطف من بيننا خطفا بل هو معلمى
واستاذى ورفيقى فكم احيينا من الليالى معا فى الدرس
والمطالعة والتأليف وحلاوة المعاشر الصادرة عن اتحاد المقاصد
والاغراض فكيف اقف فوق جثته خطيبا ولا اركع بجانبه
حزينا كئيبا »

ومما يدل على منزلته الرفيعة بين اهل الادب والفضل أنه
لما وقع القضاء ومات البستانى تسابق الخطباء والعلماء الى
تأبينه ورثائه فملأت الجرائد أعمدتها رثاء وسودت صفحاتها حزنا
ووقف الخطباء على ضريحه يرددون ذكراه ويذكرون مآثره
وآثاره . وهالك ما قاله فى تأبينه المرحوم اديب اسحاق اذ وقف
على قبره والناس وقوف خشوع وكنا فى جملة السامعين
فانتصب اديب رحمه الله وقد امتقع لونه وابتلت عيناه واخذ
يقول :

كذا فليجل الخطب وليفدح الامر وليس لعين لم يفض ملؤها عذر
« ان هذا المصاب مصاب جسيم . ان هذا الخطب خطب

عميم . انها لمصيبة وطنية يقل في مثلها بذل الدموع انها لنائبة
عمومية لاكثر في نظيرها. تمزيق الضلوع . أجل أن المصيبة
فيك مصيبة الوطن يامن أنفقت العمر في خدمته مقداما مجتهدا
صابرا متجلدا متعففا مستقيما . فلا بدع أن تبكيك العيون .
ولا غرو أن تنفطر لفقدك القلوب . أو لم تكن فينا مثال الفضل
والاجتهاد . ونموذج البراعة والادب . وعنوان التجلد والثبات
في خدمة العلم . بذلت في هذه الخدمة شبابك ووقفت على هذا
السبيل أتعابك . وجعلت العلم غايتك القصوى من دنياك .
فكان لروحك روحا وكنت لذاته قواما

« فأى أثر أدبى رأيناه ولم تكن أنت البادىء به والداعى اليه .
وأى مشروع مفيد شهدناه ولم تكن أنت الشارع فيه أو المعين
عليه . أو لست أول من خط على صفحات القلوب ورسم على
صحف الجنان «حب الوطن من الايمان» وأول من أقدم على
المشروعات الجسيمة العلمية بهمة لا تخاف المصاعب والعقاب
ولا تألف الا صدق العزيمة والثبات

« بأى آثارك لا تذكر . وبأيها اذا ذكرت لا تشكر . وأى عين
ترى أعمال يديك . ولا تفيض دما بل دما حزنا عليك . وما الذى
نذكره من آثار اجتهادك فى استمرار ارتيادك ولا نجده عظيما .
أمواظبتك على خدمة العلم والادب أربعين عاما أو تزيد . أم
تأليفك وتصانيفك الغنية بشهرتها عن الوصف . أمحيط محيطك
أم قطر محيطك . أم مدرستك الوطنية التى ملأت بها الوطن
أنوارا . ورفعت فيها للادب الصحيح منارا

أحمد فارس الشدياق

١٢١٩ - ١٣٠٥ هـ الموافق ١٨٠٤ - ١٨٨٧ م

هو فارس بن يوسف بن منصور بن جعفر شقيق بطرس الملقب بالشدياق من سلالة المقدم رعد بن المقدم خاطر الحصري الماروني الذي تولى جبل كسروان في سوريا سبعة وثلاثين سنة في أوائل القرن السابع عشر للميلاد

ولد في عشقوت من أعمال لبنان سنة ١٨٠٤ م ثم انتقل والداه الى الحدث بلبنان سنة ١٨٠٩ فربى فيها وقد ظهرت عليه مخايل النجابة منذ نعومة اظفاره فتعلم القراءة في مدرسة عين ورقة بلبنان وتناول شيئاً من اللغة والنحو على يد اخيه أسعد . وبدأ ينظم الشعر وهو في حدود العاشرة وكان فيه ميل غريزي لقراءة الكلام الفصيح والتبحر في معانى الالفاظ الغريبة التى يعثر عليها فيما يقرأه من الكتب التى فى مكتبة والده لأن والده كان قد أحرز كتباً عديدة فى فنون مختلفة ثم توفى والده وهو صبى فأصبح يتيماً فعلم أنه يجب عليه أن يعتمد على نفسه فأتقن صناعة الخط وجعل ينسخ الكتب لنفسه أو لغيره بالأجر ولكنه لم ير فيها فائدة تذكر وكانت نفسه تحدثه من ذلك الحين بالاسفار والجد فى طلب العلم ولم يكن يرى فيما حوله ما ينشطه على ذلك وينهض به من حضيض الفقر لقلة الوسائل واستبداد القوى بالضعيف

قلنا انه تلقى بعض العلم عن اخيه أسعد وكان أخوه هذا نابغة عصره ذكاء وفطنة فاتفق انه خلع مذهب والديه



احمد فارس الشدياق

وتمذهب بالمذهب الانجيلي فغضب عليه البطريك وما زال يتهدده ويسومه العذاب ألوانا حتى يرجع عن رأيه فلم يزد إلا تمسكا واصرارا الى ان آل ذلك الى موته بدير قنوبين في عنقوان شبابه شر مودة . ولا يزال أهل سوريا ولبنان يتحدثون بقصته الى الآن . وكان صاحب الترجمة شديداً التعلق بأخيه هذا فعظم عليه أمره حتى كره الإقامة في بلاد الشام جملة فغادرها ناقما عليها وعلى الدين كانوا سببا في موت أخيه أسعد وطلب الاغتراب فجاء الديار المصرية في عهد محمد علي باشا . وكان مجيئه اليها بصفة استاذ للمرسلين الامريكان لتعليم اللغة العربية وقواعدها وأشياء أخرى . وقد أرسله لذلك المرسلون الامريكان ببيروت لانهم شعروا بأن موت أخيه أسعد انما كان دفاعا عن مذهبهم وكان أسعد مضطهدا من أكثر أعضاء عائلته الا جماعة منهم لم يكونوا يستطيعون المجاهرة في الدفاع عنه خوفا من سطوة الحكام لأنهم كانوا موافقين للاكليروس بما اتوه بشأن المرحوم أسعد . أما فارس فانه لم يكن يكتف ما في نفسه من استصواب عمل أخيه فأصبح في خطر على حياته فحماه الامريكان ثم أرسلوه الى مصر كما قدمنا

ولبت في مصر بين تعليم وتعلم حتى أتم دروسه في العلوم العربية وغيرها وقد قرا بعضها على الفاضلين نصر الله أفندي الطرابلسي الحلبي والشيخ محمد شهاب الدين وطالع كتاب صحاح الجوهري وديوان المتنبي وغيرهما من كتب اللغسة والادب . وكان كثير الرغبة في قراءة الشروح التي تبين مأخذ الكلام من اللغة شديد الوله بالشعر ونظمه فخاض عبابه حتى بلغ منه مبلغا عظيما ونظم شيئا كثيرا بين غزل وحماسة ومدح وهجاء وتمكن من سائر علوم اللغة كالنحو والصرف والاشتقاق والمنطق . وتقرب من خيرة علماء المصريين ومعية عزيز مصر حتى تولى كتابة الوقائع المصرية وكانت في اول نشأتها تكتب باللغة التركية فقط فكتب فيها زمنا بالعربية

وتعرف في مصر بعائلة الصولي من وجهاء السوريين
فصاهرهم وولدت له امراته هذه ولدين هما فائز وسليم .
أما الاول فتوفي بعد ذلك في ضواحي لندن اثناء اقامته فيها
كما سيجيء وبقى سليم وحيدا وهو سليم أفندي فارس
نزىل بلاد الانجليز

وفي سنة ١٨٣٤ سافر الى جزيرة مالطة وأقام فيها زهاء
أربع عشرة سنة يدرس في مدارس المرسلين الامريكان وقد
تولى تصحيح مايطبع في مطبعتهم هناك وأخذ في التأليف
والتصنيف ولا يكاد يوجد كتاب مطبوع في مطبعة مالطة الا
كان هو مؤلفه أو مترجمه أو مصححه . ومن جملة ما ألفه
كتاب للتدريس وآخر سماه « الواسطة في معرفة احوال
مالطة » لم يغادر شيئا عن تلك الجزيرة وسكانها الا أبانه
وانتقده فيه

وفي سنة ١٨٤٨ بعثت جمعية ترجمة التوراة في لندن تطلبه
من حاكم مالطة على يد وزير خارجيتها للمساعدة في ترجمة
التوراة الى العربية . وكانت هذه الجمعية قد عهدت بترجمتها
الى الدكتور « لى » فبعثت الى صاحب الترجمة لتنقيحها
وضبطها فسار الى لندن ومر في طريقه بمدن كثيرة من
أوربا ثم عاد بعد انتهاء الترجمة الى باريس أقام فيها زمنا
وقد كتب سياحته هذه في كتاب سماه « كشف المخبا في
أحوال أوربا » وصف تلك البلاد وصفا دقيقا بعبارة رقيقة
تأخذ بمجامع القلوب لا يمل القارئ من قراءتها فضلا عما
يستفيده منها عن احوال أمم أوربا وخصوصا لندن واخلاق
أهلها وعلومهم وآثارهم وكل مايتعلق بهم . أما باريس
فأوجز في وصفها اعتمادا على ماكان قد كتبه عنها العلامة
المرحوم رفاعة بك الطهطاوى . وقد طبع كشف المخبا الطبعة
الاولى في تونس والثانية في الاستانة سنة ١٢٩٩ هـ وهى
مشهورة ومتداولة . وألف اثناء سياحته هذه أيضا كتابا

سماه « الساق على الساق فيما هو الفاريق » والفاريق
لفظ مقتطع من اسمه (فارس الشدياق) وسيأتى وصف
هذا الكتاب عند الكلام عن مؤلفاته

قضى فى سياحته هذه بضع عشرة سنة متجولا فى أنحاء
أوربا يتردد الى مالطة وهو لم يغير شيئا من لباسه التركى
ولا بدل طربوشه على أنه أتقن أثناء ذلك أيضا اللغة الانجليزية
وتعلم الفرنسية وتزوج سيدة انجليزية لم تلد له أولادا ونال
الجنسية الانجليزية بعد سعى لأنهم لم يكونوا يمنحونها الا لمن
استحقها

واتفق فى أثناء ذلك أن أحمد باشا باى ولاية تونس اذذاك
زار مدينة باريس وفرق على فقراء مرسيليا وباريس وغيرهما
أموالا طائلة ثم رجع الى مقامه فنظم قصيدة يمتدحه بها
وبعثها على يد من بلغها اليه فحازت حسن قبوله وفتن
الباشا بها حتى بعث اليه يستقدمه على سفينة حربية وقد
عجب صاحب الترجمة لتلك الدعوة وذلك الاكرام وقال :
« لعمري ماكنت أحسب أن الدهر ترك للشعر سوقا ينفق
فيها ولكن اذا اراد الله بعبد خيرا لم يعقه عنه الشعر ولا
غيره » فجاء تونس وأقام فيها مدة على الرحب والسعة
وحرر فى جريدة الرائد التونسى وهى جريدتهم الرسمية
الى الآن

وكان فى أثناء اقامته بباريس قد نظم قصيدة امتدح بها
السلطان عبد المجيد على اثر الحرب بين الدولة العلية
والروسية وبعث بها على يد سفير الدولة العلية بباريس
والقصيدة تزيد أبياتها على المائة والثلاثين تكتفى منها بما
يأتى مثالا لما جادت به قريحة المترجم من النظم

قال فى مطلعها :

الحق يعلو والصلاح يعمر والزور يمحى والفساد يدمر

ومنها :

يامؤمنون هو الجهاد فبادروا
ومنها :

في لن تنالوا البر حتى تنفقوا
وتمسكوا بالعروة الوثقى من اله
يغنيكم التكبير والتهليل عن
ومنها :

لو لم يكن منكم سوى نفر لما
ومنها :

أنتم عباد الله حقا فاعبدوا
وقال في ختامها :

حرس الاله جنابك الاعلى ولا
وأدام دولتك العلية ماسرى
أنشدت تاريخين هجريين في
عبد المجيد الله أذكى ضده
« ١٢٧٠ »

وكان لهذه القصيدة وقع حسن لدى السلطان فورد عليه
بسببها ايعاز بالقدوم الى الاستانة لمكافأته وكان قد هم
بالمسير فحبب اليه بعض الصندور العظام الاقامة في تونس
فسار اليها كما تقدم . ووجه اليه الباي أحسن منصب
لديه وهناك اعتنق الديانة الاسلامية على يد شيخ الاسلام
وسمى أحمد ، فصار اسمه أحمد فارس الشدياق . وأخذ
صيته ينتشر في سائر الانحاء الاسلامية وخصوصا الاستانة
العية فطلبته « الصدارة العظمى » من الباي فقدم الى
الاستانة وتولى تصحيح الطباعة بضع سنوات

وفي سنة ١٢٧٧ هـ أنشأ جريدة الجوانب الشهيرة في
الاستانة واجاد في انشائها وسبكها فولع الناس بمطالعتها

وذا ع صيتها في الآفاق الشرقية فبلغت الهند وفارس والعراق
وسائر بلاد العرب ومصر والشام والمغرب وأجاد في اتقانها
حتى لم يغادر أسلوبا من أساليب الكتابة لم يطرقه بين لغة
وسياسة ومدح ورثاء وجد وهزل ولوم وعتاب وحزن
وطرب وسائر فنون الأدب فضلا عن القصائد الرنانة
والمقالات العديدة في العلم والاخلاق كما تراه محفوظا في
« منتخبات الجوائب »

ولم تنحصر منزلة الجوائب في المشرق ولكنها دخلت المغرب
حتى كانت جرائد باريس ولندن تأتي بذكرها وذكر محررها في
الكلام عن سياسة الشرق مستشهدة بأقواله وكانت تلقبه
بالسياسي الشهير والاخباري الطائر الصيت . وقد خاطبه
الملوك والأمراء والعظماء في سائر أقطار العالم ووجدوا بين
أوراقه بعد وفاته مئات من الكتب وارادة عليه من عظماء
العالم وملوكهم

وقد نال رضاء السلطان فأنعم عليه بالرتب والنياشين
ونال مثل ذلك أيضا من الدول الأخرى

وما زال عاملا على التأليف والتحرير الى أواخر أيامه فعهد
بتحرير الجوائب الى ولده سليم أفندي فارس فقام بذلك خير
قيام الى أن قضت الحوادث بعطلتها سنة ١٨٨٤ على أثر
الحوادث السودانية في الديار المصرية

وفي سنة ١٨٨٦ قدم صاحب الترجمة الى هذه الديار
وقد شاخ وهرم وأتيح لنا مشاهدته وقد علاه الكبر وأحرق
بحدقته قوس الاشياخ وأحدودب ظهره ولكنه لم يفقد شيئا
من الانتباه أو الذكاء وكان الى آخر أيامه حلو الحديث طلي
العبارة رقيق الجانب مع ميل الى المجون

وقد لاقى اثناء اقامته بمصر هذه المرة حسن الوفادة
فزاره الوزراء والعظماء

ثم عاد الى الاستانة العلية وأقام هناك حتى وافته المنية

وقد شبع من الايام فتوفى في مصيفه بقاضي كوى وكان لوفاته في الاستانة رنة ودوى فرثاه الكبراء والعظماء وبعث السلطان الشيخ محمد ظافر أفندى لحضور الاحتفال ونقلت جثته الى سوريا عملا بوصايته قبل وفاته ودفنت في سفح لبنان في محلة الحازمية قرب مدينة بيروت

وكان لتشييع جنازته في بيروت احتفال شائق مشى فيه كبار المأمورين وأعيان البلاد وعلمائها وافاضلها الى أن واروه التراب واستمطروا عليه طيب الرحمة والرضوان

وكان رحمه الله ربع القامة كبير الانف واسع العينين مع بروز وحدة . وكان طلى الحديث مع ميل الى المجون وترى هذه الصفة واضحة كل الوضوح فيما كتبه فان من يطالع كتبه يتحقق ذلك فيها

وقد رثته الجرائد على اختلاف لغاتها ونزعاتها وأبنائه العلماء والامراء ورثاه الشعراء في سائر أنحاء المملكة العثمانية وخصوصا في مصر وسوريا . وقد عني بجمع تلك المراثي من نظم ونثر حضرة يوسف أفندى آصاف صاحب جريدة المحاكم وطبعها في مطبعة المحروسية في كتاب سماه « هو الباقي » وقد علمنا انه وردت كتابات أخرى في رثائه بعد أن طبع المجموعة

مؤلفاته

ويجمل بنا قبل الشروع في وصف مؤلفاته ان نصف قلمه اى أن ننظر في مؤلفاته نظرة عامة ونذكر ما اختص به من أوصاف الكتاب فنقول :

امتاز المترجم باتقان فنى النظم والنثر والاجادة في كليهما فتراه اذا نظم أو نثر انما يفعل ذلك عن سعة وارتياح كأنه وعى الفاظ اللغة في صدره وأخذ عليها عهدا ان تأتيه صاغرة حالما يحتاج اليها فاذا خطر له معنى سبكه في قالب من اللفظ

لائق به بغير أن يتكلف في ذلك مشقة أو ترددا . فترى كتاباته طلية طبيعية ليس فيها شيء من التكلف أو التقعر على كونها بليغة فصيحة والسبب في ذلك حدة ذهنه وقوة ذاكرته وسعة اطلاعه وكثرة محفوظه مع حرية قلمه . وكان يطلق لقلمه العنان غير محاذر وأظنه السبب فيما نراه في بعض مؤلفاته من المجون الذي تنفر منه طباعنا وتمجه أذواقنا . على أن المجون إذا لم يتجاوز حده كان أحماضا أو هو بمثابة الملح للطعام وذلك كثير في كتابات المترجم مما يرغب المطالع في المطالعة فلا يمل منها وإن طالت

ومن خصائص كتابة الشيخ أحمد فارس السلاسة وارتباط المعاني بعضها ببعض واتساقها مع التوسع في التعبير وتتبع الموضوع الى جزئياته مع مراعاة الموضوع الاصلى والعود اليه وترى ذلك واضحا في كتابه كشف المخبأ فإذا أراد وصف عادة من عادات أهل باريس مثلا فإنه يتطرق منها الى ما يماثلها من عادات العرب أو الأتراك فيذكر وجه الخطأ هنا أو هناك وما هو سبب هذه العادة وربما جاء بتاريخها ومن جاء بها حتى يخال لك أنه خرج عن الموضوع ثم لا يشعر إلا وقد عاد بك اليه بغير تكلف . وكل ذلك بغاية السلاسة والطلاوة مع البلاغة . وترى في مؤلفاته كثيرا من الالفاظ العربية جاء بها للتعبير عن معان حديثة أجنبية لم تكن عند العرب وهي في الغالب تدل على حسن اختياره

ومن الأدلة على اقتداره في التعبير أنه مغال فإذا مدح بلغ ممدوحه عنان السماء ، وإذا هجا أنزل مهجوه دركات الجحيم . وترى كتاباته على بلاغتها وحسن سبكها تتجلى فيها البساطة والسهولة كأن كاتبها كان يكتب كل ما يمر بذهنه على غير تكلف أو مراعاة لخطه الكتاب قبله وهو استقلال في الرأي واعتماد على النفس . فمن ذلك في بداية فصل يصف

به مصر في كتاب الفارياق قوله : « قد قمت حامدا لله
شاكرا فأين القلم والدواة حتى أصف هذه المدينة السعيدة
الجديرة بالمدح الخ » وفي هذا الأسلوب من الطلاوة ما لا يخفى
ولكل مقام مقال

فلنشرع اذا في وصف مؤلفاته :

(١) سر الليال في القلب والابدال : وهو كتاب لغوي
تحليلي كتبه في الاستانة العلية لمقصدتين .. أولا : لسرد
الافعال والاسماء التي هي أكثر تداولاً وأشهر استعمالاً
وتنسيقها بالنظر الى التلفظ بها لايضاح تناسبها وابداء
تجانسها وكشف أسرار معانيها وأصل مدلولاتها . ثانيا :
استدراك ما فات صاحب القاموس من لفظ أو مثل أو
ايضاح عبارة أو نسق مادة . والكتاب يشتمل على نحو
ستمائة صفحة بقطع كبير طبع بالاستانة سنة ١٢٨٤ هـ

(٢) الساق على الساق فيما هو الفارياق : وقد تقدم ذكر
هذا الكتاب في ترجمة حياته وهو كبير الحجم يشتمل على
نحو ثمانمائة صفحة كبيرة كتبه أثناء سياحته في أوروبا .
ويظهر لمن طالعه أن مؤلفه أراد به ثلاثة أمور . الاول : وصف
أسفاره وأحواله الخصوصية وما قاساه في أوائل حياته .
والثاني : التنديد بجماعة من الأكلروس لم يذكر أسماءهم الا
رمزا وتقبيح ما ارتكبوه في مقتل أخيه أسعد . وأما الامر
الثالث : وهو الأهم فهو إيراد الالفاظ المترادفة في اللغة في
مجموعات كل موضوع على حدة كأسماء الآلات والادوات
وأصناف المأكول والمشروب والشموع والفروش والمركوب
والخلى والجواهر وأوصاف الرجال والنساء وغير ذلك مما
لايتيسر وجوده في كتاب واحد وعلى أسلوب لم نشاهد مثله
في العربية

على أننا لا نستطيع الانتقال من وصف كتاب الفارياق
قبل الإشارة الى أمر وددنا لو كفانا رحمه الله مؤونة النظر

فيه ، وذلك انه اورد في ذلك الكتاب الفاظا وعبارات اراد بها المجون ولكنها تجاوزت حدوده حتى لايتلوها اديب الا ود لو انها لم تمر في ذهن شيخنا ولا دونها في كتابه تنزيها لأقلام الكتاب عما يخجل من قراءته الشاب فضلا عن العذراء . وقد طبع الفارياق في باريس سنة ١٢٧٠ هـ

(٣) الجاسوس على القاموس : الفه في الاستانة ينتقد فيه معجم القاموس المحيط للفيروزابادي وهو يشتمل على مقدمة وأربعة وعشرين نقدا . أما المقدمة فهي ملاحظات كثيرة لغوية من جملتها ترتيب الافعال بحسب ما نسقه الكوفيون ثم ترجمة صاحب القاموس وصاحب العباب وصاحب الصحاح وصاحب المحكم وصاحب لسان العرب وهم من فطاحل علماء اللغة . أما الاربعة والعشرون نقدا فهي انتقاده ما ورد في القاموس من عبارته وخطته ومعاني الفاظه واشتقاقها وما شاكل ذلك . وعدد صفحات الكتاب زهاء سبعمائة صفحة

(٤) كشف المخبا عن فنون أوربا : وهو سياحته في أوربا وصف فيه عوائد أهل أوربا وخصوصا الانجليز والفرنسيين ومتاحف لندن وباريس وآثارهما وقد قال انه اختصر في وصف باريس لأن المرحوم رفاعة بك قد سبقه الى وصفها مطولا وقد طبع هذا الكتاب غير مرة

(٥) الواسطة في أحوال مالطة : وفيه وصف جزيرة مالطة جغرافيا وتاريخيا ومدنيا وعوائد أهلها وأخلاقهم ولغاتهم وكل مايتعلق بهم

(٦) اللفيف في كل معنى طريف : جمع فيه كلمات مفيدة وحكما مأثورة وأمثالا أدبية وحكايات تهذيوية ونكاتا لغوية

(٧) غنية الطالب ومنية الراغب : وهو كتاب مدرسي في علم الصرف والنحو

(٨) الباكورة الشهيمة في نحو اللغة الانجليزية وتليها

المحاورة الانسية في اللغتين العربية والانجليزية : وهو كتاب
مدرسى لتعليم اللغة الانجليزية

(٩) السند الراوى فى الصرف الفرنساوى : وهو كتاب
لتعليم اللغة الفرنسية

هذا عدا جريدة الجوائب التى حررها زهاء ثلاثين سنة وقد
تقدم ذكرها فى ترجمة حاله وجمع نجله سليم أفندى فارس
نخباً منها فى كتب سماها منتخبات الجوائب

وهناك كتب ألفها ولم تطبع ، منها كتاب النفائس فى
انشاء أحمد فارس والتقنيع فى علم البديع والروض الناضر
فى أبيات ونوادير وتليه رسائل ومحركات أدبية . وديوان
شعرى من نظمه يشتمل على اثنين وعشرين ألف بيت

وقد ألف كتاباً مطولاً فى اللغة سماه « منتهى العجب فى
خصائص لغة العرب » قضى فى تأليفه سنين عديدة نحا فيه
نحواً حديثاً لم يسبقه اليه غيره على أسلوبه وقد أسهب فيه
حتى بلغ مجلدات كثيرة وموضوعه البحث فى خصائص
الحروف الهجائية العربية مثال ذلك قوله : « ان من خصائص
حرف الحاء السعة والانبساط أى ان اللفاظ التى تنتهى
بحرف الحاء يكون فى معناها شئ من خصائص هذا الحرف
نحو الابتجاج والبندج والبراج والابطح والابلنداج والرحرح
والمسفوح والمفرطح والمسطح وما شاكل . ومن خصائص
حرف الدال اللين والنعومة والغضاضة نحو البرخداة والتيد
والثأد والخود والرادة والرهادة والفرهد والاملود والقشدة
والملد وغيرها . ومن خصائص حرف الميم القطع والاستئصال
والكسر نحو أرم وترم وجزم وجلم وخسم وحطم وما جرى
مجراها وقس عليها . ولو نظرنا فيما أورده من الامثال
لرأينا منه تساهلاً فى تطبيقها على ما اراده على أننا لانكر
ماكان يرجى منه من الفوائد الجزيلة لو طبع الكتاب ونشر

ولكنه فقد حرقا على اثر حريق اصاب منزله في الاستانة
فأسف هو لذلك أسفا شديدا . واخبرنا صديق أنه رأى
بين اوراق الشيخ احمد فارس تأليفات تراجم مشاهير العصر
لم يطبع . وربما كان له مؤلفات اخرى لم تقف على خبرها
وما لا يلىق بنا الاغضاء عنه أن مطبعة الجوائب طبعت كتباً
عربية كثيرة كانت نادرة الوجود فأحييتها ونشرتها بين المتكلمين
بالعربية وسهلت تناولها وهى ماثرة حسنة تضاف الى مآثره
الآخري



عبد الحمولى

١٢٦١ - ١٣١٩ هـ الموافق ١٨٤٥ - ١٩٠١ م

ان الامة شديدة التعلق بموسيقيتها وشعرائها وخطبائها ومن جرى مجراهم من رجال الادب ممن يشاركون الناس في احساسهم . فالشعراء يصورون عواطف الامة ويدافعون عنها . والخطباء يحركون حاستها ويجمعون كلمتها . والموسيقيون ومنهم المغنون يطربونها ويشرحون صدورها . ويشدد شعور الامة بفضل أولئك الرجال ويتعاضم أسفها على ضياعهم بسببة مبلغها من التقدم فى معارج المدنية

نعم ان الامة اذا تمدنت عرفت قدر مخترعيها وعلمائها وفلاسفتها وساستها وغيرهم من رجالها العظماء فتنتحت لهم التماثيل وتقيم لهم الانصاب وتؤلف الكتب فى الثناء عليهم . ولكنها تفعل ذلك مدفوعة باقرارها بالجميل . وأما الشعراء والموسيقيون والخطباء فانها تشعر بفقدانهم شعور الصديق بموت صديقه أو الوالدة بضياع ولدها . فتبكيهم بلا كلفة ولا صناعة والفيلسوف أستاذ الامة وحكيمها والمخترع ساعدها وخادمها فى تسهيل أعمالها - وأما الشاعر فانه يترجم عواطفها ويصور ارادتها . والموسيقى ينفس كربها وينعش روحها ، والخطيب ينهض همتها ويجمع كلمتها ، ففى موت أحدهم تأثير على النفس يثير العواطف ويهيج الشجون وفى حياته حياتها الادبية ، والأمم المتمدنة تكون آدابها كما يشاء شعراؤها وخطبائها وموسيقيوها - فلا غرو اذا جن الناس بأهل تلك القرائح ..

الا ترى ما فعل الفرنسيون بفيكتور هيجو شاعرهم وكاتبهم
وقد عشقوه حتى كادوا يعبدونه فحملوه على اكفهم وهو حي
وطافوا به الشوارع والازقة ينادون بفضله وقس على ذلك
ما تبديه الامم المتعدنة من امثال ما تقدم

على ان اكرام الشعراء طبيعى حتى في عصور البداوة . فقد
كان الشعراء في جاهلية العرب حماة الاعراض تتفاخر بهم
القبائل وتستحث قرائحهم في الدفاع عنها

ويسرنا ان نرى ذلك الشعور قد اينع في وادى النيل في اواخر
القرن الماضى على اثر ما بلغته مصر من الارتقاء

فقد انبأنا صديق ثق بصدق روايته ان جماعة من اديباء
المصريين فى بعض مدن الصعيد لما بلغهم نعي الشاعر المرحوم
الشيخ نجيب الحداد وكانوا من قراء اشعاره ورواياته لم يكتفوا
بالبكاء والرثاء ساعة الفاجعة ولكنهم تحالفوا على ندبه في كل
حين - قال الراوى : « واشتد بهم الاسف حتى تواطأوا على
ترك الدنيا والاسراف فى صحتهم حتى يلحقوا به » ومهما يكن
من بعد هذا القول عن الحكمة والتعقل مع ما يتخلله من دلائل
الطيش فانه يدل على درجة اشتراك عواطف الامة بشعرائها

والموسيقى اخت الشعر وتأثيرها اعم من تأثيره لان الشعر
لا يؤثر الا على الذين يفهمونه ولا يستطيع ذلك غير الادباء
المتعلمين . واما الموسيقى فيفهمها ويتأثر منها كل ذى نسيمة
حية حتى الحيوان الى ادنى طبقاته . فالموسيقى ومن فى معناه
كالمغنى والمنشد يشارك الامة فى احساسها بل هو يتلاعب
بعواطفها كما يشاء . ويغلب ان يدعو الى انشراح الصدور
وزوال الهموم . ومصر اكثر بلاد الارض حاجة الى دواعى
الافراح لان اقليمها حار يورث الخمول ويضيق الصدر .
وبقاعها متشابهة لاجيال فيها تشرح الصدر بمناظرها ولابحار
واسعة يسرح فيها البصر ولا غير ذلك من المناظر الطبيعية .
فلا يجد المرء فرجا من ضيقه الا بالمجالسة والمحادثة وما يلحق



عبد الحمولى

بذلك من المسامرة والمنادمة والغناء وضرب الآلات ونحو ذلك من بواعث الطرب وبالانتخاب الطبيعي انطبع المصري على لطف الحديث وأصبح شديد التأثر من الحان الغناء . فلا غرو والحالة هذه اذا أسف المصريون على عبده الحمولى وهو بلبل أفراحهم بل هو أعظم مغن عربى فى العالم اليوم . وما من بلد فى وادى النيل لم يسمع أهله غناء «سى عبده» ناهيك بما بلغ من شهرته فى أقطار العالم الشرقى . ذلك ما حدا بنا الى نشر ترجمة حياته وجل اعتمادنا فى ذلك على ماكتبه صديقه ابراهيم المولى محرز مصباح الشرق قال :

ترجمة حياته

ولد بمدينة طنطا وكان أبوه يمارس تجارة البن وكان للمرحوم اخ أكبر منه فوق شقاق بين أخيه وأبيه ففر به أخوه من وجه أبيه هائما به فى الخلوات ، وكان كلما تعب المرحوم عبده من السير لصفر سنه حمله أخوه على كتفه . حتى دنا الغروب وهما على آخر رمق من الجوع والعطش وتعب السير لايجدان أحدا يأنسان به أو يلجآن اليه . الى ان سخر الله لهما رجلا آواهما وسد رمقهما فى ليلتهما ثم أقاما عنده أياما . ومن غريب الاتفاق أن الرجل كان يشتغل بصناعة الغناء ويضرب الآلة المعروفة بالقانون فى طنطا فسمع صوت المرحوم فى بعض روحاته وغدواته فأعجبه فعاد به الى طنطا واشتغل معه هناك مدة وجيزة وقد بقى تأثير تلك الوحشة والانفراد مع التعب والجوع فى تلك الليلة التى خرج فيها المرحوم من بيت أبيه مرسوما فى رأسه فكنت تراه فى آخر عمره ينقبض صدره ويتقطب وجهه كلما آن الغروب . وطالما قص هذه القصة على خلصائه ممن كانوا يعجبون لانقلابه الفجائى من السرور الى الانقباض فى ذلك الميعاد ..

ثم رأى ذلك الرجل الذى آواه عنده واسمه المعلم شعبان

أن يحضر به الى مصر فاشتغل معه في قهوة معروفة في ذلك العهد بقهوة عثمان أغا في غابة أشجار كانت موضع حديقة الازبكية فاتسع به رزقه وخاف أن يخرج من يده ويستميله غيره من أهل هذه الصناعة فيضيع عليه رزقه فرأى أن يربطه به بعقد زواجه من ابنته فاستذله وأسره وانقلب يعامله أسوأ المعاملة . وكان في مصر رجل طائر الصيت في فن الغناء اسمه «المقدم» أعجب بالمرحوم فسعى جهده ليلحقه به ويشتغل معه في «تخته» حتى وصل الى غرضه وجذب المرحوم اليه وفصل بينه وبين زوجته قطعاً لعلاقته بصاحبه وأنقذه مما كان فيه واستمر معه يغنى على الطريقة التى كانت معروفة عند المصريين في ذلك العهد ..

تاريخ الغناء بمصر

وأصل طريقة الغناء بمصر على مايعلم من تاريخ وضعها أن رجلاً من أهالى حلب اسمه شاكر افندى وفد الى القطر المصرى في المائة الاولى بعد الالف وكان فن الالخان فيه مجهولاً . فنقل اليه جملة تواشيح وقدود وكانت هى البقية الباقية من التلاحين التى ورثها أهالى حلب عن أهل الدولة العربية فتلقاها عنه بعضهم وصارت عندهم ذخيرة نفيسة يضمنون بها على الغير . واشتد حرصهم عليها وصار الواقفون عليها يحرمون الناس من تلقينها . وبقيت بينهم على بساطتها الاصلية يتصرفون فيها بدون الشد والتصوير . فكانت قاصرة على أمهات المقامات وبعض الفروع المقاربة لها وكانت بالنسبة للغناء مثل حروف الهجاء بالنسبة للكلام ..

وأقام المغنون في مصر على هذه الطريقة البسيطة لايتصرفون فيها الى عصر عبده الحمولى فتلقاها المرحوم منهم على أصلها وغنى بها مدة ثم دفعته سجيته في الطرب وحسن ذوقه في الغناء أن يتصرف فيها مع المحافظة على الاصل وعدم الخروج عن دائرته فأزال عنها بعض الجفوة . وما زال يرتقى

المرحوم في شهرته بحسن الغناء حتى الحقه اسماعيل باشا بمعيته فسافر معه الى الاستانة مرارا وسمع هناك آلات الموسيقى التركية . وجلب اسماعيل باشا في عودته الى مصر جماعة من اكابر المغنين فيها ، فكان المرحوم يحضر معهم دائما في اشتغالهم بالغناء . فاستمالته الحائهم وأخذ ينتقى منها ما يلائم المزاج المصرى ويناسب الطريقة العربية ورأى المجال واسعا له في الموسيقى التركية اذ وجد فيها كثيرا من النغمات التى لم يكن للمصريين علم بها ولم تطرق آذانهم من قبل مثل النهساوند والحجاز كار والعجم وغيرها فنقلها الى الغناء المصرى . ثم التفت الى بقية مصطلحات الغناء فى الطبقات المختلفة من ذلك العصر مثل المنشدين المشهورين بأولاد الليالى «الفقهاء» والعوالم «القيان» والمداحين «الضاربين بالدقوف» والتقط منهم ما استنسبه فأضافه مع المختار من الغناء التركى وخلطه بالطريقة القديمة فجعلها طريقة جديدة خاصة به . وظهر فى مصر وفيها شيوخ المغنين فصار شيخا عليهم . وقد دعاهم جهلهم بما صنعه الى استنكار طريقته فى أول الامر ولكن ما لبث الناس أن ذاقوا حلاوتها وطلاوتها فعم استحسانها . وذهب استنكارهم وانتصر بحسنها عليهم وله فيها من التلاحين أشياء كثيرة

مزاياه

ومن مزاياه فى صناعته أنه كان شديد الطرب لا يقل طربه فى أثناء تأديته للغناء عن طرب السامع له . وهو أول مغن مصرى اهتدى الى حسن الاداء واستصحب حركة الغناء بالإشارات التى تقوم مقام الحكاية . وكان شديد الحفظ لما يسمعه مجتهدا دائما فى استخراج محاسن المسموع وطرح معايبه ذا قدرة على أن يبدل القبيح فيه بالحسن . وكان ذهنه شديد التعلق بالنغم فلا يكاد ينساه وربما نام وهو على «التخت» فى أثناء الغناء ثم يستيقظ فيرجع الى الغناء كما كان فيه من غير مراجعة آلة أو استرشاد بأحد ممن معه كأنما كانت الطبقة رسخت فى

ذهنه فلم تشوش عليها الاصوات التى مرت عليه وهو فى نومه ولم تؤثر عليه الغيبوبة فى شيء . وكان لطيف التنقل يوهى السامع فى غنائه بأن مراده ما هو فيه حتى اذا رسخ ذلك فى ذهنه انتقل منه الى مقام آخر يدهش السامع ثم يتدرج حتى يعود الى ما كان عليه وذلك من أعظم المزايا وأكبر الفضل فى هذا الفن ..

وجملة القول فى باب الغناء أن المرحوم جدد فيه وأبدع وأحياه فى مصر بعد أن كان شيئاً خاملاً . ثم تمكن فيه من التوفيق بين المزاجين التركى والمصرى ، فبعد أن كان أهل الطبقة الحاكمة فى المصريين من الأصل التركى لا يطربون للغناء المصرى ولا يلتفتون اليه أصبحوا يفضل المرحوم وبما وفقه فيه من الانغام التركىة مقبولا عندهم مفضلا لديهم . وبعد أن كان المصريون لا يطربون من الغناء التركى ولا يروقههم غير طريقتهم طريقة التوجع والانين أصبحوا يطربون لما يلائمهم من الانغام التركىة التى انعش بها طريقتهم القديمة . فهو الجدير بأن يسمى فى مصر معادل المزاجين بين الامتين . وكما امتزج الجنسان فى الاجسام بالانساب فقد مزج بينهما عبده بالغناء فى الارواح . وكفاه فخرا أنه لم يصل أحد من قبله ولن يصل من بعده الى مثل ما وصل اليه من هذا الابتداء والاختراع الذى اهتدى اليه بما ميزه الله به من لطف الذوق وشدة الذكاء وحدة الطرب ومحبة الاتقان والترقى فى درجات الكمال

اخلاقه

وكان كبير النفس على الهمة يحاول الارتفاع عن طبقته ويسعى فى الخروج منها مقتصرًا على الاشتغال بالفن لذاته لجهل الناس فى جيلهم الماضى بعلو قدر هذا الفن وغفلتهم عن جلال منزلته بين الفنون . وقد عمد المرحوم الى ذلك بالفعل فى أيام الخديو اسماعيل باشا فترك مزاولة صناعته بالاجرة بين الناس

وخرج من زمرة المغنين الى زمرة التجار غير طامع في الذهب الذي كان يسيل من حياه بممارسة صناعته في تلك الاوقات . فافتتح محلا لتجارة الاقمشة واشترك فيه مع بعض التجار بمبلغ عشرين الف جنيه فما مضى عليها عشرون شهرا الا وانتهت به سلامة نيته وحسن ثقته أن خرج منها صفرا ليدين مدينا للشريك دائما للناس يمنعه الخجل ويحجبه الحياء عن طلب الوفاء . ولم يمتنع في أثناء ذلك عن الغناء بين الناس بل امتنع عن طلب الاجر عليه . الى أن عادت به حاجة العيش الى مزاولة صناعته كما كان في أول أمره . ولم يزل يتطلع الى غرضه في الانقطاع عنها كما فعل ودهره يحول دونه فلم يستطع بلوغه الى آخر مدته

بينه وبين اسماعيل

وكان شهما غيورا شريف السيرة يغار لنفسه ولا عراض الناس لا يبالي في ذلك بهول المواقف وفداحة الخطوب . أمر الخديو اسماعيل باشا ذات ليلة باحضار المرحومة المز لتغنى في بعض قصوره وهو في عزة سلطانه وشدة بطشه لا يعصى له الناس أمرا ولا يخالف هواه الا من ارتضى لنفسه سكنى القبور . ولا يحلم أحد في منامه أن يقف موقف المعارض في رغبته أو الممانع لشارته . فتوقف المرحوم عبده وكان قد تزوج بها بعد أن منعها عن ممارسة الغناء وأبى أن تخرج من بيته . فعاوده الطلب بالتشديد فاستمر على ابائه الى أن وصل الامر الى استعمال القوة . فأرسل مأمور الضابطة بعض أعوانه الى منزله وأرادوا اخراجها منه بالقوة . فوقف أمامهم وقفة الليث يحمي أشبال العرين . وفضل الموت أو النفي على أن تغنى المرحومة لحنا واحدا لاحد وهي في عصمته

ولما لم يفده موقفه أمام القوة بفائدة استمهلهم برهة ريثما يعود اليهم . فدخل البيت وألقى بنفسه الى حائط الجدار وخرج منها الى الطريق لاجئا الى صديقه المرحوم الشيخ على

الليثى فكاشفه بما هو فيه من هول الخطب . وكان هذا الشاعر
المرحوم ممن جمع الله له أيضا كثيرا من المزايا الفاضلة والاخلاق
الكريمة وأخصها علو الهمة والسعى لخير الناس . وكان ذا
مكانة رفيعة عند اسماعيل باشا صديق فقام اليه في الحال
وتواقع الشيخ عليه يلتمس حسن الوساطة لدى ذلك الحاكم
القاهر ليرجع في أمره . فقام الوزير من ساعته وقصد مولاه
وتلطف له ما أمكن في الاعتذار وما زال به حتى رجع عن طلبه
ورضى بعصيان عبده لطاعته وخلص المرحوم من هذه الحادثة
معافى في نفسه مصابا في جسمه . فقد تولد من اضطراب أعصابه
من شدة ما قاساه في هذه النازلة داء الصداع فلم يفارقه طول
حياته . وكانت اذا اعترته نوبته ألقتة على الأرض صريعا يتخبط
في أشد الآلام لا يكاد من يراه على تلك الحال يصدق بنجائه فيها .
فاذا أفاق لزم الفراش من عظم وقعها مدة طويلة . ولم ينجم في
ذلك الداء معالجة الاطباء

وسافر المرحوم في سنة ١٨٩٦ الى الاستانة وحظى
هناك بالثول بين يدي السلطان مرارا وأعجب أمير المؤمنين
بمهارته في فنه وحسن تأديته له فأسنى عطيته وبلغه حسن
رضائه وكان الوساطة بينهما للتبليغ في ذلك المجلس «السيد
أبو الهدى» . ومما تلقاه عنه من أوامر أمير المؤمنين أن يلحن ماغناه
في حضرته من الاصوات لبعض ضباط الموسيقى العثمانية فلحن
المرحوم منه ما أمكنه ولم يسع الوقت تمام القيام بالامر فوعد
أنه سيشتغل عند عودته الى مصر بربط تلك الاصوات برابطة
«النوتة» ثم يعرضها على السلطان لسهل أخذها على
ضباط الموسيقى

فلما عاد الى مصر أتمها عشرين صوتا «دورا» مربوطة «بالنوتة»
وأرسلها من طريق رسمي الى الاستانة فلم يلق فيها ما يحقق
آماله ..

وفاته

وعاد الى مصر مصابا بداء «البول السكرى» فأنهك جسمه وأضعف قواه وغادر حلوان الى سكنى مصر وقد تراكت عليه هموم الحياة فزادت في ضعف الجسم وظهر ذلك الداء الدفين في الرئة ودخل من داء السل في الدرجة التى لايرجى منها شفاء . وأشار عليه الاطباء بسكنى الصعيد مدة الشتاء فأقام في سوهاج شهرين ونصفا. عادت له فى أثنائها بعض قوته وتقوى أمله فى شفائه ولم يدرك المرحوم ماكنه دائه الا فى اليوم الذى مات فى غده . ثم عجل العودة الى مصر ليشغل بوضع غنائه فى اسطوانات «الفونوغراف» طلبا للعيش ولما حضر بأشر ذلك فعلا ثم جاءه نعى أحد أصدقائه المخلصين بالمنيا فاغتم عليه غمسا شديدا ولم يسمع لنصيحة أصحابه بل خالفهم لقضاء ماتوجه عليه مروءته وسافر الى تلك المدينة وأقام هناك أياما مشاركا لأهل الميت فى أحزانهم ولما عاد اشتد المرض عليه حتى أدركته منيته



هذا هو عبده الحمولى وقد رايت من ترجمة حياته انه كان على استعداد كبير لفن الموسيقى. ومن أكبر الدلالة على استعداد شدة طربه من الغناء كأنه كان يغنى ليضطرب نفسه . وشغف المرء بصناعته وتلذذه بممارستها يدلان على انطباعه عليها واقتداره على اتقانها . ولكن الحمولى عاش فى بلاد لم يكن لعلم الموسيقى أثر فيها واشتغل باطراب الناس عن طلب العلم من مصادره فلم يبد من مواهبه الا ماتهيات له الاحوال

وعندنا أن الرجل لو درس فن الموسيقى على أهله فى أوروبا وعدل عن الغناء الى التلحين والى الألحان لكفانا مؤونة التحسر على ضياع هذه الصناعة بيننا وجعل للموسيقى العربية فنا مستقلا له روابط وضوابط وكانت الألحان الشائعة على السنة المغنين مضبوطة فى الكتب على قواعد ثابتة

ولا لوم عليه فانه قد نشأ بين العامة فلما شب شغله اعجاب
اكابر المصريين بما عنده من استزادته . ومصر في غفلة عن هذا
الفن . فلما افاقت كان هو قد شغل بصحته وداخليته فأسف
المصريون على ما فات وأرادوا تدارك مابقى فالتمسوا حبس
صوته في الفونوغراف فلم يمهلهم أجله فضاغ ولم يبق من آثار
تفنه الا ما اقتبس به بعض المغنين من مجالس غنائه في أثناء
حياته . وبلغنا أن بعض أصدقائه تمكن من أخذ بضع اسطوانات
فونوغرافية من صوته قبل موته



فهرس

صفحة

مقدمة ٨

قادة وساسة

عبد القادر الجزائري ١٢

أحمد عرابي ٢٤

محمود سامي البارودي ٤٤

مصطفى كامل ٥٢

رجال أصلاح

السيد جمال الدين الحسيني الافغاني ٦٤

الشيخ محمد عبده ٧٧

السيد عبد الرحمن الكواكبي ٨٨

قاسم أمين ٩٣

رجال علم وتعليم

محمود باشا الفلكي	١٠٨
رفاعة رافع الطهطاوى	١١٣
عبد الله باشا فكرى	١٢٠
على باشا مبارك	١٢٧

رجال أدب وفن

السيد عبد الله نديم	١٣٦
الشيخ ناصيف اليازجى	١٤٥
ابراهيم بك المويلحى	١٥٥
بطرس البستاني	١٦٣
أحمد فارس الشدياق	١٧٢
عبد الحمولى	١٨٥

كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية بثمن زهيد

هي خطوة ثقافية كبيرة قامت بها دار الهلال لتيسير القراءة المفيدة للجميع .. ففي الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لأحد كبار الكتاب في الشرق والغرب ، في اخراج أنيق وطباعة متقنة ، ثمن الكتاب الواحد ٨٠ مليما - ما عدا كتاب زينب ١٠٠ مليم - بخلاف مصاريف البريد المسجل ، وقد صدر من هذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتية :

عبقريه محمد تأليف عباس محمود العقاد	الزعيم احمد عرابي تأليف عبد الرحمن الرافعي
ماجلان قاهر البحار تأليف ستيفان زفايج	بطلة كريلاء (نغدت نسخه) تأليف الدكتورة بنت الشاطيء
هرون الرشيد تأليف المرحوم الدكتور أحمد أمين	اشعب امير الطفيليين تأليف توفيق الحكيم
أبو الشهداء تأليف عباس محمود العقاد	نفرتي ربة الجمال والتاج تأليف صوفي عبد الله
جنكيز خان سفاك الشعوب تأليف ف . بان	حديث رمضان تأليف الامام محمد مصطفى المراغي
قلب النسر تأليف اوكتاف اوبري	عبقريه خالد تأليف عباس محمود العقاد
السيد عمر مكرم تأليف محمد فريد أبو حديد	الذئب الاغبر مصطفى كمال تأليف الكابتن هـ.س. ارمسترونج
غاندى : القديس الثائر تأليف لويس فيشر	كليوباترة في خان الخليلى تأليف محمود تيمور
زعيم الثورة سعد زغلول تأليف عباس محمود العقاد	الاسلام دين الفطرة تأليف الشيخ عبد العزيز جاويش

لا تخف

تأليف ادوارد سينسر كولز

مصطفى كامل باعث النهضة الوطنية

تأليف عبد الرحمن الرافعي

القائد الاعظم محمد علي جناح

تأليف عباس محمود العقاد

زينب

تأليف الدكتور محمد حسين هيكل

مذكرات عرابي (جزء اول)

تأليف الزعيم احمد عرابي

مذكرات عرابي (جزء ثان)

تأليف الزعيم احمد عرابي

عبقريه عمر

تأليف عباس محمود العقاد

أمنة بنت وهب

تأليف الدكتورة بنت الشاطيء

فاطمة الزهراء والفاطميون

تأليف عباس محمود العقاد

عصا الحكيم في الدنيا والآخرة

تأليف توفيق الحكيم

ابو نواس

تأليف عبد الرحمن صدقي

في الطريق

تأليف ابراهيم عبد القادر المازني

ذو النورين عثمان بن عفان

تأليف عباس محمود العقاد

محمد الثائر الاعظم

تأليف فتحي رضوان

مدرسة المغفلين

تأليف توفيق الحكيم

لا تقتل نفسك

تأليف بيترشتاينكرون

عصاميون من الشرق والغرب

لنخبة من كبار الكتاب

البؤساء

تأليف فيكتور هيجو

الارواح المتردة - الاجنحة المتكسرة

الموسيقى

تأليف جبران خليل جبران

علمتني الحياة

لنخبة من علماء الشرق والغرب

عش مائة عام

تأليف جابلورد هاويز

الحرية الحمراء

تأليف حبيب جاماتي

اهل الكهف

تأليف توفيق الحكيم

الله

تأليف عباس محمود العقاد

عش شابا طول حياتك

تأليف فيكتور بوجومولتز

علم الفراسة الحديث

تأليف جرجي زيدان

نساء النبي

تأليف الدكتورة بنت الشاطيء

نأثرون

تأليف محمود تيمور

زهرة العمر

تأليف توفيق الحكيم

هذا ملهبي

بأقلام نخبة من الشرق والغرب

غلاة النيل

تأليف أميل لودفيج

الف ليلة وليلة (الجزء الخامس)	طريق السعادة تأليف فيكتور بوشيه
مع الله .. في السماء تأليف الدكتور أحمد زكي	مطلع النور تأليف عباس محمود العقاد
الف ليلة وليلة (الجزء السادس)	يوميات نائب في الأرياف تأليف توفيق الحكيم
قصة الثورة كاملة تأليف أنور السادات	الف ليلة وليلة (الجزء الأول)
جحا الضاحك المضحك تأليف عباس محمود العقاد	عبقريّة الصديق تأليف عباس محمود العقاد
بنات النبي تأليف الدكتورة بنت الشاطيء	الف ليلة وليلة (الجزء الثانى)
عبقريّة الامام على تأليف عباس محمود العقاد	مدرسة الشيطان تأليف توفيق الحكيم
شاعرة الطبيعة عائشة تيمور تأليف الأنسة مى	الف ليلة وليلة (الجزء الثالث)
بطل الكفاح الشهيد محمد فريد تأليف عبد الرحمن الرافعى	معاوية بن أبى سفيان تأليف عباس محمود العقاد
قال الرئيس للرئيس جمال عبد الناصر	الف ليلة وليلة (الجزء الرابع)
	اعرف نفسك تأليف ادوارد سبنسر كولز

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من قسم الاشتراكات بدار الهلال شارع محمد بك عز العرب ((المتديان)) بالقاهرة وشركة الصحافة المصرية بشارع النبي دانيال بالاسكندرية ، ومن شركة الصحافة المصرية بميدان المحطة بطنطا ، ومن السيد محمود حلمى صاحب المكتبة المصرية شارع المتنبي ببغداد ، ومن شركة فرج الله للمطبوعات بشارع بيكو طريق المالكى ببيروت ، ومن المكتب الصام لتوزيع المطبوعات لصاحبه السيد على نظام ببنية العابد بدمشق ، ومن جميع المكتبات الشهيرة واكتشاك الصحف ، ما عدا الكتب التى نغدت نسخها كما ترى فى هذا الكشف

الكتاب القادم

محمد

بقلم

توفيق الحكيم

يصدر في ٥ ابريل القادم

وكلاء مجلات دارالهملا

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات - مرزها
الرئيسي بطريق الملكى المتفرع من شارع
بيكو في بيروت صندوق بريد ١٠١٢
(الأعداد ترسل بالطائرة للشركة وهى
تسولى تسليمها لحضرات المشتركين)

العراق : السيد محمود حلمى - صاحب المكتبة
العصرية - بغداد

اللاذقية : السيد نخلة سكاف

جدة : السيد هاشم بن على نحاس - ص.ب. ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد - مكتبة المؤيد -
البحرين

Dr. Michel H. Thomé,
Pateo Do Colegio Nº 3
3º Andar — Sala 9 : **البرازيل**
SAO PAULO — BRASIL.

هذا الكتاب

الأمة العربية ، في المشرق والمغرب ، أشد ما تكون حاجة في نهضتها القومية الحالية الى معرفة تاريخ رجالها الأفاضل وبناء نهضتها ، الذين كان لهم فضل ارساء قواعد هذه النهضة التي نفخر بها اليوم ، والتي نحس معها ان روح هؤلاء القادة القدماء قد سرت الينا جميعا وسلسلة كتاب الهلال تقدم اليوم كتابها الجديد « بناء النهضة العربية » الذي يضم بين دفتيه طائفة من القادة والساسة ، ورجال الاصلاح ، ورجال العلم والتعليم ، ورجال الادب والفن

والذي وضع هذا الكتاب شهدت له المحافل العلمية ، وقراء اللغة العربية ، انه رجلا مؤرخا عظيم ، وانه بحاشية عن الحقائق التي لا يحيد مع الهوى ، وهذا شأن المؤرخ ان مؤلف هذا الكتاب العظيم هو المرحوم جرجي زيدان مؤسس الها وضع سلسلة ضخمة من المؤلفات والروايات التاريخية التي اقبل القاءها اقبالا عظيما في جميع الاقطار العربية الى كثير من اللغات الشرقية والغربية

Bibliotheca Alexandrina



0435332

